

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت



General Circulation
The Library (مكتبة)

عصر لويس الرابع عشر

تاريخ الحضارة الأوروبية
في عصر

بسكال ومولير وكروموك وملتن
وبطرس الأكبر ونيوتن وسبينوزا

١٦٤٨ - ١٧١٥

مراجعة
عماد أدهم

ترجمة
فؤاد أندراوسين



تونس

الجزء الأول من المجلد الثامن

الهيئة العامة للكتاب تأسست بقرار رقم ٢١
رقم التصنيف
رقم التسجيل ١٩٠٥٨ / ١٦ / ١٤



بيروت

حقوق الطبع محفوظة

دار الحديث : ص.ب. ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - فاكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار صيلا بے - بيروت - لبنان

إلى القارىء العزيز

هذا المجلد هو الجزء الثامن فى تاريخ نسيت بدايته ، ولن ندرك نهايته أبدا . موضوعه الحضارة ، وتريفنا لها أنها ذلك النظام الاجتماعى الذى يدعم الإبداع الثقافى ، فهو إذن ينظم أبواب الحكم ، والاقتصاد (أى الزراعة والصناعة والتجارة والمالية) ، والأخلاق ، وآداب السلوك ، والدين ، والفن ، والأدب ، والموسيقى ، والعلم ، والفلسفة . وهدفه التاريخ المتكامل - أى تغطية جميع نواحي النشاط لىب ما فى منظور واحد ورواية موحدة . وقد حققنا هذا الهدف ولكن فى قصور شديد . ومسرحة أوربا ، وزمانه يمتد من معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) إلى وفاة لويس الرابع عشر ، الذى غلب حكمه (١٦٤٣ - ١٧١٥) على العصر وسماه باسمه .

أما الموضوع الغالب على هذا الجزء فهو « المناظرة الكبرى » بين الإيمان والعقل . لقد كان الإيمان مقربا على العرش إبان هذه الحقبة ، ولكن العقل كان يجد أصواتا جديدة تفصح عنه فى هوبز ، ولوك ، ونيوتن ، وبيل ، وفونتنيل ، وسبينوزا ، و « كان هذا العصر الكلاسيكى من أوله إلى آخره ما أطلقه على ذاته فى ختامه ، أى عصر العقل » (١) وقد خصصنا ثلث الكتاب تقريبا لثلك المغامرة الفكرية التى انطلقت من الخرافة والظلامية والتعصب إلى الدرس والعلم والفلسفة . وقد بذل المؤلفان محاولة لرواية هذا النقاش فى إنصاف رغم انحيازهما الواضح إلى أحد الجانبين ، ومن ثم كان تناولها المستفيض ، المتعاطف ، لنفر من المنافحين الأكفاء عن الإيمان ، أمثال بسكال ، وبوسويه ، وفنيلون ، وباركلى ، ومالبرانش ، وليبنتر . وسوف يعيش أبنائنا فصلا جديدا فى صراع المثل هذا ، وهو صراع لا بد لكل انتصار فيه أن يكسب من جديد المرة بعد المرة .

وأملنا أن تقدم للقراء الجزء التاسع الذى يتناول « عصر فولتير »

في ١٩٦٥ ، والجزء العاشر « روسو والثورة » في ١٩٦٨ ، ولقد اعترضتنا عقبات ، بعضها نجم عن ضخامة المادة التي أتاحها لنا القرن الثامن عشر ، وكلها يتطلب الدرس والحيز الكافي . وإنا خلال ذلك راكسنا إلى « القوى العظمى » في ألا تدمر موضوعنا هذا قبل أن تدمرنا .

ول وايريل ديورات

مايو ١٩٦٣

إقرار بالفضل

لقد لقي ربه أحد الناشرين المشاركين اللذين بدأنا معها « مشروع الكلام » هذا في ١٩٢٦ ، ولن ننسى أبدا روحه النيرة المتألقة . وما زال الثاني صديقا لنا ، وهو لا يفتأ متحمسا ، سمحا ، غفورا . إنه ناشر لم يطغ عمله على شاعريته .

وعسى ألا يفسر انتهازنا هذه الفرصة — التي قد تكون الأخيرة — للإعراب عن عرفاننا بجميل النقاد الكثيرين الذين أتونا بقراء لهذه المجلدات — نقول عسى ألا يفسر هذا بأنه « إحساس قوى بأفضال قادمة » ، فما كنا بغير معوتهم إلا صوتين صارخين في البرية .

ونحن مدينان ديننا كبيرا لابنتنا إيثيل لما بذلت من جهد مخلص في نسخ مسودتنا الثانية ، التي لم تسكن واضحة تمام الموضوع ، على الآلة السكّابة نسخا قرب السكّال ، ولما أدخلت عليها من تنقيحات صائبة ، ولاخواتنا وأخينا — ساره ، وفلورا ، وماري ، وهاري كأوفان — لما قاموا به من تصنيف صابر لنحو أربعين ألف جزاة تحت اثني عشر ألف عنوان ، وللسيدة آن روبرتس بمكتبة لوس أنجيليس العامه ، والآنسة داجني ولجيز بمكتبة هوليوود الإقليمية ، لما قدمت من معونة قيمة في توفير الكتب النادرة لمان جميع أرجاء أمريكا ، فإنا كان لهذه المجلدات أن تكتب لولا مسكباتنا السخيه العظيمة ، وللسيدة فيرا شنيدر ، عضو هيئة التحرير بمؤسسة سيمون وشوستر ، لما لقي هذا المجلد وسابقه على يدها من تحقيق علمي دقيق لم يظفر بمثله في أغلب الظن إلا القليل من المخطوطات .

الكتاب الأول
فرنسا في أوج عظمتها

١٦٤٣ - ١٧١٥

الفصل الأول

الشمس تشرق

١٦٤٣ - ٨٤

١ - مازاران والفرونند : ١٦٤٣ - ٦١

ترى ما الذى أطمأن فرنسا على أن تفرض على أوروبا الغربية منذ ١٦٤٣ ،
سلطانا فيه ما يشبه قوة التنويم ، اتصل في ميدان السياسة حتى ١٧٦٣ ،
وفي ميادين اللغة والأدب والفن حتى ١٨١٥ ؟

إن العالم لم يشهد قط منذ أيام أوغسطس ملكية إزدادت بمثل هذا
العدد من أفذاذ الكتاب والمصورين والمثاليين والمعماريين ، أو حظيت بمثل
الإعجاب والمحاكاة الواسعين ، سواء في آداب المجتمع أو الأزياء أو الأفكار
أو الفنون ، اللذين حظيت بهما حكومة لويس الرابع عشر من ١٦٤٣ إلى
١٧١٥ . لقد كان الأجانب يؤمّون باريس وكانهم يؤمّون مدرسة تهذيبية
تصقل كل ألوان الجمال في الجسم والعقل . وكان الألوفا من الايطاليين ،
والألمان ، وحتى الإنجليز ، يؤثرون باريس على أوطانهم .

أن من أسباب هيمنة فرنسا آنئذ ضخامة قواها البشرية . فقد بلغ
سكانها عشرين مليوناً من الأنفس في ١٦٦٠ ، في حين لم يزد سكان كل من
أسبانيا والمجتراتا على خمسة ملايين ، وإيطاليا على ستة ، والجمهورية الهولندية
على مليونين . أما الامبراطورية الرومانية المقدسة ، التي شملت ألمانيا ،
والنمسا ، وبوهيميا ، والمجر ، فقد سكنها واحد وعشرون مليوناً تقريباً ،
ولكنها لم تكن إمبراطورية إلا بالاسم وقد أفقرتها قبيل هذه الحقبة حرب
الثلاثين ، وانقسمت إلى نيف وأربعمائة دويلة ، شديدة الحرص على «سيادتها» ،

جلها صغير مستضعف ، ولسكل منها حاكمها ، وجيشها ، وعملتها ، وقوانينها ، ولا يزيد سكان الواحدة منها على المليونين - وعلى نقيض هذا كانت فرنسا بعد ١٦٦٠ أمة متماسكة جغرافياً ، متحدة تحت حكومة مركزية قوية واحدة ، وهكذا تخضت جهود ريشليو الأليمة عن مولد « القرن العظيم » .

ولقد قاز البوربون حيث أخفق الفالوا في ذلك الصراع الطويل الذي نشب بين الهابسبورج والملوك الفرنسيين . وأخذت أجزاء من الإمبراطورية ، عقداً بعد عقد ، تقع في قبضة فرنسا ، ثم نزلت أسبانيا الهابسبورجية عن كبرياتها وزعامتها في روكروا (١٦٤٣) و صلح البرانس (١٦٥٩) . وبعدها عقد لواء القوة للدولة الفرنسية في العالم المسيحي ، دولة مطمئنة إلى مواردها الطبيعية ، ومهارات شعبها وولائه ، وخطط قادتها العسكريين ، ومصير ملكها . كذلك كان من الأهمية بمكان ما كتب لهذا الفتى من حكم سيتصل قرابة ثلاثة أرباع القرن ، مضيفاً بذلك وحدة الحكومة والسياسة إلى وحدة العرق والأرض ، وهكذا سنرى فرنسا طوال خمسين عاماً ترمي وتستقدم عباقرة العلم والأدب ، تشيد القصور الشامخة ، وتجهز الجيوش الضخمة ، وترهب نصف الدنيا وتلهبها . لقد قدر لهذه الصورة أن تكون صورة عظمة لم تسكد تضارعها من قبل عظمة ، ترسم بكل ضروب الفن وألوانه ، وبدم الرجال أيضاً .

لم تسكن فرنسا قد توحدت بعد يوم ارتقى لويس الرابع عشر العرش وهو لا يجاوز الخامسة (١٦٤٣) ، وكان على كردينال ثان أن يتم العمل الذي بدأه سلفه ريشليو . ذلك هو جول مازارن الذي كان يسمى في إيطاليا جوليو مازارينى ، وقد ولد في « الأبروتزي » لأبوين صقليين فقيرين ، وتولى اليسوعيون تعليمه في روما ، وخدم البابوات موظفاً دبلوماسياً ، ثم لفت أنظار أوروبا فجأة يوم أنهى الحرب المانتوية (١٦٣٠) بالمفاوضة العظيمة حرجة . فلما أوفده البابا معوثاله في باريس ، ربط مصيره بعبقرية

ريشليو المسيطرة ، فكافأه هذا على إخلاصه بقبعة للسكردينالية . وحين حضرت المنية ريشليو ، « أ كبد للملك أنه لا يعرف غير مازاران رجلا كفوًا ملء مكانه » (١) . واستمع لويس الثالث عشر إلى النصيحة .

فلما مات هذا الملك المطيع (١٦٤٣) ظل مازاران متواريا بينما اضطلمت الملكة الأم ، آن النمساوية ، بالوصاية على ولدها ، واحتال لوى دكونديه وجاستون دورليان ، الأميران الملكيان ، ليصبحا القوة الفعالة وراء العرش ولم يفتفرا للملكة قط أنها تخططهما واستوزرت ذلك الإيطالي الوسيم ، الذي بلغ الآن الحادية والأربعين . وفي غداة تقلده الوزارة هشت باريس لنبا انتصار روكرو الحاسم ، وبدأ حكم مازاران بهذا الاستهلال الميمون ، ودعمته الانتصارات الكثيرة سواء في الدبلوماسية والحرب . وقد تبين ذكاؤه في حسن تخسيره للسياسات ، والقواد العسكريين ، والمفاوضين . وبفضل إرشاده وقيادته وطد صلح وستفاليا (١٦٤٨) تفوق فرنسا الذي أكسبته إياها الحرب .

على أن مازاران لم يوهب وحدة الإرادة وقوتها اللتين أوتيتهما ريشايو ، ومن ثم فقد اعتمد على صبره ودهائه وسحره . وقام أصله الأجنبي عقبة في طريقه . ومع أنه أ كبد لفرنسا أن قلبه فرنسي وإن كان لسانه إيطاليا ، إلا أن تأكيداته لم تحفظ قط بالتصديق التام ، فلقد كان رأسه إيطاليا ، وقلبه ملكا له . ولا علم لنا كم من هذا القلب اختص به الملكة ، إنه خدمها وخدم أطعاه بغيرة ، واكتسب ودها ، وربما حبها . وكان على يقين من أن سلامته وسلامتها في مواصلة سياسة بناء قوة الملكية تدريجيا ضد أشرف الاقطاع . وفي سبيل الأثراء تحسباً للمستقبل إن سقط ، جمع المال بحرص الرجل الذي يذكر الفقر أو يخشاه ، فحكمت عليه فرنسا ، اتى بدأت تهجيب بمفضيلة الاعتدال ، بأنه محدث نعمة ، وساءتها لكننته الإيطالية ، وأقرباؤه الذين كلفوا الدولة غالبا : لاسيما بنات أخيه ، اللاتي تطلب حسنهن جهازا مبترفا من الخدم أو الحشم . وقد احتقره السكردينال رتز ، مع أن رتز هذا لم

يسكن ركناً ركيناً للفضيلة ، فزعم أنه « إنسان قذر ... ومعتاد أصيل ...
وشير لثيم (٢) » . على أن رتز - بعد أن هزمه مازاران - لم يكن في وضع
يعينه على إنصاف غريمه . وإذا كان الوزير الماكر قد جمع المال دون أكثره
للكرامة ، فإنه أنفقه بذوق رفيع ، فلأجل حجراته بالكتب والتحف التي
أوصى بها بعد ذلك لفرنسا . وكان ذا أسلوب سرح مهذب يلد السيدات .
ويحير الرجال . وقد وصفته امرأة منصفة تدعى مدام دموتفيل ، بأنه :
« فيبيض رقة ، بعيد كل البعد عن صرامة » ريشليو (٣) . وكان سريع العفو
عن معارضيه ، سريع النسيان لفضل ذوى الفضل عليه . وأجمع السك على
أنه لم يدخر جهداً في حكم فرنسا ، ولكن حتى هذا التقاى كان يسيء إلى
بعض الناس ، لأنه كان أحياناً يترك كبار زواره ينتظرون على مضض في
حجرات انتظاره . وكان كل إنسان في رأيه قابلاً للرشوة ، وكان عديم
الإحساس بالزاهة . أما أخلاقه الشخصية فلم يكن بها بأس إذا ضرينا صفحا
عن الشائعات التي أرجفت بأنه جعل من مليكته خلية له . وقد صدم الكثيرين
في البلاط بدعواته الشكاكة عن الدين (٤) ، لأن مثل هذه السخرية لم تكن قد
فشت بعد في المجتمع الفرنسي ، ومن ثم عزوا تسامحه الديني إلى افتقاره
للإيمان (٥) . وكان من أول أعماله توكيد مرسوم نانت ، فسمح للهيوجونوت بأن
يعقدوا مجامعهم في سلام . ولم يسكابد أي فرنسي الاضطهاد الديني من
الحكومة المركزية في عهد وزارته .

ومن عجب أنه احتفظ بسلطته كل هذا الزمن برغم كراهية الناس
له لقد كرهه الفلاحون لما أثقل به كواهلهم من ضرائب يستعين بها على
خوض غمار الحرب ، وكرهه التجار لأن المكوس التي فرضها أضرت بالتجارة ،
وكرهه الأشراف لأنه اختلف معهم حول مزايا الاقطاع . وكرهته « البرلمانات »
لأنه وضع نفسه والملك فوق القانون . وزادت للملكة من كره الناس له
بمخاطباتها توجيه النقد لحكمه . وقد أيدته لأنها ألقت نفسها في وضع تتحداها
فيه جماعتان رأتا في طفولة الملك ، وفي ضعف المرأة الموهوم ، منفذاً إلى

السلطة : الأشراف الذين عللوا أنفسهم باسترجاع امتيازاتهم الإقطاعية السابقة على حساب الملكية و « البرلمانات » التي تطلعت لإحالة الحكومة إلى أوليغاركية من المحامين . إزاء هاتين القوتين - « أرستقراطية السيف » العريقة ، و « أرستقراطية الرداء » الأحدث عهداً - التمسّت الملكة درهماً لها في عناد مازاران المقترن بالمرونة ولدهاء . وقد بذل أعداؤه محاولات عنيفة لظلمه والسيطرة عليها ، والمحاولتان توفلان حرب الفروند .

بدأ برلمان باريس حرب الفروند الأولى (١٦٤٨ - ٤٩) محاولاً أن يكرر في فرنسا تلك الحركة التي كانت لتوها قد رفعت البرلمان الإنجليزي فوق الملك مصدرراً للقانون وحكماً فيه . وكان برلمان باريس ، بعد الملك ، المحكمة العليا لفرنسا ، وقد قضت التقاليد ألا يقبل الشعب قانوناً أو ضريبة إلا إذا سجل هؤلاء الموظفون القضائيون (وكلهم تقريباً محامون) القانون أو الضريبة . وكان ريشليو قد اختزل هذه السلطات أو تجاهلها ، فصمم البرلمان الآن على تأكيدها . وأحس أن قد آن الأوان لجعل الملكية الفرنسية ملكية دستورية ، خاضعة للإرادة القومية . يعبر عنها مجلس نيابي . ولكن برلمانات فرنسا الاثني عشر لم تكن مجالس تشريعية انتخبها الأمة كما كانت الحال في برلمان إنجلترا ، بل هيئات قضائية وإدارية ورث أعضاؤها مقاعدهم أو وظائفهم القضائية عن آبائهم ، أو عينهم الملك فيها . ولو أن حرب الفروند الأولى كتب لها الفوز لاستحوالت فرنسا إلى أرستقراطية من المحامين . وكان في الأمكان تطوير مجلس طبقات الأمة ، المؤلف من مندوبين عن الطبقات الثلاث - النبلاء ورجال الدين وباقي الشعب - إلى مجلس نيابي يكبح جماح الملكية ، ولكن مجلس الطبقات لم يكن يملك دعوته للانتقاد إلا الملك ، ولم يدعه أي ملك منذ ١٦١٤ ، وإن يدعوه حتى ١٧٨٩ ، ومن هنا اندلاع الثورة الفرنسية .

على أن برلمان باريس تحول إلى هيئة نيابية بصورة غير مباشرة ، مؤتمراً يوم اجترأ أعضاؤه على الكلام نيابة عن الأمة . فترى أمير تالون ، في

أوائل ١٦٤٨ ، يندد بالضرائب التي أفقرت الشعب على عهد ريشليو ومازاران إذ يقول :

« لقد أُلحِق الخراب بفرنسا طوال عشرة أعوام . فاضطر الفلاحون أن يتاموا على القش بعد أن بيعت أمتعتهم وفاء للضرائب . وتمسكينا لنفر من الناس من أن ينعموا في باريس بحياة البذخ أكرهت جماهير لا حصر لها أن تعيش على الخبز القفار . . فاقده كل شيء إلا نفوسها - وهذه لم تترك لها إلا لان أحدا لم يجد سبيلا لعرضها للبيع (٦) .

وفي ١٢ يوليو، انعقد البرلمان في قصر العدالة مع غيره من محاكم باريس ووجهوا إلى الملك وأمه مطالب عدة لا بد أنها بدت لهما ثورية . فقد طالبوا بخفض ربح الضرائب الشخصية كلها ، وبألا تفرض ضرائب جديدة دون موافقة البرلمان بالتصويت الحر ، وبطرد النظار الملكيين *intendants* الذين حكموا الأقاليم دون ا كثرات للحكام والقضاة المحليين ، وبألا يحبس شخص أكثر من أربع وعشرين ساعة دون أن يمثل أمام القضاة المختصين . ولو أن هذه المطالب اجيبت لأصبحت حكومة فرنسا منسكية دستورية ، ولسارت فرنسا جنبا إلى جنب مع إنجلترا في تطورها السياسي .

بيد أن الملكة الأم ربطتها بالماضي جذور أقوى من النصر بالمستقبل ، إذ لم يكن لها عهد قط بأى شكل من أشكال الحكم سوى الملكية المطلقة ، وقد أحست أن التخلي عن السلطة الملكية على هذا النحو المقترح الآن منفض لا محالة إلى صدوع لا رأب لها في صرح الحكومة الوطيد ، وإلى تقويض تلك الركيزة السيكلوجية التي يستمدها من التقاليد والعرف ، والنزول بها إن عاجلا أو آجلا إلى فوضى الجماهير المتسيدة . ثم يالها من سبة أن تسلم ولدها سلطة دون تلك التي تتمتع بها أبوه (أو ريشليو) ذلك تقاعس عن واجبها سوف يوقفها موقف الإدانة أمام محكمة التاريخ . ووافقها مازاران لما رأى من قضاء مبرم عليه في هذه المطالب الوقحة من هؤلاء القانونيين المبتذلين . ومن ثم أمر في ٢٦ أغسطس بالقبض على بيير بروسيل وغيره

من زعماء البرلمان : بيد أن بروسيل العجوز كان قد اكتسب محبة الناس بهذا الشعار الذي أذاعه : « لا ضرائب » فاحتشد جمهور من الغوغاء أمام الباليه — رويال وتعالى صياحهم بطلب الإفراج عنه . وقد أطلق عليهم اسم الرماة Frondeurs لما كان يحمل الكثيرون منهم من مقاليع أو مراجيم ، كما أطلق اسم « الفروند » على هذا التمرد . على أن جان فرانسوا بول دجورندي — للملقب درتز فيما بعد — مساعد رئيس أساقفة باريس وخليفته المنتظر ، نصح الملكة بالإفراج عن بروسيل . فلما أبت انسحب فاضبا ، وطاون على استمعاء الشعب على الحكومة ، وكان خلال ذلك يستخدم نفوذه خفية في محاولة للظفر بقبعة الكردينالية ، وبماشر ثلاث خليلات .

وفي ٢٧ أغسطس اتخذ أعضاء البرلمان وعددهم ١٦٠ طريقهم إلى القصر الملكي مخترقين الحشود والمتاريس ، تشد أزرعهم هتافات تصيح « يحيى الملك ! إلى الموت يا مازاران ! » ورأى الوزير الحذر أن اللحظة تتطلب الحكمة لا الشجاعة ، فنصح الملكة بأن تأمر بالإفراج عن بروسيل ، فوافقت ، ثم إذ أحفظها هذا النزول على رغبة الجماهير اعتكفت هي والملك الصبي في ضاحية رويل وأجاب ما زاران البرلمان إلى مطالبه مؤقتا ، ولكنه طاوله في تنفيذها . وظلت للمتاريس في الشوارع . فلما غامرت الملكة بالعودة إلى باريس صاحت الجماهير بها صيحات الازدراء ، وسمعت بأذنيها تندرها بعلاقتها بما زاران . ثم عاودت الهروب من المدينة في ٦ يناير ١٦٤٩ ، مصطحبة في هذه المرة الأسرة المالكة والبلاط إلى سان جرمان ، حيث توسد الحرير القش ، ورهنت الملكة جواهرها لتشتري الطعام . أما الملك الصغير فلم يغتفر قط لهذا الحشد فعلته ، ولم يحب طاصمة ملكه قط .

وفي ٨ يناير أصدر البرلمان في أوج تمرد مرسوم طرده به ما زاران من حماية القانون واستمعدى عالية كل الفرنسيين الصالحين ليطاردوه ويقبضوا عليه باعتباره مجرما . وقضى مرسوم آخر بالاستيلاء على كل الأموال

الملكية واستعمالها في أغراض الدفاع العام . ورأى كثيرون من النبلاء في هذا التمرد فرصة لاستقالة البرلمان إلى قضيتهم — قضية استردادهم امتيازات الاقطاع ، ولملهم أيضاً خشوا أن يفلت زمام الحركة إذا لم يترجمها ذوو الألقاب الرفيعة . وانضم إليها كبار الاقطاعيين أمثال أدواق لونجفيل ، وبوفور ، وبويون ، وحتى أمير كوتى البوربوني الدم ، وأمدوها بالجند وللمال وحرارة العاطفة . فأقبلت دوقية بويون ودوقية لونجفيل — الرائعة الحسن برغم إصابتها بالجذري — مع أطفالهما للعيش في الأوتيل دفيل رهائن مختارة لضمان ولاء زوجيهما للبرلمان والشعب . وبينما كانت باريس تنقلب إلى معسكر مسلح ، كانت حاملات الألقاب يرقصن في قاعة المدينة ، وواصلت دوقية لونجفيل غرامها بأمير مارسياك ، الذى لم يسكن قد أصبح بعد الدوق دلا روشموكو ، ولا اعتنق بعد فلسفته السكبية . وفي ٢٨ يناير رفعت الدوقية سن معنوية للمتمردين إذولدت ابناً للمارسياك (١٧) ، وأرتبط كثير من الثروانديين بكرائم النبيلات فرسانا تابعين لهن ، فكان يشترين دماغهم بابتسامه متلطفة من ثغورهن .

ثم حالف الحظ الملكة فأنقذ الموقف عداء بين أمير كوتى وأخيه الأكبر لويس الثانى البوربوني ، أمير كونديه — وهو « كونديه العظيم » ذاته الذى قاد الجيوش الفرنسية من قبل إلى النصر فى روكروا ولنز . وإذ شتمخ بأفقه القوى على تمرد المحامين والنوعاء ، فإنه عرض خدمته على الملكة والملك . فوكلت إليه فى ابتهاج قيادة جيش ضد باريس المتمرده — أى ضد أخيه ، وضد أخته دوقية لونجفيل — والعودة بالأسرة المالكة فى أمان إلى الباليه — رويال . وجمع كونديه الجند ، وحاصر باريس ، واستولى على شارنتون ، المحضر الآمى الحصين . أما النبلاء المتمردون فقد طلبوا المعونة من أسبانيا والإمبراطورية . وكان الطلب غلطة ، ذلك أن طائفه الوطنية كانت عند البرلمان والشعب أقوى من الإحساس الطبقي . وأبى معظم أعضاء البرلمان أن يلغوا أعمال ريشليو وانتصاراته باعادة تموق الهابسبورج على فرنسا ،

وبدأوا يتبينون أنهم إنما يستعملون ييادق أفي محاولة لاسترجاع نظام إقطاعي من شأنه أن يقسم فرنسا ثانية إلى أقاليم مستقلة فرادى ، مستضعفة جماعة . وفي نوبة تواضع مفاجئة أرسلوا وفدا إلى الملكة المقترية ، وعرضوا الخضوع لها ، مؤكدين أنهم كانوا على الدوام يكونون لها الحب . أما الملكة فقد منحت جميع المتمردين عفوا تاما ، شريطة أن يضعوا السلاح . وسرح البرلمان جنوده ، وأبلغ الشعب أن طاعة الملك هي واجب الساعة . وأزيلت المتاريس . وصادت آن ، ولويس ، ومازاران إلى قسبة الملك (٢٨ أغسطس ١٦٤٩) ، والتأم شمل البلاط من جديد ، وانضم إليه النبلاء المتمردون كأن شيئا لم يقع ، اللهم إلا سحابة قد انقضت . واغتفر كل شيء ، ولم ينس شيء . ووضعت حرب الفروند الأولى أوزارها .

ولكن حربا ثانية مالمبت أن نشبت . ذلك أن كوندية أحس أن خدماته تحول له التروس على مازاران . فتشاجر الاثنان ، واتصل كوندية بالنبلاء المتذمرين بحبس نبضهم ، أما مازاران ففي أجراً لحظات حياته أسر بحبس كوندية وكوتى ولونجفيل في فانسين (١٨ يناير ١٦٥٠) . وهرولت مدام لونجفيل إلى نورمنديا ، وأثارت حركة تمرد فيها ، ثم مضت منها إلى الأراضي المنخفضة الأسبانية ، وفتنت تورين حتى ارتضى خيانة العرش . خوافق القائد العظيم على أن يقود جيشا أسبانيا ضد مازاران . يقول فولتير : « واصطدمت كل الأطراف بعضها ببعض ، وأبرموا المعاهدات ، ثم خان كل منهم الآخر واحداً إثر واحد ... ومامن رجل لم يغير ولاءه غير مرة » (١) وقال ريتز ذا كرا تلك الفترة « كنا على استعداد لقطع رقاب بعضنا البعض عشر مرات كل صباح » (٢) . وكان هو نفسه على وشك أن يقتل بيد لاروشموكو . على أن الكل أعلنوا ولاءهم للملك ، الذي لا بد قد ساهل نفسه : أي نوع من الملكية ذاك الذي استحاله هسجا بين يديه ؟

وقامت قوة ملكية بمنورة في بوردو انتهت باستسلامها ، وقاد مازاران جيشا إلى فلاندر وهو يلعب دور إله الحرب مارس ، وهناك هزم تورين

الذي لا يقهر . أما ريتز ، التواق إلى الحلول محل وزير الملكة وعشيقتها ، فقد أقنع البرلمان بأن يجدد مطلبه بنفى مازاران . وفقد الكردينال جرأته ، فأمر بالإفراج عن الأمراء للمسجونين (١٣ فبراير ١٦٥١) ، ودفعه الخوف على حياته إلى الحرب إلى برول القريبة من كولونيا . أما كونديه المتحرق للنار من الوزير والملكة جميعا فقد ربط بين أخيه كوتش ، وأخته لونجفيل ، ودوق نامور ولاروشفوكو ، في حلف جديد . وفي سبتمبر أعلنوا الحرب ، واستولوا على بوردو ، وأحالوها معقلا للثورة من جديد . ووقع كونديه تحالفا مع أسبانيا ، وتفاوض مع كرومويل ، ووعد بأن يقيم جمهورية في فرنسا .

وفي ٨ سبتمبر أعلن لويس الرابع عشر أنه منه وصاية أمه عليه وآخذ مة اليد الحكم في يده . وكان يومها قد بلغ الثالثة عشرة . ورغبة في تهدئة البرلمان أيد بنى مازاران ، ولكنه استجمع شجاعته في نوفمبر ، فاستدعى الوزير ثانية ، وطاد هذا إلى فرنسا على رأس جيش . أما جاستون أورليان فقد لمب الآن دور الحياد ، ولكن تورين انحار إلى صف الملك . وفي مارس ١٦٥٢ أوفد لويس حامل أختامه موليه ليطالب بولاه مدينة أورليان . فبحث قضاتها برسالة عاجلة إلى جاستون هددوه فيها بتسليم المدينة إلى الملك ما لم يمد هو أو ابنته ليستنقرا أهلها .

هنا ظهرت على مسرح الأحداث امرأة من أشهر نساء فرنسا الشهيرات ، وما أكثرهن ، وكأني بها « جان دارك » ثانية أقبلت لتنقذ أورليان . هذه المرأة - آن ماري لويز دورليان - كانت قد رفعت راية العصيان في طفولتها حين بنى ريشليو أبها . وكان جاستون يلقب رسميا - « للسيو » باعتبارها شقيق لويس الثالث عشر ، أما زوجته ماري بوربون ، دوقة موبانسييه ، فهي « مدام » ذلك العهد ، وابتها إذن هي « المده وازيل » ، ولما كانت هذه الفتاة قوية البنية فارغة القوام فقد سميت « الجرانده مده وازيل دموبانسييه » . وإذ كانت ذات ثراء عريض فقد شبت على كبرياء لللال

والنسب، وكانت تقول « اننى أتنسئ إلى بيت لا يفعل إلا ما هو جليل نبيل » (١٠). وقد تطلعت إلى الزواج من لويس الرابع عشر رغم أنه ابن عمها، فلما لم تلق تشجيعاً احتضنت التمرد. وحين سمعت استغاثة مدينتها ورأت، أباهما يسكره أن يخوض المعركة، حصلت على رضاه بأن تنوب عنه. ولقد طالما غاظتها القيود التي فرضها العرف على بنات جنسها، ولشد ما أنكرت حرمان النساء من الانحراف في سلك الجنديّة. ومن ثم فقد لبست الآن درطاً وخوذة، وجمعت من حولها لقيفاً من كرائم النساء المسترجلات وقوة صغيرة من الجنود زحفت بها في مروح وابتهاج على أورليان. وأبى القضاة أن يدخلوها للمدينة خشية إغضاب الملك، فأمرت بعض رجالها أن ينقبوا ثغرة في الأسوار، ومنها تسلكت وبرفتها كونيستان بينما الحراس يغفون أو يغضون. وما إن أفلحت في دخول المدينة حتى استطاعت أن تلهب مشاعر أهلها بسحر خطبتها النارية. وهكذا رد موليه عن المدينة خاوي الوفاض، وأقسمت أورليان بعين الولاة للـ « عذارى » الجديدة.

وبلغت حرب الفروند الثانية ذروتها على أبواب باريس. فقد زحف كونديه عليها من الجنوب، وهزم جيشاً ملكياً، وأوشك أن يأمر الملك، والملكة، والكردينال، ولو فعل لـ « مات الشاه » حقيقة لا مجازاً. وبينما كان جيشه يدنو من باريس، حملت الجماهير - وم « الفرونديون » هنا أيضاً، رفات القديسة جنيفيف راعية المدينة وطافت الشوارع في موكب ضارعة إلى الله أن ينصر كونديه ويسقط مازاران أما الجراندموازيل فقد هزعت من أورليان إلى قصر لكسمبورج حيث كان أبوها لا يزال على تدبذه، وطلبت إليه أن يؤيد كونديه، ولكنه أبى. واقترب الآن تورين وجيش الملك، والتقى بقوات كونديه خارج الأسوار قرب بوابة سانت انطوان (ميدان الياستيل الآن). وكاد تورين يكسب المعركة، لولا أن المدموازيل اندفعت إلى الباستيل وحرضت

٢ - قصة الحضارة

مأموره على تصويب مدافعه على جنود الملك . ثم أمرت القوم داخل
الأسوار ، باسم أيها الغائب ، أن يفتحوا الأبواب رهة ريثما يدخل
جيش كوندية ، ثم يغلّقوها في وجه جيش الملك (٢ يوليو ١٦٥٢) . وهكذا
كانت المدمازيل بطة الساعة .

وغدا كوندية سيد باريس ، ولكن الرءوس المتزنة أخذت تنقلب عليه .
ولم يستطع أن يذفع رواتب جنده ، فبدأوا يهجرونه ، وأفلت زمام الجماهير .
وفي ٤ يوليو هاجم الغوغاء قاعة المدينة مطالبين بأن يسلم إليهم جميع مؤيدي
مازاران ، وإظهارا لسخطهم اشعلوا النار في المبنى ، وقتلوا ثلاثين من
المواطنين . وتمطلت العمليات الاقتصادية ، وصمت القوضى إمداد المدينة
بالطعام ، وخشى نصف أسرات باريس الموت جوعا ، وتساءلت الطبقات
المالكة : أليست الأوتقراطية الملكية . بل أليس حكم مازاران ، أهون من
حكم الرعاع . وأعان مازاران الموقف حين ارتضى لنفسه النفى طوعا ،
تاركا الفرونديين بغير قضية توحد بين صفوفهم . أما ريتز فقد رأى أن
الوقت قد حان لدعم مكاسبه بعد أن تم له الظفر بقبضة الكردينالية الحمراء
التي طالما اشتهاها ، فاستخدم الآن نفوذه ليشجع الولاء للملك .

وفي ٢٩ أكتوبر عادت الأسرة المالكة إلى باريس دون أن يمسه
سوء . وافتتن الباريسيون بمنظر الملك الصغير ، البالغ من العمر آنئذ أربعة
عشر ربيعا ، وسحرهم حسنه وشجاعته ، ورددت الشوارع هتاف الجماهير
« يحمى الملك » وما لبث هياج الشعب أن هدأ بين عشية وضحاها ، وأعيد
النظام لا بفضل القوة ، بل بهالة الملكية ، وهيبة الشرعية ، وإيمان الشعب
بـ الإيمان نصف اللاشعورى - بحق الملوك الإلهى . وماوا في ٦ فبراير ١٦٥٣
حتى استشرع لويس في نفسه من القوة ماشجحه على دعوة مازاران للعودة
وتثبيته مرة أخرى في جميع سلطاته السابقة . ووضعت حرب الفروند
الثانية أوزارها .

وفر كوندية إلى بوردو ، وخضع البرلمان في بطء ووقار ، واعتكف

النبلاء المتمردون في قصورهم الريفية . والفست مدام لونغفيل العزاء بين راهبات البور - رويال بعد أن ذهب رواء حسنها . ونفيت الجرايد مدموازيل إلى إحدى ضياعها ، حيث راحت تأكل قلبها حسرة وهي تذكر ملاحظة نسبت إلى مازاران ، قال فيها إن إطلاقها المدافع من الباستيل قتل زوجها - أي قضى على أمليها في الزواج من الملك . وفي عامها الأربعين أحببت أنطوان كومون ، كوت لوزان ، وكان أصغر وأقصر منها كثيراً ، ولكن الملك رفض أن يأذن لها بهذا الزواج ، فلما عزم عليه يرغم هذا الحظر سجنه لويس عشر سنوات (١٦٧٠ - ٨٠) . وظلت المدموازيل وفية له في شجاعة طوال سجنه ، ولما أفرج عنه تزوجته ، وعاشت معه عيشة مضطربة صاحبة حتى ماتت (١٦٩٣) . وأما ريتز فقد قبض عليه ، ولكنه فر ، ثم نال العفو ، وخدم الملك مبعوثاً دبلوماسياً في روما ، واعتكف في ركن بالورين ، وألف مذكرات تمتاز بتحليلها الموضوعي للخلاق ، بما في ذلك خلقه هو يقول فيها :

« لم ألب دور الناظر نفسه للدين ، لأنني لم استطع أن أعرف على وجه اليقين كم من الزمن سأستطيع لعب دور اللزيف ، وحين أعجزني العيش دون صلة غرامية محرمة ، اتصلت بدمام بومرو ، وكانت شابة لعوبا ، لها المدد الكبير من المشاق ، لا في بيتها لحسب ، بل في مكان عبادتها أيضاً ، بحيث كانت صلوات غيري للكشوفة معها ستارا لصلتي بها . . . واستقر رأيي على التمادي في خطاياي . . . ولكني كنت مصمما كل التصميم على القيام بواجبات مهنتي (الدينية) بأمانة ، وعلى بذل قصاراى في تخليص نفوس غيري وإن لم أكرث خلاص نفسي » (١١) .

أما مازاران فقد هبط على قدميه دون أن يضار ، وطاد سيداً على للملكة ، وخادماً لملك ما زال راغباً في التعلم . وقد روع فرنسا أن يبرم الوزير معاهدة مع إنجلترا البروتستنتية وكرومويل قاتل ملكها (١٦٥٧) ، الذي أطان على محاربة كوندبه والأسبان بارساله ستة آلاف جندي .

وأحرز الفرنسيون والإنجليز معاً النصر في « معركة السكثبان » (١٣ يونيو ١٦٥٨) . وبعد عشرة أيام سلم الأسبان دنكرك ، فدخلها لويس في احتفال رسمي مهيب ، ثم نزل عنها لاجئاً طبقاً للمعاهدة . وأبرمت أسبانيا مع فرنسا صلح البرانس (٧ نوفمبر ١٦٥٩) بعد أن استنزف القتال مالها ورجالها ، فأنتهت بذلك ثلاثة وعشرين عاماً من حرب واحدة ، وأرست أساس حرب أخرى . ونزلت أسبانيا عن روسيون ، وأرتوا ، وجرافلين ، وتيونفيل ، لفرنسا ، وتخلت عن جميع مطالبها في الأناضول ، وزوج فيليب الرابع ابنته ماريا تريزا للويس الرابع عشر ، بشروط ورطت فيما بعد غرب أوروبا كله في حرب الوراثة الأسبانية . ذلك أنه تمهد بأن يبعث إليها ، خلال ثمانية عشر شهراً ، بصدقات قدره ٥٥٠٠٠٠٠ كراون ، ولكنه اتزع منها ومن لويس تنازلاً عن حقوقها في ولاية العرش الأسباني . وأصر ملك أسبانيا على أن يكون العفو عن كونديه شرطاً من شروط الصلح ، فلم يكتف لويس بالصفح عن الأمير المنيف ، بل رد إليه كل ألقابه وأملاكه ، ورحب به في بلاطه .

كان صلح البرانس الدليل على إنجاز برنامج ريشليو — وخلاصته كسر شوكة الهابسبورج ، وحلول فرنسا محل أسبانيا أمة متسلطة في أوروبا . واعترف الفرنسيون بفضل مازاران في الوصول بهذه السياسة إلى ختامها الظاهر ، ومع أنه لم يظفر إلا بحب القليلين منهم ، فإنهم رأوا فيه رجلاً من أكفأ الوزراء في تاريخ فرنسا . ولكن فرنسا التي سرعان ما نسيت خيانة كونديه ، لم تغتفر قط لمازاران جشعه وحرصه . ففي وسط النفاق التي كابدها الشعب جمع ثروة طائلة قدرها فولتير بمائتي مليون من الفرنكات (١٢) . وكان يحول المخصصات الحربية إلى خزائنه الشخصية ، ويبيع وظائف التاج لمنفعته الخاصة ، ويقرض الملك بالربا ، وقد أهدى إحدى بنات أخيه قلادة مازالت تعد من أغلى الخلى في العالم (١٣) .

ولما حضرته الوفاة أشار على لويس بأن يكون وزير نفسه الأول ، وألا يتركه مسائل السياسة العليا لأي من مساعديه إطلاقاً (١٤) وبعد موته (٩ مارس

(١٦٦١) كشف كولبير للملك عن الخبأ الذى أخفى فيه ثروته . فصادرهما لويس ، وأتلعج بذلك صدر شعبه ، وغدا أغني ملوك زمانه . وهتف ظرفاء باريس لجينو ، طبيب مازاران ، لأنه رجل أحسن إلى الشعب كله ، وقالوا «أفسحو الطريق لنبالته . إنه الطيب الطيب الذى قتل السكرديشال (٢٥) .

٢ - الملك

لم يكن أشهر ملوك فرنسا فرنسياً إلا برع دمه . فقد كان نصف أسباني من ناحية أمه آن النمساوية ، وربع إيطالى من ناحية جدته ماري مدينى . وقد أولع بالفن والحب الإيطاليين دون تردد وبعد ذلك بالتدين والكبرياء الأسبانيين ، وفي أخريات عمره كان أكثر شها بمجده لأمه ، فيليب الثالث ملك أسبانيا ، منه بمجده لأبيه ، هنرى الرابع ملك فرنسا ،

سمى عند ولادته (٥ سبتمبر ١٦٣٨) ديودونيه Disudonné أى «عطية الله» ، ولعل الفرنسيين لم يستطيعوا أن يصدقوا أن لويس الثالث عشر قد حقق أبوته فعلا دون عون من الله . وقد أضر بنمو الصبي وتطوره ما كان بين أبويه من تنافر ، وموت أبيه الباكر ، واضطرابات الفروند الطويلة الأمد . وكثيراً ما لقي الإهمال وسط انضال آن ومازاران المرة بعد المرة للاحتفاظ بالسلطة . وفي تلك الأيام التى لم تكن ظروفها مواتية لأى ملك ، ذاق مرارة الفقر أحياناً فى الملبس الرث والطعام القليل . ويبدو أن أحداً لم يهتم بتعليمه ، وحين تولاه المدرسون الخصوصيون كان مهمهم الأكبر أن يقنعوه بأن فرنسا بأسرها ميراثه الذى سيحكمه الحق الإلهى ، ولا يسأل عنه إلا أمام الله . ووجدت أمه الوقت لتدريبه على العقيدة والعبادة الكاثوليكييتين ، اللتين سترتدان إليه فى قوة بعد أن أنهكت فيه الشهوات وتضائل سناء المجد . ويؤكد لنا سان - سيمون أن لويس « لم يكده يعله أحد القراءة أو الكتابة ، وأنه ظل جاهلاً كل

الجهل حتى أنه لم يلم بأشهر حقائق التاريخ وغيرها من الحقائق . ولكن لعل هذه إحدى مبالغات الدوق المفرطة . وما من شك في أن لويس لم يظهر ميلا يذكر للكتب ، وإن كانت رعايته للمؤلفين وصداقته لمولير وبوالووراسين تشير إلى تقدير صادق للأدب . وقد أعرب فيما بعد عن أسفه لأنه لم يصل إلى دراسة التاريخ إلا متأخراً جداً ، وكتب يقول « إن الإلمام بالأحداث العظيمة التي وقعت في العالم على مدى القرون الكثيرة ، والتي هضمتها العقول القوية النشيطة ، هذا الإلمام يفيد في دعم الحججة في جميع المداولات الهامة » (١٧) وقد جهدت أمه لترى فيه الإحساس بالشرف والشهامة لا مجرد آداب السلوك ، وبقي الكثير من هذا فيه وإن لوثته إرادة طائشة للقوة . كان فتى جادا ممتثلا ، يبدو أطيّب من أن يصلح للحكم ، ولكن مازاران صرح بأن في لويس « من الأصالة والكفاءة ما يصنع أربعة ملوك ورجلا شريفا » (١٨) .

في ٧ سبتمبر ١٦٥١ أطل جون إيفلين من مسكن توماس هوبز في باريس على الموكب الذي رافق الملك الصبي ، البالغ الثالثة عشرة ، متجها إلى الحفل للمقام بمناسبة إنهاء سن قصوره . وقال هذا الإنجليزى في وصفه « مضى أبولو الصغير هذا أ كثر الطريق وقبعته في يده يحى السيدات والمعجبات اللاتي ازدانت النوافذ بهائن وملأ الجو هتافهن « يحيى الملك » (١٩) وكان في إمكان لويس يومئذ أن يتسلم زمام الأمر كله من مازاران ، لولا أنه كان يحترم ذلك الدهاء المهذب الذي طبع عليه وزيره ، فسمح له بأن يحتفظ بالمام تسع سنوات أخرى . ومع ذلك فقد اعترف بمد موت السكردينال قائلا « لست أدري ماذا كنت صانعا لو عمر طويلا » (٢٠) فلها مات مازاران أقبل رؤساء الإدارات على لويس سائلين إلى من يأتون ليتلقوا تعليماتهم ، فأجاب ببساطة قاطعة « إلى » (٢١) ومنذ ذلك التاريخ (٩ مارس ١٦٦١) حتى أول سبتمبر ١٧١٥ تولى حكم فرنسا بنفسه . وبكى الشعب فرحا إذ أصبح له ملك فعال لأول مرة في نصف قرن .

ولقد تهملوا فرحا وتبها بحسنه . قال جان دلافونتين حين رآه في ١٦٦٠ ، ولم يكن بالرجل الذي يخدع بسهولة ، « أتظنون أن في الدنيا ملوكا كثيرين وهبوا هذا الوجه اللطيف وهذا السم الرائع ؟ لا أظن ، ويخيل إلى حين أراه أنني أرى العظمة مجسمة » (٢٢) لم تكن قامته تزيد على خمسة أقدام وخمس بوصات ، ولكن السلطة جعلته يبدو أطول . وإذا كان قوى البدن ، متين البنية ، فارساً وراقصاً ماهراً ، ومثاقفاً بارعاً وراوية خلاب العبارة . فقد ملك جماع الصفات التي تفتن المرأة وفتتح مغاليق قلبها . كتب سان - سيمون وكان يكرهه ، « لو أنه كان فرداً عادياً لا أكثر لجلب نفس الدمار بغرامياته » (٢٣) . على أن هذا الدوق (الذي لم يستطع قط أن يغفر للويس حرمانه الأدواق من سلطة الحكم) اعترف بكياسته وآدابه الملوكية التي أصبحت الآن مدرسة للبلاط ، وقرنسا عن طريق البلاط ، ولأوروبا عن طريق فرنسا . قال :

« لم يعط أحد قط بأرق وألطف مما أعطى لويس الرابع عشر ، ولا ضاعف أحد بهذه الطريقة من قيمة عطائه كما ضاعف لويس . . . لم تكن الألفاظ الجافية لتند عنه قط ، فإذا اضطر أن يلوم ، أو يوبخ ، أو يقوم ، وهو أمر نادر ، ففي لطف دائماً تقريباً ، لا في غضب أو صرامة قط . . . إلا في مناسبة واحدة . وما عرف الناس رجلاً طبع على مثل هذا الأدب الجم . . . أما مع النساء فلم يكن لتأدبه نظير . ما مر بامرأة مهما قل شأنها إلا رفع لها قبعته ، حتى الخادومات اللاتي يعرف أنهن خادومات . فإذا خاطب سيدات المجتمع لم يفظ رأسه إلا بعد أن يفارقهن » (٢٤) .

على أن ذهنه لم يرق إلى مستوى سلوكه . لقد كاد يضارع نابليون في حكمه الثاقب على الرجال ، ولكنه قصر كثيراً دون ذكاء فيصغر الفيلسوف ، أو سياسة أو غسطس الإنسانية البعيدة النظر . وفي هذا يقول سانت - بوف « لم يؤت أكثر من الإدراك السليم ، ولكن حظه منه كان موفوراً » (٢٥) ولعله خير من الذكاء . ولتستمع إلى سان - سيمون ثانية « كان بطبعه حصيفاً ،

معتدلاً ، حذراً ، سيداً على حركاته ولسانه « (٢٦) . ويقول مونتسكيو « كانت نفسه أعظم من ذهنه » (٢٧) وقد وهب قوة انتباه وإرادة عوضت إبان عزه عن قصور أفكاره . أما علمنا بعبوبه فيأتينا من فترة حكمه الثانية على الأخص (١٦٨٣ — ١٧١٥) ، حين ضيق التعصب أفاقه ، وأفسده النجاح والتملق . هنا نجد مغروراً غرور المثليين متكبراً كبرياء الآثار الضخمة . وإن كان بعض كبريائه ربما أضماه عليه الرسامون ممن صوروه ، وبعضه راجعاً إلى فكرته عن منصبه . فإذا كان قد مثل دور « الملك العظيم » ليبل عذره أنه خال هذا ضرورة لا يستغني عنها أسلوب الحكم ودعم النظام ، إذ لا بد من وجود مركز للسلطة ، ولا بد من أن تدعم الأبهة والمراسم هذه السلطة . قال لولده مرة « يبدو لي أن من واجبتنا أن نكون متواضعين من أجل ذواتنا ، متكبرين من أجل المركز الذي نشغله » (٢٨) ولكنه قل أن تواضع — ربما مرة واحدة ، حين لم يجد غضاضة في أن يصحح بوالوله غلظه في أمر يتصل بالذوق الأدبي . وتقرأ مذكراته فتراه يتأمل فضائله في اتزان كثير . وعنده أن خير سجاياه حبه للمجد . قال إنه « يؤثر الصيد البعيد على كل الأشياء ، بل على الحياة نفسها » (٢٩) ولكن ولعه هذا بالمجد خدم أعداءه لأنه غالى فيه . كتب يقول « أن تحمسننا للمجد *la gloire* ليس شهوة من هذه الشهوات الهزيلة التي تنطفيء بمجرد تملك النفس لما تشتهي ، فإن عطاياه التي لا تنال إلا بالجهد لا تورث السأم أبداً ، ومن كيف عن اشتهاؤ المزيد منها لا يستحق كل ما ناله من عطاء » (٣٠) .

بيد أنه أوتي حظاً من الفضائل الجلييلة ، إلى أن جر ولعه بالعظمة والمجد الدمار على خلقه وعلى بلده . فلقد أعجب بلاطه بعداته ، وتسامحه ، وكرمه ، وضبطه لنفسه . قالت مدام مونتفيل التي كانت تراه كل يوم تقريباً خلال هذه الفترة « في هذا يجب أن تعترف كل المهود الملكية السابقة . لهذا العهد بتقدمه عليها في استهلاله السميد » (٣١) وقد لاحظ القريبون منه ذلك الوفاء الذي كان يحمله على زيارة جناح أمه مراراً كل يوم على كثرة

شواغله ، ثم شهدوا بعد ذلك حنانه على أبنائه ، وحرصه على صحتهم وتربيتهم — أياً كانت أهمهم . كان أكثر عطفاً على الأفراد منه على الأمم ، في وسمه أن يشن الحرب على الهولنديين الذين لم يؤذوه ، وأن يأمر بتدمير البلاتينات ، ولكنه يحزن لموت رويتر أمير البحر الهولندي ، الذي أوقع الهزائم بالبحرية الفرنسية ، وقد كلفته الشفقة على المملوكة المخلوعة ، زوج «بيمس الثاني ، وعلى ولده ، حرباً كانت أسوأ حروبه .

ويلوح أنه آمن حقيقة بأنه مبعوث العناية لحكم فرنسا ، ولحكها بسطان مطلق . وكان في استطاعته بالطبع أن يستشهد بآيات من الكتاب المقدس سنداً لهدفه هذا ، وأسمه بوسويه أن يريه أن العهدين القديم والجديد يدعمان حق الملوك الإلهي . وقد أخبر ولده في مذكراته (*) التي أعدها لإرشاده أن « الله يجعل من الملوك الحفاظ الوحيدين للصالح العام » وأنهم « خلفاء الله على هذه الأرض » . ولا بد لهم ، لكي يمارسوا وظائفهم المقدسة على الوجه الصحيح ، من سلطة لا حدود لها ، ومن ثم وجب أن يكون لهم « الحرية الكاملة المطلقة في التصرف في جميع الممتلكات سواء بممتلكات رجال الدين أو العلمانيين » (١٣٢) . أنه لم يقل (أنا الذوله) L'état, c'est moi ولكنه آمن بهذا القول ببساطة مطلقة . أما الشعب فيلوح أنه لم تسوّه هذه الدعاوى ، التي حببها هنري الرابع إليه انتقاضاً على الفوضى الاجتماعية ، لا بل إن أفرادها تطلعموا إلى هذا الملك القوي في ولاه ديني ، واستشعروا عزة الجماعة في أبعته وجبروته ، فما من بديل عرفوه لهما غير ما رافق الاقطاع من تفتت وخطرة . وبعد طغيان ريشليو ، وفوضى الفروند ، واختلاسات

(*) واصل لويس على فترات كتابة « ملاحظات يستعان بها في المذكرات » التي بدأها في ١٦٦١ و حتى ١٦٧٩ حين أضاف إليها « تأملات في حرفة الملك » وفيها الكثير مما يشتم بسلامة الادراك على الرقم من إيمانها بتبذرية الحكم المطلق ، وقد تبدو أمامها بحوث الفلاسفة في هذا الموضوع قاصرة . والظاهر أنه أملاها على سكرتيرين كسوها نوباً أدبياً تشبيهاً . وهي لا تمل بحدارة بالقرائة عن أي أدب في العصر الذي نحن بصددده .

مازاران ، رحبت الطبقتان الوسطى والدنيا بالسلطة والزعامة المراكزتين في حاكم « شرعى » بدا لهم واعدأ بالنظام ، والأمن ، والسلام .
وقد أفصح عن مذهبه في الحكم المطلق حين أراد برلمان باريس عام ١٦٦٥ أن يناقش بعض مراسيمه . ركب من فالنسين في ثياب الصيد ، ودخل قاعة البرلمان في حدائه العالى وسوطه بيده ، ثم قال : « إن السكوارث التي جرتها مجالسكم معروفة مشهورة . لذلك آمركم بأن تفضوا هذا المجلس الذي اجتمع ليناقش مراسيمي . سيدى الرئيس الأول ، إني أمنعك من السماح بهذه الاجتماعات ، وأمنع أى فرد منكم بالمطالبة بها . » (٣٣) ثم نقات وظيفة البرلمان بوصفه محكمة عليا إلى « مجلس خاص » ملكى ، خاضع للملك على الدوام .

وأدخل لويس على مركز النبلاء في الحكومة تغييرا جذريا . لقد زدوا البلاط والجيش بأهنة المظهر وبريقه ، ولكن ندر أن شغلوا الوظائف الإدارية ذلك أن كبار النبلاء دعوا إلى مغادرة ضياعهم ، معظم العنم والإقامة في البلاط - أكثرهم في « أوتيلاتهم » أو قصورهم الباريسية ، وعظماؤهم في القصور الملكية ضيوفا على الملك ، ومن هنا هذه الأجنحة الشاسعة التي خصصت لهم في فرساي . فإذا رفضوا قبول الدعوة فليس لهم أن يتوقعوا أى فضل يؤثرهم به الملك . وأعنى النبلاء من الضرائب ، ولكن فرض عليهم في الأزمات أن يهرعوا إلى قصورهم الريفية ، وينظموا ويجهزوا أتباعهم ، ويقودوهم الاضمام إلى الجيش . وقد استطابوا الحرب تخففا من سأم الحياة في البلاط - حقا كانوا طاملين كثيرى النفقة ، ولكن بسالتهم في ساحة القتال أصبحت فرضا ملزما لطبقتهم . ومنعهم العرف والإتيكيت من الاشتغال بالتجارة أو بشئون المسال - وأن جبوا الرسوم على التجارة المارة بأملاكهم ، واقترضوا في غير تخرج من أصحاب المصارف . وكانت ضياعهم يزرعها محاصصون (métayers) يدفعون لهم جزءا من المحصول ويؤدون لهم مختلف الخدمات والمكوس الإقطاعية . ويفترض

في السيد الاقطاعي أن يحافظ في اقليمه على النظام والعدالة ويرعى أعمال البر . وكان في بعض الأقاليم يؤدي هذه المهمة أداء لا بأس به ، فيسكون محل احترام الفلاحين ، وفي بعضها الآخر لا يبذل لقاء امتيازاته إلا عطاء نافها ، فضلا عن أن فترات غيابه الطويلة في البلاط كانت تقوض تلك الألفة المهذبة بين السيد وتابعه . وقد حظر لويس الحروب الخاصة التي كانت تنشب بين الأحزاب الإقطاعية ، وأنهى — إلى أجل — عادة المبارزة التي انتعشت خلال حرب الفروند ، وتفاقم خطرها لأن شهود المبارزين ، لا المبارزين الأصليين فحسب ، كانوا يقتتلون ، ويقتلون ، ويحرمون مارس إله الحرب من فرائسه . وقد أحصى جرامون عدد من أودت المبارزات بهم في تسع سنوات (١٦٤٣-١٦٥٢) فكانوا تسعمائة (٣٤) . ولعل احد أسباب الحروب المتكررة تلك الرغبة في ايجاد منفذ لولع الفرنسيين بالقتال ، ولكبريائهم داخل وطنهم ، على حساب الأجانب .

أما الإدارة الفعلية لشئون الحكومة فقد آثر لويس لها كبار رجال الطبقة الوسطى ممن أثبتوا كفايتهم بالارتقاء إلى مراكزهم ومن كان في وسعه أن يركن إليهم في دعم سلطة الملك المطلقة (٣٥) . واختصت ثلاثة مجالس كبرى بتصريف شئون الحكم ، يجتمع كل منها برئاسة الملك ، ويعمل في إعداد المعلومات والتوصيات التي يبنى عليها الملك قراراته . فكان « مجلس الدولة » المؤلف من أربعة رجال أو خمسة يجتمع ثلاث مرات في الأسبوع ليعالج أهم مسائل العمل أو السياسة ، وكان « مجلس الرسائل » بصرف شئون الأقاليم ، و « مجلس المالية » ينظر في الضرائب والإيراد والنصرف . واضطلعت مجالس اضافية أخرى بشئون الحرب ، والتجارة ، والدين ، وانتزع الحكم المحلي من أيدي النبلاء المستهترين ونيط به النظار المسكيون ، وسخرت الانتخابات البلدية لتأتي بعمد يرضى عنهم الملك . ولو أننا سئلنا اليوم رأينا في حكومة شديدة التركز كهذه لقلنا إنها ظالمة ، وكذلت كانت ، ولكن أغلب الظن أنها أقل ظلما مما سبقتها من حكم الأوليغاركيات البلدية أو النبلاء .

الإقطاعيين . وآية ذلك أنه حين دخلت لجنة ملكية إقليم أوفرن (١٦٦٥)
للتحقيق في استغلال السادة لسلطتهم الإقطاعية في الإقليم ، رحب الناس
بهذا الاستجواب العظيم Lesgrands Jours d, Auvergne محرراً لهم من
الظلم ، وأثلج صدورهم أن يروا « إقطاعيا كبيرا » يضرب عنقه لأنه قتل
فلاحا ، وأشرافا ، أقل منه شأنًا يلقون جزاءهم على ما افترفوا من أفعال
محظورة أو قاسية (٢٦). وبمثل هذه الاجراءات حل القانون الملكي محل
القانون الإقطاعي .

ثم نقحت القوانين لتبلغ من النظام والمطلق قصارى ما يتفق
والارستقراطية ، لحكم « قانون لويس » الذي تكون على هذا النحو
(١٦٦٧—١٦٧٣) فرنسا إلى أن جاء « قانون نابليون » (١٨٠٤ ١٨١٠)
وكان القانون الجديد أرقى من كل قانون سبقه منذ عهد جستنيان ،
وقد « أسهم بقوة في تقدم الحضارة الفرنسية (٢٧) » وألغى جهاز شرطة
ليكيج . إجرام باريس وقذارتها . فتمرى مارك رينيه ، مركز فوابيه
دارجنسون ، الذى خدم الدولة إحدى وعشرين سنة قائدا عاما للشرطة ،
يترك سجلا مشرفا من الأداء العادل الدؤوب لوظيفة عسيرة . وبإشرافه
رصدت شوارع باريس ، ونظفت تنظيفا متدلا ، وأضيفت بخمسة آلاف مصباح ،
وأمنت تأمينا لأبأس به للمواطنين ، وأصبحت باريس الآن في هذا كله
متقدمة جدا على أى مدينة أخرى في أوربا . ولكن القانون أباح الكثير
من أعمال التمجج والطمع . ونشرت شبكة من المخبرين في أرجاء فرنسا ،
يتجسسون على الكلام كما يتجسسون على الأفعال . وأبيع اعتقال الأشخاص
اعتقالا تعسفا بمقتضى الأوامر السرية Lettres de cachet التى يصدرها
الملك أو وزراؤه ، وسجنهم سنين دون محاكمة ، ودون أن يحاطوا علما
بجريمتهم . وحظر القانون الاتهامات بالسحر ، وأبطل حكم الإعدام عقابا
للتجديف ، ولكنه احتفظ باستخدام التعذيب أداة لا تزاع الاذترافات
من المتهمين . وأجاز القانون عقاب عدد كبير من الذنوب بالحكم

على مرتكبها بتشغيلهم في سفن أسرى الحرب - وكانت سفنا كبيرة وطويلة يسيرها بالمجاديف المذنبون موثقين بالسلاسل إلى المقاعد . وخصص ستة رجال لكل مجذاف طوله خمسة عشر قدما . وكانت صفارة المشرف تلزمهم الاحتفاظ بالسرعة التي يحددها ، وأجسادهم عارية إلا من وزرة ، وشعورهم ولحاهم وحواجبهم مخلوقة ، وأحكامهم طويلة الأمد ، ومن الجائز مدها تعسفا إذا لم يذعنوا للأوامر إذعانا تاما ، فيفرض عليهم رقمهم أعواما بعد أن يقضوا مدة عقوبتهم . ولم يخفف عنهم عذابهم إلا ما سمح لهم به إذا بلغوا الميناء من بيع التوافه أو استجداء الصدقات وهم يسرون أزواجاً في أغلالهم .

أما لويس نفسه فوضع فوق القانون ، حراً في أن يأمر بأي عقوبة لأي ذنب . ففي ١٦٧٤ قضى بأن تجدد أنوف جميع البغايا وتصلم آذانهن إذا ضبطن مع الجنود في نطاق خمسة أميال من فرساي . وكثيراً ما كان رحيما ولكنه كثيراً ما كان صارما قال لولده : « إن مقداراً محدوداً من الصرامة كان أعظم ما استطعته من ترفق بشعبي ؛ ولو أنني اتبعت سياسة عكس هذه السياسة لجرت شروراً متعاقبة لا نهاية لها . ذلك أنه ما إن يضعف الملك في إنفاذ ما أمر به ، حتى ينهار السلطان وينهار معه السلام العام . . . فيقع كل العبء على كواهل الطبقات الدنيا ، التي يظلمها عندئذ ألوف من صغار الطغاة بدلا من الملك الشرعي (٣٩) .

وكان دائم العكوف على ما سماه « حرفة الملك » *le métier de roi* . يطلب إلى وزرائه أن يوافقوه بالتقارير الكثيرة المفصلة ، ولا يدانيه رجل في مملكته اطلاعا على أحوالها . ولم يسؤه أن يشير عليه وزراؤه بما يناقض آراءه ، وقد نزل أحيانا على رأي مستشاريه . ثم أنه احتفظ بأوثق العلاقات الودية مع مساعديه ، شريطة ألا يغيب عنهم أنه الملك - قال مرة لفيوبان : « ثابر على أن تسكتب إلي بكل ما يعين لك ولا تفتر لك همة ولو لم أفعل دائما ما تشير به » (٤٠) . وكانت عينه على كل شيء - الجيش والبحرية ، والمحاكم ، وبيته ، والمالية ، والسكنيسة ، والدراما ، والأدب ، والفنون ، ومع أنه في

النصف الأول من حكمه كان يسنده وزراء أ كفاء مخلصون ، فإن السياسات والقرارات الخطيرة ، والجمع بين شتى نواحي الحكم المعقد في وحدة متسقة - كل هذا كان من صنعه هو . لقد كان ملكا كل ساعة من ساعات يومه . ولقد كلفه هذا من أمره عنثاً . كان هناك من يقوم على خدمته في كل خطوة يخطوها ، ولكنه دفع ثمن هذا برقابة الغير له في كل حركة وسكينة فكانت مبارحته لفراشه وذهابه إليه (إذا كان منفردا) بعض وظائف الدولة . فإذا تم هذا الاستيقاظ الرسمي (lever) استمع إلى القداس ثم أفطر ، ثم مضى إلى قاعة المداولة ، وخرج منها حوالى الواحدة ، فتناول وجبة كبيرة ، يأكلها عادة على مائدة صغيرة لشخص واحد ، تحيط به بطائنه وخدمته . فإذا فرغ من طعامه تمشى عادة في الحديقة ، أو خرج للصيد ، يرافقه أترأؤه في ذلك اليوم . فإذا عاد أنفق ثلاث ساعات أو أربعا في اجتماعات مجلسه ، ثم لحق بحاشيته في ملاهيهم من الساعة إلى العاشرة - حيث الموسيقى ، ولعب الورق ، والبليارد ، والغزل ، والرقص ، والاستقبالات ، وحفلات الرقص ، وفي فترات من هذا الروتين اليومي « يتحدث إليه من شاء » (٤١) وإن لم يجزؤ على هذا إلا القليلون . « لقد أعطيت رعاياي كلهم ، دون تفرقة ، حرية مخاطبتي في جميع الساعات ، سواء بأشخاصهم أو بملتهم » (٤٢) وحوالى الساعة العاشرة مساء ، كان الملك يتناول العشاء رسميا مع أبنائه وحفدته ، وأحيانا مع الملكة .

ولقد كان من أسباب التهذيب والتنقيف لفرنسا أن نلاحظ كيف يفرغ مليكها المهام الحكم مواظبا عليها ساعات سبعا أو ثمانى طوال ستة أيام في الأسبوع . كتب السفير الهولندى يقول : (لا يصدق المرء أى سرعة ، وأى وضوح ، أى قدرة على التمييز ، وأى ذكاء يصرف به هذا الملك الشاب أعماله ويفرغ منها ، وذلك في تल्पف كثير مع جميع من يتعامل معهم ، وفي أطول أناة وهو يستمع إلى ما يريد مخاطبه أن يقول ، الأمر الذى حبب فيه كل القلوب) (٤٣) ولقد ثابر على هذا التفانى في تصريف شئون

الحكم طوال أربعة وخمسين عاماً ، لا يكف عنه حتى وهو يلازم فراش
المرض . وكان يحضر المجالس والمؤتمرات وقد أعد نفسه لها إعداداً وافياً .
« فما كان ليحسم في أمر عفو الساعة ، ولا دون مشورة » (٤٥) تم أنه يختار
مساعديه بفطنة عجيبة ، ولقد ورث بعضهم - ككولبير - من مازاران ،
ولكنه كان له من سلامة الذوق ما جعله يحتفظ بهم ، حتى موتهم عادة .
وكان يبذل لهم كل لطف ومجاملة ، وكل ثقة معقولة ، ثم لا تغفل عينه عن مراقبتهم .
كنت بعد أن اختاروزرائي لا يفوتني أن أدخل مكاتبهم على غير توقع منهم .
وهكذا أحطت بالآلاف الأشياء التي أفادتني في تحديد طريقتي (٤٦) »

وحكمت فرنسا ، في أيام شمسها الصاعدة تلك ، خيراً مما حكمت في أي
عهد مضى للميرغم تركيز السلطة والإدارة ، أو بفضل هذا التركيز ، وبرغم
تحكم يد واحدة في تضييق الحكم كلها ، أو بفضل هذا التحكم .

٣ - نيقولا فوكيه : ١٦١٥ - ٨٠

كان هم الملك الأول أن يعيد تنظيم مالية الدولة بعد أن استنزتها
الاختلاسات في عهد مازاران . وكان نيقولا فوكيه ، الذي شغل منصب
« ناظر المالية » منذ ١٦٥٣ ، يدير شؤون الضرائب والمصروفات بأصابع
حريصة ويد قديرة . فقد قلل من عوائق التجارة الداخلية ، وتشطت
التجارة الفرنسية فيما وراء البحار ، واقتسم في احساس بالواجب غنائم
منصبه مع ملتزمي الضرائب ومع مازاران . وكان هؤلاء الملتزمون
العموميون من كبار الرأسماليين الذين أقرضوا الدولة مبالغ كبيرة لقاء
تحويلهم حق جباية الضرائب نظير أدائهم مبلغاً محددًا . وقد جبوها بكثير
من الجشع الفعّال الذي جعلهم أبنفس الأشخاص إلى الناس في المملكة ، وقد
أعدم من أمثالهم أربعة وعشرون ملتزماً خلال الثورة الفرنسية . وجمع
فوكيه بالتواطؤ مع الملتزمين العموميين أضخم ثروة اقتناها فرد في جيله .
وفي سنة ١٦٥٧ كلف المعاري لوى لفو ، والمصور شارل لبرون ،

ورسام المناظر الطبيعية أندريه لنوتر ، بأن يصمموا ، ويبنوا ، ويخرفوا له قصر فو — لو — فيكونت الربى الفخم المتراعى الأطراف ، وأن يخططوا حدائقه ، ويزينوها بالتماثيل . وقد استخدم للمشروع مرة ثمانية عشر ألف رجل (٤٠) ، وكلف ثمانية عشر مليون من الجنيهات الفرنسية ، وغطى مساحة ثلاث قرى . هنالك جمع فوكيه الصور والتماثيل والتحف ، ومكتبة قوامها ٢٧٠٠٠ مجلد حوت فيما حوت عدة نسخ من الكتاب المقدس والتلود والقرآن دون تفریق . وروى أن هذه القامات الأنيقة كانت تتسلل إليها نساء من أنبل الأسر ليؤنسهن بضمن فال (٤١) . ويمثل هذا الذوق ، ولكن بضمن أقل ، جلب فوكيه الشعراء أمثال كورنبي ، وموليير ، ولافونتين ، ليجمعل بهم صالونه .

ونظر لويس بعين الحسد إلى هذه الأبهة وخامرته الغانوز في مصدرها . فطلب إلى كولبير أن يفحص أساليب ناظر المالية وحساباته ، وأنهى كولبير إلى الملك أن الأساليب والحسابات فاسدة إلى حد لا يصدق . وفي ١٧ أغسطس ١٦٦٦ دعا فوكيه الملك الشاب إلى مهرجان أقامه في فو . وقدم الطعام لضيوفه الستة الآلاف في ستة آلاف طبق من الفضة أو الذهب . ومثل موليير في حدائق القصر ملبأته (Les Fâcheux) (الثقلان) وقد كلفت السهرة فوكيه ١٢٠٠٠٠ جنيهه وكلفته إلى ذلك حريره . ذلك أن لويس أحس أن الرجل « يسرق فوق ما يسمح له به مركزه » ولم يعجبه شعار (Quo non ascendam ?) (إلام لا يجوز لي أن أرقى ؟) — الذي شفعه بصورة سنجاب يصعد شجرة ، وخيل إلى لويس أن إحدى اللوحات التي رسمها لبرون تشمل صورة للأنسة دلافالير ، وكانت إذ ذاك محظية للملك . وكاد يأمر باعتقال فوكيه للتو والساعة ، لولا أن أقنمته أمه بأن في ذلك إفسادا لسهرة رائعة .

وتربص الملك بالوزير حتى تسكأرت الأدلة على اخلاساته . وفي سبتمبر أمر قائد مشاته حملة البنادق بالقبض عليه (وهذا القائد

ورسام المناظر الطبيعية « اندريه لنوتر » ، بأن يصمموا ، ويبنوا ، ويزخرفوا له قصر فو — لو — فيكونت الربى الفخم للقرامى الأطراف ، وأن يخططوا حدائقه ، ويزينوها بالتماثيل . وقد استخدم المشروع مرة ثمانية عشر ألف رجل ، وكلف ثمانية عشر مليوناً من الجنيهات الفرنسية ، وغطى مساحة ثلاث قرى . هنالك جمع فوكيه الصور والتماثيل والتحف ، ومكتبة قوامها ٢٧٠٠٠ مجلد حوت فيما حوت عدة نسخ من الكتاب المقدس والتلمود والقرآن دون تفريق . وروى أن هذه القاعات الأنيقة « كانت تتسلل إليها نساء من أببل الأسر ليؤنسهن بثمرن فال » . ويمثل هذا الذوق ، ولكن بثمرن أقل ، جلب فوكيه الشعراء أمثال كورني ، وموليير ، ولافونتين ، ليجمع بهم صالونه . ونظر لويس بعين الحسد إلى هذه الأبهة وخامرته الظنون في مصدرها . فطلب إلى كوليير أن يفحص أساليب ناظر المالية وحساباته ، وأنهى كوليير إلى الملك أن الأساليب والحسابات فاسدة إلى حد لا يصدق . وفي ١٧ أغسطس ١٦٦١ دعا فوكيه الملك الشاب إلى مهرجان أقامه في فو . وقدم الطعام لضيوفه الستة الآلاف في ستة آلاف طبق من الفضة أو الذهب ، ومثل موليير في حدائق القصر ملهاته « Les Facheux » (الثقلاء) وقد كلفت السهرة فوكيه ١٢٠٠٠٠ جنيهه وكلفته إلى ذلك حريره . ذلك أن لويس أحس أن الرجل « يسرق فوق ما يسمح له به مركزه » ولم يعجبه شعار « Quo non ascendam ? » (إلام لا يجوز لي أن أرقى ؟) — الذى شفعه بصورة سنجاب يصعد شجرة ، وخيل إلى لويس أن إحدى اللوحات التى رسمها لبرون تشمل صورة للأنسة دلا فالير ، وكانت إذ ذاك محظية للملك . وكاذباً أمر باعتقال فوكيه للتو والساعة ، لولا أن أقنعت أمه بان فى ذلك إفساداً لسهرة رائعة .

وتربص الملك بالوزير حتى تكاثرت الأدلة على اختلاساته . وفى ٥ سبتمبر أمر قائد مشاته حملة البنادق بالقبض عليه (وهذا القائد « mouquetaire » هو شارل دباتز ، السيد دارفنيان ، بطل قصة ديماس الأب) . وأصبحت

٣ — قصة المحاضرة

المحاكمة التي اتصلت ثلاث سنين أشهر القضايا في تاريخ المهدي . وكأخت مدام دسفينيه ، ولافونتين ، وغيرهما من أصدقاء فوكيه ، وتوسلوا إلى الملك ليبري ساحتها ، غير أن الأوراق التي عثر عليها في قصره الرئفي أدانته . فحكمت عليه المحكمة بالنفي ومصادرة أملاكه ، وعادل الملك الحكم إلى السجن مدى الحياة . وظل الوزير الذي كان من قبل رجلا مرحا ، ستة عشر عاما ، يذوي في سجنه بقلمه بنيرول بييدمونت ، ولا يسرى عنه إلا صحبة زوجه الوفية . لقد كان حكيما قاسيا ، ولكنه قلم أظفار الفساد السياسي ، وأنذر الناس بأن الاستيلاء على الأموال العامة للمتعة الخاصة امتياز لا يختص به غير الملك .

٤ - كولبير يعيد بناء فرنسا

كتب لويس يقول : « لقد أشركت كولبير .. مفتشا مع فوكيه لسكى أراقبه .. وهو رجل منحه ما استطعت من ثقة ، لأنني كنت عليا بذكاؤه وجده وأمانته (٥٠) » . وظن أصحاب فوكيه أن كولبير تمقبه مدفوطا بالرغبة في الانتماء منه ، ولعل كولبير استشعر شيئا من الحسد للرجل ، ولكن فرنسا ذلك العهد لم تنجب ضريبا لكولبير في تفانيه الدؤوب في خدمة الصالح العام . روى أن مازاران قال للملك وهو على فراش الموت « مولاي ، إنني مدين لك بكل شيء » ، ولسكى أذفع ديني .. باعطائك كولبير (٥١) » .

كان جان بانيس كولبير ابن قماش في رامس ، وابن أخى تاجر غني ، وإذ كان بورجوازيا بدمه ، اقتصاديا بمحيطه ، فقد درب على كراهية القوضى والعجز ، وأعد بفطرتة وبطول المرانة لتغيير اقتصاد فرنسا من جمود الفلاحة والتفتت الاقطاعي إلى نظام موحد قوميا ، يشتمل الزراعة والصناعة والتجارة والمال ، يواكب ملكية مبركزة ، ويهيء لها الأساس المادي لعظمتها وسلطتها

دخل كولبير ديوان الحربية سكرتيراً صغيراً في العشرين (١٦٣٩) ومالبت أن شق طريقه بمجده إلى حيث استرعى نظر رؤسائه ، فنقل إلى خدمة مازاران ، وأصبح المدير الناجح لثروة الكردينال . فلما سقط فوكيه ، وكل إلى كولبير مهمة خطيرة هي إعادة تنظيم مالية الأمة . وفي ١٦٦٤ أضيفت إليه مهمة الإشراف على المباني ، والمصانع الملكية ، والتجارة ، والفنون الجميلة ؛ وفي ١٦٦٥ عين مراقباً تاماً للمالية ، وفي ١٦٦٩ عين وزيراً للبحرية ، ثم وزيراً للاخضاعة الملكية . ولم يرق رجل آخر في عهد لويس الرابع عشر بمثل هذه السرعة ، ولا اشتغل بمثل هذه المهمة ، ولا حقق مثل ما حققه من أعمال . بيد أنه لوث أرتفاعاً بمحباته أقرباه ، إذ أعقد الوظائف والأموال على الكثيرين من آل كولبير ، وغالى في مكافأة نفسه مكافأة كادت تعدل ثروته . وكان نهبا للغرور ، يتشبت بأحداره المزعوم من ملوك اسكتلنده ، وقد يعبث عبثاً منكرأ بالقوانين القائمة تعجلاً لقضاء المصالح ، ويتغلب على المعارضة بالرشا يبذلها في الجهات العليا . فلما استفحل سلطانه غدا مستبدأ ، وأحفظ عليه النبلاء إذ داس على أقدام تنزف الدم الأزرق . وقد استخدم في إعادة تشكيل الاقتصاد الفرنسى نفس الأساليب الدكتاتورية التي استخدمها ريشليو من قبل في إعادة تشكيل الدولة الفرنسية . وهكذا لم يكن خيراً من هؤلاء الكرادلة .

بدأ بفحص أساليب المالىين الذين يجبون الضرائب ، ويزودون الجيش بالسلاح ، والملابس ، والطعام ، ويقدمون القروض للاقطاعيين أو لخزانة الدولة . وكان بعض هؤلاء المصرفيين يعدلون الملك ثراء . فبلغت ثروة صموئيل برنار متلا ٣٣٠٠٠٠٠٠٠ جنيه (٥٢) . وقد أثار الكثيرون منهم حنق النبلاء بالزواج من طبقتهم ، وبشراء ألقاب الشرف أو اكتسابها ، وبالعيش في ترف لا يقوى عليه من لا يملكون غير عرافة النسب . وكانوا يتقاضون فائدة على قروضهم تصل إلى ١٨٪ حسب درجة الشك في الوفاء بالقروض . وبناء على طلب كولبير شكل الملك « غرفة عدالة » للتحقيق

في جميع المخالفات المالية التي ارتكبت منذ ١٦٣٥، والتي اقترفها أي شخص أيا كانت صفة أو حالته (٥٣) ، وطلب إلى جميع موظفي الخزانة ، وجباة الضرائب ، وأصحاب الدخول أن يقدموا سجلاتهم ويبينوا شرعية مكاسبهم ، وفرض على كل منهم أن يثبت نظافة يده وإلا كان جزاؤه المصادرة وغيرها من العقوبات . وبثت العرفة موظفيها في طول فرنسا وعرضها وشجعت المخبرين . وأودع السجن عدة رجال أغنياء ، وأرسل البعض إلى مراكز تشفييل الأسرى ، وشنق البعض الآخر . وصعدت الطبقات العليا لهذا « الأرهاب الكوليري » ، أما الطبقات الدنيا فصفت له استحسانا . ونظم رجال المال في رجنديا حركة تمرد على الوزير ، ولكن جماهير الشعب شهروا السلاح في وجوههم ، ولقيت الحكومة عمثا في إنقاذهم من غضب الشعب . ورد للخزانة نحو ١٥٠٠٠٠٠٠ من الفرنكات ، وخفف خوف العقاب فساد المالية جيلا كاملا (٥٤) .

ومضى كولبير يعمل منجبل الوفر في خزانة الدولة . فرفت نصف الموظفين في وزارة المالية وأغلب الظن أنه هو الذي اقترح على لويس ما قام به من إلغاء جميع مناصب الخاصة المملكية التي تدفع عنها الرواتب دون أن يؤدي أصحابها واجبات . فطرد عشرون من « سكرتيري الملك » ليكسبوا قوتهم بطريق آخر . وخفض تخفيضا قاسيا عدد المحامين العامين ، وضباط النظام ، والمستقبلين ، وغيرهم من صغار الموظفين في البلاط الملكي ، وأمر كل موظفي الخزانة بأن يمكوا حسابات دقيقة واضحة ويقدموها للفحص . وحول كولبير جميع الديون الحكومية القديمة إلى ديون جديدة بسعر فائدة أقل . ثم بسط جباية الضرائب . ولما تبين صعوبة جمع المتأخرات أقنع الملك بالغاء كل الضرائب التي لم تسدد عن المدة ١٦٤٧ — ٥٨ . ثم خفض معدل الضريبة في ١٦٦١ ، وحزن حين اضطر إلى رفعه ثانية في ١٦٦٧ لكي يمول « حرب الأبلولة » واسراف فرساي .

يد أن أسوأ ما منى به من إخفاق كان في احتفاله بنظام الضرائب

القديم . ولعله لوقبله من أساسه لأحدث من الاخلال بالنظام ما يهدد تدفق إيراد الدولة . ذلك أن الدولة كانت تمولها أساساً ضريبتان - التاي (الرهوس) والجاويل (الملح) . وكانت ضريبة التاي تقدر في أقاليم من واقع الأملاك الحقيقية ، وفي غيرها على أساس الدخل . وقد أهدى منها الأشراف والسكينة ، فوقعت كلها على كواهل « الطبقة الثالثة » - التي تنتظم باقي السكان وكان يطلب إلى كل إقليم أن يجي مبلغاً محدداً ، ويسأل كبار المواطنين عن جباية المبلغ المقرر . أما الجاويل فضريبة على الملح . فقد احتكرت الدولة بيعه ، وألزمت جميع الرعايا أن يشتروا دورياً كمية مقررة بأسعار تحددها الحكومة . وإلى هاتين الضريبتين الأساسيتين أضيفت مختلف الرسوم الصغيرة ، وعشر محصول الفلاح الذي يجب أدائه للسكنيسة . على أن هذه الضريبة كانت عادة دون العشر بكثير (٥٥) ، وكانت تراعى الرأفة في جبايتها .

وكانت الزراعة أقل المرافق تأثراً باصلاحات كولبير . إذ بقيت طرق الفلاحة بدائية جداً بحيث عجزت عن إطاشة عشرين مليوناً من الأنفس يتسكثرون بغبر حساب . وكان لكثير من الأزواج عشرون ولداً . ولولا الحرب ، والمجاعة ، والمرض ، وارتفاع نسبة الوفيات في الأطفال ، لتضاعف السكان مرة كل عشرين سنة (٥٦) . ومع ذلك منح كولبير الاعفاءات الضريبية للأزواج المبكر ، والمسكافات للأسر الكبيرة (ألف جنيه فرنسي للاباء إذا كان لهم أبناء عشرة ، وألفين إذا كانوا اثني عشر ولداً (٥٧) .) . بوزلك بدلا من أن يعمل على زيادة خصوبة التربة . وقد احتج على تسكثرات الأديان لأنه يهدد القوى البشرية لفرنسا (٥٨) . على أن نسبة المواليد في فرنسا انخفضت رغم ذلك خلال حكم لويس ، لأن الحرب زادت الضرائب وعمقت الفقر . ولم يكن حتى في هذه الحال لم تقتل الحرب ما يكفي لحفظ التوازن بين المواليد والطعام ، وكان على الطاعون أن يتعاون مع الحرب . وكان نقص المهور سنين متعاقبتين كفيلاً بإحداث المجاعة ، لأن وسائل النقل لم ترق بحيث تستطيع بكتابة سد البحر في إقليم من القامض في آخر . ولم تحمل فرنسا ثمن مجاعة في

مكانها بفرنسا (٥٩) وكانت السنوات ١٦٤٨ - ١٦٦٠ ، ٥١ ، ٦٢ ، ١٦٦٣ - ١٦٩٤ ، و ١٧٠٩ - ١٥) فترات انتشر فيها الرعب من الموت جوعا ، حين بلغت نسبة الموتى من السكان في بعض الأقاليم ثلاثين في المائة . وفي ١٦٦٢ استورد الملك القمح وباعه للفقراء بثمن بخس أو وهبه لهم وأعفاهم من ثلاثة ملايين فرنك من الضرائب المستحقة (٦٠) .

وخفف التشريع بعض مآسى الريف ، إذ حظر الاستيلاء على بهائم الفلاح أو عرباته أو أدواته وطاء للدين ولو كان ديننا للتاج . وأنشئت مزارع للاستيلاء تتمهد أنراس الفلاح مجانا ، ومنع الصيادون من اختراق الحقول للبذورة بالحلب ، وقدمت الاعفاءات الضريبية لمن يصلحون الأراضي المهجورة ويزرعونها . ولكن هذه الملطفات ما كانت لتنفذ إلى صميم المشكلة — مشكلة اختلال التوازن بين خصوبة الإنسان وخصوبة اترربة ، والافتقار إلى الاختراعات الآلية . على أن فلاحى أوربا على بكرة أبيهم كانوا يلتقون مثل هذا العنت ، ولعل الفلاحين الفرنسيين كانوا أيسر حالا من نظرائهم في انجلترا أو ألمانيا (٦١) .

لقد ضحى كولبير بالزراعة قربانا للصناعة ولكى يطعم سكان المدن المنكائرين ، وجيوش الملك المتعاطمة ، حظر رفع سعر الغلال بما يتناسب وغيرها من الخمامات . وكان من الأوليات عنده أن على الحكومة التى تبتغى التوة أن تملك موارد كافية وجيشا من الجند الأشداء المجهزين تجهيزا حسنا؛ فطبقة الفلاحين المتمرسه بالمهاق تزود البلاد بمشاة أقوياء ، والصناعة والتجارة الناميتان لا بد أن توفر الثروة والأدوات . ومن هنا كان هدف كولبير الذى لم ينتن دونه هو أن يشجع الصناعة ، لا بل إن التجارة يجب إخضاعها لهذا الهدف ، فلا بد أن تحمى الصناعات الوطنية بالرسوم الجمركية التى تبعد المنافسة الخطرة من خارج البلاد . وجريا على السياسات الاقتصادية التى انتهجها صلى وريشليو ، أخضع كولبير جميع الصناعات الفرنسية — إلا أقلها شأنًا — لسيطرة الدولة النقابية : فكات كل صناعة ، بطوائفها ، ومالياتها

ومعلميها ، وصبيتها ، وعملها اليوميين ، تؤلف نقابة تنظمها الحكومة من حيث المعاملات ، والأسعار ، والأجور والبيوع . وأرسي المعايير الرفيعة لكل صناعة أملا في كسب الأسواق الأجنبية بمجودة التصميم والصقل في المنتجات الفرنسية . وقد آمن هو ولويس بأن التذوق الأرسقراطي للاناقة يدعم الحرف السكالية ويحسنها ، ومن ثم وجد الصاغة ، والنقاشون ، ونجارو الأثاث ، ونساجو الأقمشة المرسومة ، كلهم وجدوا العمل والحافز والصيت البعيد .

وأمم كولبير مصنع جوبلان في باريس تأميا تاما ، وجعله نموذجا في الأسلوب والتنظيم . وشجع المشروعات الجديدة بالاعفاء الضريبية ، والقروض التي تمنحها الدولة ، وخفض سعر الفائدة إلى ٥٪ ، وسمح باحتكار الصناعات الجديدة إلى أن ترسخ أقدامها . وقدم الحوافز لمهرة الصناع الأجانب حتى يجلبوا مهاراتهم إلى فرنسا ، فاستوطن صناع الزجاج البنادقة في سان - جوبان ؛ وجلب صناع المشغولات الحديدية من السويد ؛ وأنشأ بروتستانتى هولندي في أبقيل صناعة القماش الرفيع بعد أن كفله له حرية العبادرة ورأس المال الذي اقرضته إياه الدولة . فما وافى عام ١٦٦٩ حتى بلغ عدد الأنوال في فرنسا ٤٤٠٠٠ ، وكان في تور وحدها ٢٠٠٠٠ نساج . وقد زرعت فرنسا أشجار توتها ، وكانت آتخذ مشهورة بأقمشتها الحريرية . وتضاعفت مصانع النسيج لتلبى حاجة جيوش لويس الرابع عشر المتزايدة . وهكذا اتسعت الصناعات الفرنسية سريعا بفضل هذه الحوافز . وأنتج الكثير منها لسوق قومية أو دولية ، وبلغ بعضها مرحلة رأسمالية في الاستتار ، والتجهيز ، والإدارة . وصادفت رسالة التصنيع التي آمن بها كولبير هوى في نفس الملك ، فتفقد الورش ، وسمح بأن تختم المنتجات الفاخرة بخاتم السلاح الملكي ، ورفع من قدر رجال الأعمال الاجتماعى ، وخلع ألقاب الشرف على كبار المقاولين .

وشجعت الدولة التعليم العلمى والتقنى أو وفرته للشعب . وغدت الورش

في الوفرة ، والتوليدى ، ومصانع الجوبلان ، وأحواض سفن البحرية ، مدارس
يقتلهم فيها الصبية من الصناع . وسبق كولبير موسوعة ديدرو ، إذ احتضن
موسوعة للفنون والحرف ، ووصفها مصورا لكل الآلات المعروفة (٦٢) . ونشرت
أكاديمية العلوم بحوثا عن الآلات والفنون الميكانيكية ، وسجلت « صحيفة
العلماء » تقنيات صناعية جديدة . وقد أخذ العجب بيرو - وهو يبنى الواجبة
الشرقية للوفر - حين رأى آلة ترفع كتلة من الحجر تزن ١٠٠.٠٠٠ كيلو
(١٠٠ رطل) (٦٣) . على أن كولبير طارح إدخال الآلات التي ينجح عنها
تعطل العمال (٦٤) .

وإذ كان شديد الولع بالنظام والكفاية ، فقد أمم تنظيم الصناعة بوساطة
السكرامونات أو الطوائف الصناعية . وتوسع في هذا التنظيم توسعا أوشك
أن يكون خانقا . وراحت مئات من الأوامر تصف أساليب الصناعة ، وحجم
المنتجات ولونها ونوعها ، وساعات العمل وظروفه ، وأنشئت اللجان في جميع
قاعات المدن لفحص العيوب في إنتاج الحرف والمصانع المحلية . وعرضت حلانية
عينات من الصنعة للمعيبة وإلى جوارها اسم الصناع أو المدير . فإذا عايد المخالف
إلى مخالفته وبخ في اجتماع للطائفة فإن عاد نالته شد إلى عمود تشهيرا به
وتنكيلا (٦٥) . وشغل كل ذكر قادر على العمل ، وجند الإيتام من ملاجهم
ليخدموا في المصانع ، وأخذ المتسولون من الشوارع إلى المصانع ، وقال
كولبير للملك في اغتباط إنه حتى الأطفال يستطيعون الآن كسب بعض
المال في المصانع .

وأخضع العمال لنظام يقرب من النظام العسكري . فالكسل وعدم
الكفاية ، والشتم ، والأحاديث المايبة ، والعصيان ، والسكر ، والاختلاف إلى
الحانات ، ومعاشرة الخليلات ، وعدم الخشوع في الكنيسة - كل أولئك
يجب أن يعاقبه رب العمل ، وبالجلد أحيانا . أما ساعات العمل فطويلة -
وقد تبلغ اثنتي عشرة أو أكثر تتخللها فترات من ثلاثين أو أربعين دقيقة
لتناول الطعام . وأما الأجور فضئيلة ، يدفع جزء منها أحيانا سلما يحدد

رب العمل أسماها . وقد حسب فوبان متوسط الأجر اليومي الذي يتقاضاه مهرة الصناع في المدن الكبيرة فكان اثني عشر سوا (ثلاثين سنتا) في اليوم ، ولكن السوا الواحد كان يشتري رطلا من الخبز (٦٦) . واختزلت الحكومة عدد أيام الأعياد الدينية التي تعفى العمال من العمل ، وبقي من هذه العطلات ثمانية وثلاثون يوما ، فكان مجموع أيام الراحة في السنة تسعين (٦٧) . وحرمت الاضرابات ، وحظرت اجتماعات العمال لتحسين أحوالهم ، وقد سجن بعض العمال في روشفور لأنهم شكوا ضالة أجورهم . ونمت ثروة طبقة رجال الأعمال ، وارتفعت موارد الدولة ، ولكن لعل حال العمال كانت على عهد لويس الرابع عشر أسوأ منها في العصور الوسطى (٦٨) . لقد أخضعت فرنسا للنظام المصارم في الصناعة كما أخضعت في الحرب .

أما في مجال التجارة ، فقد آمن كولبير كما آمن معظم رجال الدولة في جيله بأن اقتصاد الأمة ينبغي أن ينتج أقصى ما يمكن من ثروة واكتفاء ذاتي داخل الأمة . وأنه ما دام الذهب والفضة عظيمي القيمة بوصفهما وسيطين في المبادلة ، فلا بد من تنظيم التجارة بحيث تسكفل للامة « توازنا تجاريا في صالحها ، أي زيادة في الصادرات على الواردات ، ومن ثم تدفقا للفضة والذهب إلى البلاد . وبهذه الطريقة وحدها استطاعت فرنسا ، وأنجلترا ، والأقاليم المتحدة - وكلها لم تكن تربتها تحوى ذهبا ، أن تحصل على حاجاتها ، وأن تمون جيوشها من الحرب . وهذه هي « الماركنتلية » mercantilism . ومع أن بعض الاقتصاديين سخروا منها ، فقد كان وسوف يكون هناك الكثير من المبررات لها في عصر كثير الحروب . ولقد طبقت على الأمة نظام التعريفات والترتيبات الحامية التي كانت في العصور الوسطى تطبق على الإسكوميون . ونمت وحدة الحماية حين حلت الدولة محل الإسكوميون وحدة للاتاج والحكم . إذن فبمقتضى نظرية كولبير يجب أن تكون أجور العمال منخفضة تمكينا لمنتجاتهم من أن تنافس نظيرها في الأسواق الأجنبية . وبذلك تجلب الذهب إلى البلاد ، ويجب أن يكون جزاء أرباب العمل وفيها

حفزا لهم على الاضطلاع بالمشروعات الصناعية لصنع السلع ، لاسيما السكاليات ، التي لا تنفع لها في الحرب ولكن يمكن تصديرها بتكلفة قليلة لقاء طائد كبير ؛ ثم يجب أن تكون أسعار الفائدة منخفضة إغراء للمقاولين باقتراض رأس المال . وهكذا ترى طبيعة التنافس التي قطر عليها الإنسان ، في تلك الغاية التي لا تخضع لقانون والتي تصطرع فيها الدول ، قد كيمت اقتصادها الوطني وفق فرص الحرب وحاجاتها . فالسلام ليس إلا حربا بوسائل أخرى .

إذن فوظيفة التجارة في رأي كولبير (بل في رأي صلي ورشليو وكر وموبل أيضاً) تصدير السلع المصنوعة نظير المعدن النفيس أو الخيامات . ومن ثم نراه في ١٦٦٤ ، ثم في ١٦٦٧ ، يرفع الرسوم على الواردات التي هددت بأن تنافس في فرنسا منتجات الصناعات الوطنية المعتبرة ضرورية في الحرب ، فلما استمر جلب هذه الواردات حظرها بتاتا . وفرض رسوم تصدير باهظة على المواد الضرورية ، ولكنه خفض الضريبة على تصدير السكاليات .

ثم حاول تحرير التجارة الوطنية من المكوس الداخلية . وقد وجد أن التجارة الفرنسية تعترض سيرها المموقات من الحواجز والتعريفات الاقليمية والبلدية والعزبية . من ذلك أن السلع المنقولة من باريس إلى المانش ، أو من سويسرة إلى باريس ، كانت تدفع عنها مكوس عند ست عشرة نقطة ، ومن أورليان إلى نانت عند ثمان وعشرين . وربما كان هناك مبرر لهذه المكوس . يوم كان كل إقليم يطمح إلى الاكتفاء الذاتي ويمجاهد في حماية صناعاته ، وذلك بسبب صعوبات النقل واحتمالات الصراع الإقطاعي أو تنازع الكومونات . أما وقد توحدت فرنسا سياسياً الآن ، فقد غدت هذه المكوس الداخلية عقبة كئودا في طريق الاقتصاد القومي وحاول كولبير بمرسوم أصدره في ١٦٦٤ أن يلغى جميع المكوس الداخلية . ولكن للقاومة كانت عنيدة ، ففي نصف فرنسا استمرت المكوس ، وظل بعضها إلى عهد الثورة الفرنسية وكان أحد أسبابها الصغيرة . وكاد كولبير أن يقضى على

الجهد الذي بذله لتوسع التجارى بإصداره الموائح المعقدة التي استهدفت اصلاح مافسد ولكنها عرقلت التجارة إلى حد تعطيلها أحيانا . قال (هو . أو أحد نقاده) « أن الحرية روح التجارة ، فعلينا أن نترك الناس ليختاروا أنسب الطرق لهم » .

(Il faut Laisser faire les hommes) (٦٩) ، هنا عبارة قدر لها أن

تصنع التاريخ .

وقد جاهد ليفتح مسالك جديدة للنقل الداخلى . فبدأ مجموعة من الطرق الرئيسية الملكية ، وكانت حربية في هدفها الأول ؛ ولكنها كانت إلى ذلك نعمة على التجارة عامة . كان السفر بالبر لا يزال شاقا بطيئا . مثال ذلك أن مدام دسفينيه استغرقت ثمانية أيام في رحلة بالركبة من باريس إلى ضيعتها في فيتره بربتاني . وبناء على اقتراح من بيبربول دريكيه ، استخدم كولبير اثني عشر ألف رجل في حفر قناة لاجدوك الكبرى ، التي بلغ طولها ١٦٢ ميلا ، وارتفعت أحيانا إلى ٨٣٠ قدما فوق سطح البحر ، ولم يحل عام ١٦٨١ إلا وقد اتصل البحر المتوسط بخليج بسكاي عن طريق الرون والقناة . والجارون ، واستطاعت تجارة فرنسا أن تتجنب المرور بالبرتغال وأسبانيا . وكان كولبير ينظر بين الحسد إلى الهولنديين الذين ملكوا خمسة عشر ألف سفينة تجارية من بين الآلاف العشرين التي تمخر المباب ، على حين لم تملك فرنسا منها سوى ستائة . ومن ثم بني شيئا فشيئا البحرية الفرنسية حتى بلغت سفنها ٢٧٠ بعد أن كانت لا تتجاوز العشرين ، وأصلح المرافئ وأحواض السفن ، وأثزم الرجال في غير هواة بالانخراط في سلك البحرية ، ونظم أو أصلح الشركات التجارية بمجزر الهند الغربية ، والشرقية ، وبحر المشرق ، والبحار الشمالية . ومنح هذه الشركات امتيازات الحماية ، ولكن هنا أيضا عطلتها الموائح التي فرضها عليها تعطيلها مدصرا . ومع ذلك نمت التجارة الخارجية ، وناست البضائع الفرنسية للنتجات الهولندية أو الإنجليزية في البحر الكاريبي ، والشرق الأدنى ، والأوسط ، والأقصى . وغدت مارسلية

أكبر ثغور البحر المتوسط بعد ما أصابها من اضطحلال لقلعة السفن الفرنسية . وبعد عشر سنين من الخبرة والتشاور والعمل الشاق أصدر كولبير (١٦٨١) قانونا بحريا للسفن والتجارة الفرنسيتين ، ما لبثت الأمم الأخرى أن طبقتة . ثم نظم التأمين على الرحلات التجارية الخطرة وراء البحار . وبارك اشتراك فرنسا في تجارة الرقيق ، ولكنه جاهد ليلطف من قسوتها باللوائح الرحيمة (٧٠) .

وقد شجع الارتياح الجغرافي وإنشاء المستعمرات ، أملا في أن يبيعها السلع المصنوعة نظير خاماتها ، ويستخدمها روافد لبحرية تجارية قد تكون ذات نفع في الحرب . وكان المستعمرون الفرنسيون منتشرين فعلا في كندا ، وغرب أفريقيا ، وجزر الهند الغربية ، وفي طريقهم إلى داخل مدغشقر ، والهند ، وسيلان . وارتاد كورسيل وفونتناك البحيرات العظمى (١٦٧١ - ٧٣) . وأسس كاديك مستعمرة فرنسية كبيرة فيما هو الآن ديترويت . واستكشف لاسال المسيسي في ١٦٧٢ (بعد أن منح احتكار تجارة الرقيق في الأقاليم التي يفتحها) ، وهبط فيه في مركب هزيل ، فوصل إلى خليج المكسيك بعد شهرين من رحلة حافلة بالمغامرات . واستولى على الدلتا وأطلق عليها اسم الملك . فسيطرت فرنسا على وادي سانت لورنس والمسيسي في قلب أمريكا الشمالية .

جملة العقول — ونحن لم نسجل غير جزء من نشاط كولبير ، وقد أغفلنا الحديث عن جهوده في سبيل العلم والأدب والفن — أن حياة هذا الرجل كانت من أعظم مسجله التاريخ تفانيا في العمل وسعة في الإلتفات . فلم يعرف الناس منذ شارلمان ذهبا واحدا مثل ذهنه صنع من جديد على هذا النحو دولة بهذه العظمة في نواح بهذه السكثرة . صحيح أن هذه اللوائح والنظم كانت مزعجة ، وقد نفرت الناس من كولبير ، ولكنها شككت القلوب الاقتصادية لفرنسا الحديثة . ولم يقتل نابليون أكثر من مواصلة جهود

كولبير ومراجعتها سواء في الحكم أو القانون . وعرفت فرنسا طوال عشر سنوات من الثراء ما لم تعرفه من قبل . ثم انحسر هذا الثراء لعيوب النظام وأخطاء الملك . وقد احتج كولبير على أسراف الملك والبلاط ، وعلى آفة الحرب التي كانت تنحرف في جسد فرنسا في شيخوخته ، ولكن التعاريف المالية التي فرضها ، شأنها في هذا شأن ولع لويس بالسطوة والمجد — هي التي التي أفضت إلى بعض هذه الحروب . وندد غرماء فرنسا البحريون بإفقال موانئها في وجه بضائهم . ووقع على كواهل الفلاحين ومهرة الصناع عبء اصلاحات كولبير ، بل أن رجال الأعمال الذين أثمرتهم هذه الاصلاحات اتهموه بأن لوأمهم عوقت التطور . قال أحدكم للوزير « لقد وجدت العربية مقلوبة على أحد جنبها ، فقلبتها على الآخر » (٧١) فلما مات (في سبتمبر ١٦٨٣) رجلا محطما مهزوما ، اضطر ذوهه إلى دفن جثمانه ليلا مخافة أن يسبه الناس في الشوارع (٧٢) .

٥ - الآداب والأخلاق

كان العهد عهد الآداب الصارمة والأخلاق المنحطة . وكان اللباس شعيرة المركز الاجتماعي . فهو في أوساط القوم غاية في البساطة — سترة سوداء تغطي في تواضع القميص والسراويل والسيقان . أما في الصفوة فهو بهي فاخر ، وهو في الرجال أبهى وأفخر منه في النساء . فكانت القبعات كبيرة لينة ، لها حاشية عريضة مزركشة بمجديلة من ذهب ، تمال إلى أعلى في جانب أو ثلاثة جوانب ، وتختال بحزمة من الريش يضمها مشبك معدني . وحين ارتقى لويس العرش نبذ — ونبذ من بعده البلاط — تلك الباروكات التي أشاع زيتها أبوه الأصلح ، فقد كانت تلايف شعر الملك الشاب السكستنائي أروع وأبهى من أن تخبأ ، ولكن حين بدأ شعره ينحل بعد ١٦٧٠ ، اتخذ الشعر للمستعمار ، وما لبث أن توج كل رأس — أيا كان طموح حامله — وسواء في فرنسا أو انجلترا أو ألمانيا ، بمقوص مستعارة مبدرة تنسدل

إلى السكتين أو ما تحتهما، وتجعل كل الرجال يبدو سواسية إلا لعجائهم .
أما الحمى فحلفت ، وأما الفوارب فاحتفل بها ، ومدت القفازات إلى مافوق
الرسغ وزينت ، وارتدى الجنسان فراء اليدى فى الجو البارد . واستميض
عن طوق الرقبة المكشكش العالى بلفاع حريرى يعقد هينا حول العنق .
وأخذ يحمل محل الصدر ثوب طويل مزخرف ، وزين الفخذان بسرويل
: كيلوت ، تمتد إلى الركبتين وتقل بمشابك أو تعقد بأشرطة عندهما ،
ثم تغطى هذه الثياب — إلا من أمام — بسترة ملتفة تنتهى أكامها
بأساور واسعة تحف بها حاشية من الدنتلا . واختص القانون النبلاء
بتحلية ثيابهم بوشى من الذهب أو بالأحجار الكريمة ، ولكن ذوى
اليسار من أى طبقة نجاهلوا هذا القانون . أما الجوارب الطويلة فكانت عادة
من الحرير ، وكان الذكور يلبسون الأحذية الطويلة الرقبة حتى
لحفات الرقص .

أما النساء المهذبات فكانت ثيابهن فضفاضة منسدلة تتفق وفضائلهن .
وكانت صدارتهن ذات أربطة ولكن من أمام كما ناشدهن بانورج فى
كتاب رابليه ، فكانت النهود البارزة تثب للعيون البصاصة . وأما التنورة
للمطوقة والأكام المنفوخة فولت مع ريشليو . وحفلت الأرواب بالتطريز
والألوان المشرقة ، وكست الأحذية المألوية المهججة الأقدام المتمبة ، وربط
الشعر بالأشرطة ، ورضع ، وعطر ، وجعد ، فى تأق . . وظهرت أولى
مجلات الأزياء فى ١٦٧٢ .

أما آداب السلوك فكان طابعها الجلال والرفخامة ، وأن بقيت جلافت
كثيرة تحت أهبة القبعة المرفوعة للتحية والثوب الجرار . فكان الرجال
يصبغون على أرض الحجر ، ويبولون على سلم الوفر^(٧٣) وقد ينقلب للزاح
وحفيا أو بذيئا . ولكن الحديث كان زشيقا مهذبا ، ولو دار حول
الفسولوجيا والجنس . وكان الرجال يأخذون عن النساء آداب السلوك

والحديث ، قيتكلمون في عبارة واضحة سليمة ، ويتنكبون الحشو والحدائق ، ويتناولون جميع الموضوعات مهما اشتد عمقها بمرح خفيف روحا وعبارة . وكان الاحتداد في الجدل من سوء الأدب . وأما آداب المائدة فأخذت تتحسن . كان الملك يأكل بأصابعه طوال حياته ، ولكن استعمال الشوك كان قد راج . وشاع استعمال نحو ١٦٦٥ فوطة للمائدة . ولم يمد من المستساغ أن يسمح الضيوف أصابعهم في غطاء المائدة .

أما الفضائل الإجتماعية فلم تكن ممتازة في هذا العصر — عصر الاتيكيت والبروتوكول . وتضاعل الإحسان بازدياد ثراء الطبقات العليا . وكانت الأخلاق أسلم ما تكون في الطبقات الوسطى حيث يسر الشعور بالأمن حسن السلوك ، وحفزته الرغبة في الارتقاء . وكان المثل الأعلى عند جميع الطبقات هو L'honnête homme وليس المقصود بالعبارة الرجل الأمين ، بل الرجل الشريف ، الذي يجمع بين كرم النشأة والعادات وبين حسن السلوك . أما الأمانة فقلما كان يتوقعها القوم من إنسان . فقد استشرت الرشوة في المناصب على الرغم من لوائح كولبير ونظام الجاسوسيه الملكى ، وشجع عليها بيع الوظائف الحكومية مصدرا من مصادر إيراد الدولة . وانبعث الجريمة من جشع الأغنياء ، وفقر الفقراء ، والتفجرات الغاضبة في جميع الطبقات . وآية ذلك أن من السيدات العريقات النسب من أفدن من خدمات كاترين مونفوزان أو المركيزة برانفلييه ، وكلتاهما حذفن تحضير السموم الطويلة المفعول ، وشاع القتل بالسم شيوعا اقتضى إنشاء محاكم خاصة لتفصل في قضاياها^(٧٤) . أما كاترين مونفوزان فقد مارست الطب ، والتوليد ، والسحر ، وساعدت كاهنا مرتدأ في ترتيل « القديس الأسود » الخماسا لمعونة الشيطان ، وكانت تدبر اجهاض النساء وتبيع السموم وأشرية الغرام . ومن زبائنها أوليمب مانتشيني ، ابنة أخت مازاران ، والسكونتيسة جراهون ، ومدام دمونتيسبان خليفة الملك وفي ١٦٧٩ خصت لجنة نشاط « لافوزان » . ووجدت الأدله على اشتراك العدد العديد من كبار أفراد الهاشية ، الأمر

الذى حدا بلويس إلى حظر إذاعة التحقيق (٧٥) . وأحرقت لانوازان حية (١٦٨٠) .

ويدخل في أخلاق الأفراد انحرافاتهم العادية . وقد نهر القانون على عقاب الواط بالإعدام ، وما كانت أمة تتخذ أهبتها للحرب ، وتدفع الإطانات على الأطفال ، لتسمح بانحراف الغرائز الجنسية عن جادة الإنسال ، ولكن مطاردة أمثال هؤلاء المنحرفين كانت عسيرة في وقت كان فيه شقيق الملك لوطيا يشار إليه بالبنان ، يأنف القوم من ازدرائه ولكنهم يرونه فوق القانون . أما الحب بين الجنسين فقد تقبلوه على أنه تخفف رومانسى من أعباء الزواج ، لامبر يدعو للزواج . وقد رأوا أن اقتناء الثروة . أو حمايتها ، أو نقلها ، أهم في الزواج من محاولة الإبقاء على عواطف الساعة العابرة طوال العمر . ولما كانت معظم زيجات الطبقة الارستقراطية لا تمعدو أن تكون ترتيبات لتنظيم الملكية ، فان المجتمع الفرنسى أغضى عن التمسرى ، فكان لكل قادر تقريبا خديلة ، وكاد الرجال يفاخرون بفرامياتهم مفاخرتهم بماركهم الحربية . أما المرأة فتشعر أنها مهجورة وشبوذة إذا لم يلاحقها من الرجال سوى زوجها ، وكان بعض الخائنين من الأزواج يغضون عن خيانات زوجاتهم . يقول شخص في مسرحية لموليير : « أفى الدنيا كلها بلد آخر يبلغ فيه صبر الأزواج مبلغه في هذا البلد (١٧٦) ؟ » في هذا المناخ الكلبى نشأت أمثال لاروشفوكو . وكان القوم يحتمرون البغاء إذا تجرد من الكياسة ، ولكن امرأة كسينون دلاسلكو ، جعلته بالأدب والظرف ، استطاعت أن تحظى بشهرة تداى شهرة الملك .

كان أبوها نبيلاً حراً الفکر ، ومبارزا بارعا . وكانت أمها شديدة الحرص على الفضيلة ، ولكنها (إذا صدقنا ابنها) « مجردة من مشاعر الحس وقد ولدت ثلاثة أطفال وهى لا تكاد تلحظ الأمر (٧٧) » . ومع أن ينون لم يتح لها التعليم المنهجي ، فإنها التقت من المصارف قدرا

لا يستهان به ، فتعلمت الكلام بالإيطالية والأسبانية ، ربما لتستعين بهما في هذه التجارة الدولية ، وقرأت مونتيني وشارون ، بل قرأت ديكارت ، وأخذت عن أبيها تشككه . وقد جعلت مناقشتها حول الدين في فترة لاحقة مدام دسفينيه ترتعد (٧٨) . قالت نينون « إذا احتاج إنسان إلى دين ليسلك في هذه الدنيا كما ينبغي ، فتلك علامة إما على ضيق عقله ، أو على فساد قلبه » (٧٩) . وكان من الجائز أن تخلص من ذلك إلى ضرورة الدين لجميع الناس تقريبا ، ولكنها بدلا من هذا انزلت إلى البغاء وهي لا تتجاوز الخامسة عشرة (١٦٣٥) . وقالت في استهتار « إن الحب طائفة لا تنطوي على أي التزام خلقي (٨٠) » فلما خلعت العذار وجبرت بفوضاها الجنسية ، أمرت آن المساوية بحبسها في دير للنساء . وروى أنها فتنت راهبات الدير بظرفها وحيويتها ، واستتمت بحبسها كأنها فرصة للاستحجام . وفي ١٦٥٧ أفرج عنها بأمر الملك .

لقد كان فيها ما هو أكثر كثيرا من مجرد المحظية ، حتى إنها سرطان ما ضمت إلى لعيف المعجبين بها عددا كبيرا من أبرز الرجال في فرنسا ، ومنهم نفر من الحاشية (٨١) ، من الملحن لولي إلى كوندية العظيم ذاته . وكانت تجيد العزف على الهاربسيكورد ، وتحسن الغناء ، يقصدها لولي ليحرب ألحانه الجديدة . وقد حوت قائمتها ثلاثة أجيال من آل سفينيه - زوج كاتبة الرسائل اللطيفة ، وابنها ، وحفيدها (٨٢) . وأقبل الرجال من خارج فرنسا يلتمسون ودها . قالت « لم يتشاجر على عشاق قط ، فقد كانوا يثقون في قلبي ، وكان كل منهم ينتظر دوره (٨٣) » .

وفي ١٦٥٧ افتتحت صالونا ، ودعت إليه رجال الأدب والموسيقى والفن والسياسة والحرب ، وأحيانا زوجاتهم ، وأذهلت باريس بما أبدت من ذكاء لا يقبل عن ذكاء أي امرأة في جيلها أو ذكاء أكثر الرجال ، فلقد طالعم فيها عقل مينيرفا من خلف وجه فينوس . يقول فيها قاض صارم هو بيان - سيخون :

« كان من المفيد لإنسان أن تستقبله في صالونها نظراً إلى الاتصالات التي يكونها عن هذا الطريق . ولم يدر في صالونها أى لعب للقمار ، ولا ضحك عال ، ولا مجادلات ، ولا حديث في الدين أو السياسة ، بل دار الكثير من الحديث الذكي الرشيق .. وأنباء الغرام ، ولكن دون فضح أو تشهير . كان كله حديثاً مهذباً خفيفاً محسباً ، وكانت هي نفسها تغزو الحديث بذكائها وعلمها الغزير (٨٤) » .

وأخيراً أثار فتنة فضول الملك نفسه ، فطلب إلى مدام دما تينون أن تدعوها إلى القصر ، واستمع إليها من وراء ستار ، وافتتن بها ، وكشف لها عن وجوده وقدم نفسه إليها . وكانت في هذه الفترة (١٦٧٧ ؟) قد كسبت ما يشبه الاحترام ، وخلفت عليها أمانتها البسيطة وأيادها الكثيرة سمحة أشرف ، فسكان الرجال يودعون لديها المبالغ الكبيرة مطمئنين ، واثقين دائماً من إمكان استردادها حين يشاءون ، ولاحظت باريس كيف كانت نينون تزور الشاعر سكارون كل يوم تقريباً حين أقعده الشلل ، وكيف كانت تأتيه بأطبائ الطعام التي يعجز عن دفع ثمنها .

ولقد عمرت بعد أصدقائها كلهم تقريباً ، حتى سانت إفريمون التسعيني ، الذي كانت رسائله التي يبعث بها من إنجلترا عزاء لفيخوختها . كتبت له تقول : أحياناً أحنيق بعمل نفس الأشياء دائماً ، ويمجبنني السويسريون الذين يلقون بأنفسهم في النهر لهذا السبب (٨٥) . « وكانت تضيق بالتجاعيد . « إذا كان لزاماً أن يبتلى الله المرأة بالعضون ، فأولى به على الأقل أن يضعها على باطن قدمها (٨٦) » . فلما دنت منيتها ، تنافس اليسوعيون والجانسونيون على شرف هدايتها للإيمان ، فاستسلمت لهم في لطف ، وماتت في أحضان الكنييسة (١٧٠٥) (٨٧) . ولم تترك في وصيتها سوى عشرة إيكوات لجنائزتها ، حتى تكون أبسط ما يستطيع ، ولكن « أطلب في تواضع إلى المسيو آرويه » — وهو وكيلها — « أن يسمح لي بأن أترك لابنه ، الذي

يتلقى العلم عند اليسوعيين ، ألف فرنك ليشتري بها كتابا (٨٨) . وابتدئ
الابن الكتب ، وقرأها ، وأصبح فولتير .

إن أروع السحر الذي توج هامة المجتمع الفرنسي هو أن حافظ الجنس امتد
إلى الذهن ، وأن النساء تنهن ليضفن الذكاء إلى الجمال . وأن الرجال يروضهن
النساء على السلوك المؤدب ، والذوق السليم ، والحديث المهذب ، وفي هذا
كان القرن (الممتد من ١٦٦٠ إلى ١٧٦٠) في فرنسا أوج الحضارة . في ذلك
المجتمع كثرت النساء الذكيات كثيرة لم تمهد من قبل ، فإذا جعن إلى الذكاء
فتنة الوجه أو الجسد ، أو سحر الاهتمام الناشئ عن الرقة والالطف ، أصبحن
قوة تهذيب عارمة . وكانت الصالونات تدرّب الرجال على الحساسية لرقة
الأنثى ، والنساء على التجاوب مع عقل الذكر . وفي هذه اللقاءات طور فن
الحديث حتى بلغ شأوا لم يبلغه من قبل ولا من بعد — فن تبادل الأفكار
دون مغالاة أو خصومة ، بل في مجاملة ، وتسامح ، ووضوح ، وخفة ،
ورشاقة . ولعل هذا الفن كان أقرب إلى السكّال في عهد لويس الرابع عشر
منه في أيام فولتير — أقل ألمعية وظرفا ، ولكن أكثر مادة ومودة .
كتبت مدام دسفينيه إلى ابنتها تقول « بعد الغداء مضينا إلى السمير في ألطف
غابات الدنيا ، وظللنا هناك إلى السادسة ، مشتغلين بمختلف ألوان الحديث ،
البالغ العطف ، والرقة ، والالطف ، والسكرم ، مما مس شغاف قلبي (٨٩) »
وقد عزا كثير من الرجال الفضل في تسعة أعشار تعليمهم إلى مثل هذا
التبادل والاتصال الاجتماعي بين الجنسين (٩٠) .

وفي الغرفة الزرقاء بالأوتيل درامبويه كان أول الصالونات يسطع بهائه
الآخر . أمه كونديه وإن لم يلعب فيه ، وأمّه كورنجر ، ولاروشفوكو ،
والسيدتان لافايت ودسفينيه ، ودوقة لويجفيل ، والجراند مدموازيل .
هناك أرست النساء للتحدّقات les femmes précieuses قواعد السلوك
الدهيق والحديث المصقول . ولكن حرب الفروند قطعت هذه اللقاءات ،
ورحلت مدام درامبويه إلى الريف ، ومع أن «أوتيلها» (قصرها) فتج بعد

ذلك أبوابه ثانية لمبقرى فرنسا (موليير) ، فإن باكورة تمثيلياته
Les Précieuses ridicules (المتحذلقات المضحكات) (١٦٥٩) كانت ضربة
قاضية عليه . وطوى أول الصالونات المشهورة يموت مؤسسته في ١٦٦٥ .

وواصلت هذا التقليد صالونات أخرى ، في بيوت السيدات دلا
سابليير ، ودلامبير ، ودسكوديرى — وآخرهن أشهر كتاب الرواية في
هذا العصر ، وأولاهن امرأة جذبت الرجال بحسنها رغم حبها للفيزياء ،
والفلك ، والرياضة ، والفلسفة . في صالونات كهذه زكت النساء العالمات
femmes savantes اللاتي أثرن سخرية موليير في ١٦٧٢ . ولكن كل
هجاء ليس إلا نصف الحقيقة ، ولعل موليير في لحظاته الفلسفية كان يقربحق
النساء في أن يشاركن في حياة جيلهن الفكرية . فنساء فرنسا ، أكثر حتى
من كتابها وفنانيها ، هن تاج حضارتها ، والمفخرة العظمى لتاريخها .

٦ - بلاط الملك

لقد عاون الملك وبلاطه على تحضير فرنسا . وفي ١٦٦٤ كان البلاط يضم
نحو ستمائة شخص : الأسرة المالكة ، وكبار النبلاء ، والمبعوثين الأجانب ،
والخدم والحشم . وقد زاد العدد في أوج اكتمال فرساي إلى عشرة آلاف
من الأنفس (٩١) ، ولكن هذا العدد شمل الأعيان الذين اختلفوا إلى القصر
بين الحين والحين ، وجميع المرفهين والأتباع ، والفنانين والمؤلفين الذين وقع
عليهم اختيار الملك ليكافئهم . وأصبحت الدعوة إلى البلاط شهوة لا تفوقها
غير شهوة الطعام والجنس ، لا بل إن قضاء يوم واحد فيه كان نشوة
لا تنسى ، جديرة بأن يبذل في سبيلها نصف مدخرات العمر .

وبعض السر في بهاء البلاط كان في الأثاث المترف التي ازدادت به الغرف ،
وبعضه في لباس الحاشية ، وبعضه في حفلات الترفيه البالغة الفخامة ، وبعضه
في جمال النساء وصيت الرجال الذين اجتذبهم يريق المال ، والشهرة ، والسلطان .
ومن النساء الشهيرات — كالسيدتين دسفينيه ودلافايت — من لم يختلفن

إلى البلاط إلا نادرا لانحيازهم إلى قضية الفروند ، ولكن بقي منهم عند
يكنى لإبهاج ملك بالغ الحساسية لمفاتيح المرأة . وتبدو المرأة في اللوحات التي
وصلت إلينا من هذا العصر على شيء من البدانة ، يبرز لها من صدرها ،
ولكن من الواضح أن الرجال كان يحجبهم دفء الشحم واللحم فيمن
يعشقون من النساء .

أما أخلاقيات البلاط فكانت الزنا المحتشم ، والإسراف في اللباس
والقمار ، والدسائس العنيفة جريا وراء الصيت والمنصب ، وهذا كله يخطو
على إيقاع من السلوك الخارجى الدمث ، والآداب الرشيقة ، والمرح الإلزامى .
وضرب الملك المثل في بدعة اللباس الغالى ، لا سيما في استقبالات السفراء ،
فتراه وهو يستقبل مبعوثى سيام يرتدى عباءة موشاة بالذهب ومرصعة
الأطراف بالماس ، بلغت تكاليفها ١٢٠٠٠٠٠٠٠ جنيه فرنسى (٩٢) ،
ومثل هذا المظهر كان جزءا من سيكولوجية الحكم . وأفنى الأشراف
ونسائهم نصف دخل ضياعهم في الثياب والخدم والأثاث ، وكان على أقلهم
شأن أن يستخدم أحد عشر خادما ومركتين ، أما الأثرياء فكان لهم من
الاتباع خمسة وسبعون في بيوتهم ، ومن الخليل أربعون في مراتبهم (٩٣) .
وفقد الزنا سحره بعد أن لم يعد محظورا ، فغدا لعب الورق للقامرة أم
ضروب الترفيه في البلاط . وهنا أيضا كان لويس القدوة لحاشيته ، فقامر بمبالغ
كبيرة ، تستحنه إلى ذلك خليلته مونتسبان ، التي خسرت وكسبت أربعة
ملايين من الفرنكات في لعب ليلة واحدة (٩٤) . وسرى هذا الهوس
من البلاط إلى الشعب . كتب لايروبير يقول : « إن الألوف يخربون بيوتهم
بالقمار ، وهو لعبة رهيبية ... ينوى لاعبا القضاء المبرم على غريمه ،
وينتشى بشهوة الكسب (٩٥) » .

وقد أفضى التنافس على الخطوة عند الملك ، أو على وظيفة مجزية ،
أو على مكان في الفراش الملكى ، إلى جسو من الشبهات ، والافتراءات ،
وتباجل الخصومات الحادة . قال لوفيس : « في كل مرة أعين إنسانا في وظيفة

شافرة ، أسخط مائة شخص ، وأجمل شخصاً فأكرا للجميل (٩٦) . وكان القوم يتشاحنون على أمكنة الصدارة في المائدة ، أو على القيام على خدمة الملك ، وحتى سان — سيمون أقلقه الخوف من أن يتقدمه دوق لكسمبور خمس خطوات في أحد اللواكب ، وقد اضطر لويس إلى نفي ثلاثة أدواق من البلاط لأنهم أبوا أن يقدموا على أنفسهم أسراء أجانب . وكان الملك شديد الاحتفال بالبروتوكول ، وقد عبس مرة حين وجد على مائدة الغداء سيدة طائلا من اللقب تتقدم دوقة في مجلسها (٩٧) . ولا ريب في أن ضربا من الترتيب المقرر كان ضروريا لمنع ستائة من الأنفس المفرورة المزهوة بأسباب التشريف من أن يدوس بعضها على أقدام بعض ، وقد أثني الزوار على ذلك المظهر المتسق الذي بدت فيه الحاشية الضخمة . ومن قصور الملك ، واستقبالاته ، وحفلات ترفيهه ، سرى دستور الإتيكيت ، ومعايير لسلوك والدوق ، إلى الطبقتين العليا والوسطى ، وأصبحت هذه كلها جزءا من التراث الأوربي .

وأراد الملك أن يمنع الملل من أن بتطرق إلى نفوس هؤلاء النبلاء والنبيلات ، ذلك الملل الذي قد يحمل البعض على قتل الملك ، غناط الفنانين على مختلف أنواعهم بإعداد ألوان الترفيه — من مباريات بين الفرسان ، ورحلات صيد ، ومباريات تنس وبلياردو ، وجماعات سباحة أو نزهة في الزوارق ، وحفلات غداء أو عشاء ، ورقص وحفلات راقصة ، وحفلات تنكرية ، ومرافق باليه ، وأوبرات ، وحفلات موسيقية ، وتمثيليات . وبدت فرساي وكأنها جنة الله في أرضه حين كان الملك يتقدم حاشيته إلى الزوارق الراسية في القناة ، والأصوات والآلات تشدو بالموسيقى ، والمشاغل تمين القمر والنجوم على إضاءة المشهد . وهل في الدنيا أفخم ولا أكرم للأفاس من حفلات الرقص الرسمية ، حين تمكس قاعة المرايا في مراياها الهائلة رشافة الرجال والنساء وخفتهم وهم يخطرون في رقصات فخمة نجت آلاف الأضواء ؟ لقد أراد الملك أن يجتفل بمولد ابنه البكر ، الدوقان به

(١٦٦٢) فأقام حفلة باليه في الميدان المنبسط أمام التويلري ، حضرها خمسة عشر ألف شخص . وقد دمر كومون ١٨٧١ القصر ، ولكن موقع هذا المهرجان الأشهر ما زال يسمى قصر كاروزل Carrousel (أى ساحة الرقص الدائرى السريع) .

لقد أحب لويس الرقص ، وأشاد به ، واحداً من أفضل وأهم الرياضات لتدريب الجسم (٩٨) ، وأسس في باريس (١٦٦١) الأكاديمية الملكية للرقص . وكان يشارك بشخصه في رقصات الباليه ويحذو النبلاء حذوه . وشغل الملحنون في بلاطه بإعداد الموسيقى لحفلات الرقص والباليه ، وهناك تطورت المتتالية التي حذق استخدامها بيرسيل في إنجلتره وآل باخ في ألمانيا . ولم يبلغ الرقص صوراً رشيقة متسقة كهذه منذ أيام روما الإمبراطورية .

وفي ١٦٤٥ استقدم مازاران المغنين الإيطاليين ليرسوا أساس الأوبرا في باريس . وقطع موت الكردينال هذا الاستهلال ، ولكن حين شب الملك أنشأ أكاديمية الأوبرا (١٦٦٩) ، وكلف بيير بيران بتقديم أوبرات في عدة مدن فرنسية ، ابتداءً من باريس في ١٦٧١ . فلما أفلس بيران من جراء إنفاقه المسرف على المناظر والآلات ، نقل لويس « امتياز أكاديميات الموسيقى » إلى جان باتيست لولى Lully ، فالبت هذا الرجل أن رقص البلاط بأسره على أنغامه .

وكان هو أيضاً هبة من هبات إيطاليا . فقد أتى به الشقالييه جيز صبيا فلاحاً في السابعة من فلورنسة إلى فرنسا في ١٦٤٦ ، « هدية » لابنة أخته ، الجرانند مدموازيل ، التي استخدمته في مطبخها مساعداً صغيراً (Soumarmon) . وهناك ضايق زملاءه الخدم بالقرين على السكبان ، ولكن المدموازيل تبينت موهبته وأتته بمعلم . وما لبث أن عزف في فرقة الموسيقى الملكية ذات الأربع والعشرين كماناً . واستلطفه لويس ، فأعطاه

مجموعة صغيرة من الموسيقيين يقودها . وبفضل هذا الأوركسترا الوترى الصغير تعلم القيادة والتلحين — للموسيقى الرقص ، والأغاني ، والسكان المنفرد ، والكنتاتات ، والموسيقى الكنسية ، ولثلاثين لحنا أوركستريا للباليه ، وعشرين أوبرا . وقد صادق مولير ، وتعاون معه في عدة باليات ، ولحن فواصل موسيقية قصيرة لبعض تمثيلات مولير .

وكان نجاحه رجل بلاط يضارع انتصاراته موسيقيا . ففي ١٦٧٢ ، وفق بنفوذ مدام دمونتسبان في الحصول على احتكار الأوبرا في باريس . وقد وجد في فيليب كينو Outnauts مؤلفا لكلمات الأوبرا وشاعرا أيضا . فأخرجا معا سلسلة من الأوبرات كانت ثورة في الموسيقى الفرنسية . ولم يقتصر نجاح هذه الحفلات على الترفيه على البلاط في فرساي ، بل إنها اجتذبت صفوة الباريسيين إلى المسرح الذي بنى من قبل اللوى في شارع سانت — أونوريه ، واجتذبتهم في كثرة جعلت الشوارع تحتق بالمركبات ، فاضطر الرواد في كثير من الأحيان إلى الخروج منها والسير على الأقدام ، وفي الوحل غالباً ، خشية أن يفوتهم الفصل الأول ، وقد استهجن بوالو الأوبرا زاعماً أنها ضرب من التخنث المضعف (٩٩) ، ولكن الملك منح أكاديمية الموسيقى مرسوماً (١٦٧٢) ، وأذن لـ « سادة والسيدات بالغناء في عروض الأكاديمية المذكورة دون أن يكون في ذلك غض » من أقدارهم (١٠٠) . ورفع لويس لوى إلى مقام النبالة سكرتيراً للملك ، وشكاً سكرتيرون آخرون من أن الوظيفة أرفع من أن تخلع على موسيقى ، ولكن لويس قال للوى ، « لقد شرفتهم م لا أنت بوضعي عبقرياً بين زميرتهم (١٠١) » . وحالف التوفيق لوى في كل شيء حتى ١٦٨٧ ، حين ضرب قدمه صدقة — وهو يقود فرقته — بعض القيادة ، وأساء طبيب دجال علاج جرحه ، فتمفن ، ومات المؤلف الفوار في الثامن والأربعين . ومازالت الأوبرا الفرنسية تضرر بتأثيره إلى اليوم .

بقى اسم آخر خلفته موسيقى ذلك العهد الفخم ، وهو اسم أسرة كوبران ، التي كانت مثلاً آخر على الوراثة في الفن ، والتي أنجبت مؤلفين لفرنسا طوال قرنين من الزمان ، واحتسرت من ١٦٥٠ إلى ١٨٢٦ الأرغن العظيم في كنيسة سان جرفيه ، وقد شغل فرنسوا كوبران « الكبير » ذلك المنصب ثمانية وعشرين عاماً ، كذلك كان « عازف أرغن الملك » في كنيسة الملك الصغيرة بفرساي ، وكان أشهر طازفي الهاربسيكورد في ذلك « القرن العظيم » . وقد درس يوهان سبستيان باخ ألحانه التي وضعها لهذه الآلة دراسة دقيقة ، وأثر البحث الذي وضعه باسم *L'art de toucher le clavecin* (وهو الاسم الفرنسي لمقابله الأنجليزي Clavichord) في بحث ذلك الألماني العظيم المسمى « الكلافير المعتدل » ... ترى ؛ أ كانت للموسيقى في دم آل كوبران ، أم في بيتهم فقط ، لعل الوراثة الاجتماعية ، لا البيولوجية ، هي التي تصنع الحضارة .

٧ - نساء الملك

لم يكن لويس بالرجل الخليع الفاجر ، وعلينا أن نذكر دائماً ونحن في معرض الحديث عن الملوك حتى إلى قرننا هذا ، أن العرف اقتضاهم أن يضحوا بميولهم الشخصية ليمقدوا زيجات تجلب منفعة سياسية للدولة ، ومن ثم كان المجتمع - والكنيسة أحياناً كثيرة - يفضيان إذا التمس الملك متعة الجنس وشاعرية الغرام بعمداً عن الرباط الزوجي . ولو كان الأمر بيد لويس لبدأ حياته بزواج حب ، فقد استهواه جمال ماري مانشيني ابنة أخت مازاران ، وظرفها ، فرجا أمه والسكر دبنال أن يسمح له بالزواج منها (١٦٥٨) ، ولكن آن النسائية وبخته لانه سمح للعاطفة بأن تتدخل في شئون السياسة ، أما مازاران فقد أبعد ماري آسفا للزوج رجلاً من آل كولونا ، ثم راح الوزير الداهية يستخدم نفوذه الخفي ليحصل على

عروس لويس هي ماريا تريزا ، ابنة فيليب الرابع . أفليس من الجائز ، إذ قد انقطع نسل الذكور في الملوك الأسبان ، أن تأتي هذه الأميرة بأسبانيا كلها مهراً لملك فرنسا ؟ وهكذا زف لويس إلى ماريا في ١٦٦٠ ، وكلاهما في الثانية والعشرين ، في كل البهاء والبذخ الذي سحر دافعي الضرائب .

أما ماريا تريزا فكانت امرأة متكبرة ، ورعة فاضلة ، وقد أطاعت قدوتها ونفوذها على إصلاح أخلاقيات البلاط ، على الأقل بين حاشيتها ، ولكن النظام الصارم الذي نشأت عليه جعلها مكنتبة متبلدة ، وكانت شهيتها القوية تزيدها حجماً في الوقت الذي ترمق فيه حسناوات باريس زوجها الوسيم بنظرات الغرام وقد أنجبت له ستة أطفال ، لم يتجاوز الطفولة منهم غير واحد هو الدوفن ، وكان من سوء طالعها أن يكتشف لويس ، في نفس سنة زواجهما ، في زوجة أخيه هنرييتا آن ، جميع المفاتيح التي تجمل الأنوثة الغضة .

أما هنرييتا هذه فهي ابنة تشارلز الأول ملك إنجلترا ، وكانت أمها هنرييتا ماريا « ابنة هنري الرابع ملك فرنسا » قد قاسمت زوجها مأساة الحرب الأهلية ، فلما دنا جيش البرلمان من مقر قيادة تشارلز في أكسفورد ، فرت ملكة إنجلترا إلى أكستر ، وهناك ، حين اشتد بها المرض حتى أشرفت على الموت ، ولدت (١٦٤٤) « أميرة صغيرة جميلة » . وراح أعوان البرلمان يتمقبون الأم المريضة ، ففرت نائبة ، وتسلت إلى ساحل البحر ، حيث استقلت سفينة هولندية إلى فرنسا بعد أن أفلتت بالجهد من المدافع الإنجليزية . أما الطفلة التي تركتها أمها في رعاية الليدي آن دولكيت ، فقد عاشت عامين في نخبها بإنجلترا قبل أن تهرب هي أيضاً عبر المانش في

(١) روت مدام دمونتسبان . التي لم تخل من تحيز في مذكراتها ، كيف أهدى أمير أفريقي قرماً زنجياً لماري ، وكيف ولدت ماري « بنتاً جميلة صحيحة الجسم ، سوداء من قرة رأسها إلى أخمص قدمها » وهزت الملكة هذا اللون إلى خوفها من التزم خلال حملها ، وأذاعت « غاريتيه » باريس أن الفتاة ماتت عقب ولادتها ، ولكن يبدو أنها عاشت ، وربتها أسرة ملونيه ، وأصبحت راهبة . (١٠٢) .

أمان ، وما لبثت أن أكرهتها الظروف على معاناة التقلبات التي جاءت بها حرب الفروند . ففي يناير ١٦٤٠ شاركت أمها وأن النمساوية في هروبهما من باريس المملوءة بالمتاريس إلى سان — جرمان ، وفي ذلك الشهر جاء نبأ — أخفى عنها ولا ريب حيناً — بأن أباهما ضرب عنقه أنصار كرومويل « ذوو الرموس المستديرة » المنتصرون فلما خفت حدة الفروند ، قامت أم الأميرة هنرييتا على تربيتها في جو من الدعوة والتقوى ، وعاشت كلتاها حتى رأتا تشارل الثاني يرد إلى العرش الإنجليزى (١٦٦٠) ، وبعد عام حين بلغت السادسة عشرة ، تزوجت شقيق لويس الرابع عشر ، « مسيو » فيليب دوق أورليان ، وأصبحت تلقب بالـ « مدام » .

أما « المسيو » فكان رجلاً قصيراً مكور البطن ، يلبس حذاءً طالياً ، ولوعاً بحلى الأنثى ، وأجساد الذكور ، شجاعاً كأى فارس في ساحة الوغى . ولكنه مزوق ، معطر ، موشح ، مرصع بالجواهر كأشد النساء غروراً ، في هذا البلد الذي كان أكثر بلاد الله غروراً . وقد أحزن هنرييتا وأخجلها أن ترى زوجها يؤثر على محبتها محبة شفالبيه اللورين ، وشفالبيه شاتيون . ووقع في غرامها كل إنسان تقريباً ، لا لجمالها الهش فحسب — مع أنها عدت أجمل مخلوق في البلاط (١٠٣) — ، بل لما هو أكثر من ذلك ، لروحها الرقيقة اللطيفة ، وحيويتها ومرحها الشبيهين بحيوية الأطفال ومرحهم . وللنسيم النضر المنعش الذي حملته أينما ذهبت ، وقد وصفها راسين بـ « الحكيم في كل جميل (١٠٤) » — وكان واحداً من كثيرين ممن ألهمتهم ومدت لهم يد المعونة .

ووجدها لويس الرابع عشر لأول وهلة أضعف وأنحف من أن تسيغها فتوته وذوقه ، ولكنه حين أحس آخر الأمر بما في خلقها من « حلاوة وضياء » (١٠٥) استشعر المتعة المتزايدة في وجودها ، وأبهجه أن يراقصها ، ويمارحها ، ويدبر الألعاب معها ، ويصاحبها في العشى في البستان في فونتنبلو .

أو ركوب الزورق في القناة ، حتى زحمت باريس كلها أنها غدت خليلته ، ورأت في هذا انتقاما عادلا من « ملك سدوم » (١٠٦) ولكن أغلب الظن أن باريس أخطأت الحكم . فلقد أحبها لويس واشتهاها من جانبه ، أما هي ، التي بذلت إخلاصها في الحب لأخويها تشارلز وجيمس ، فقد قبلت الملك أخا آخر ، واتخذت من ربط الثلاثة جميعاً برباط التحالف أو المودة . رسالة لها في الحياة .

ففي سنة ١٦٧٠ ، وببناء على طلب لويس ، عبرت المانش إلى إنجلترا لتقنع تشارلز بالانضمام إلى فرنسا ضد هولندا ، لا بل لتحصنه على الجهر بكنيئته . وقد وعد بهذا في معاهدة دوفر السرية (١ يونيو ١٦٧٠) ، وعادت هنرييتا إلى فرنسا محملة بالهدايا مكحلة بالنصر ، ولكن ماضت أيام على وصولها إلى قصرها في سان - كلو حتى أصابها مرض شديد ، فظنت أنها سممت ، وكذلك اعتقدت باريس كلها ، وهرع الملك والملكة إلى فراشها . وكذلك فعل « المسيو » النادم ، وكونديه ، وتورين ، ومدام دي لا فاييت ، ومدموازيل دمونبانييه ، وأتى بوسويه ليصلي معها ، وأخيراً في ٣٠ يونيو ، انتهى عذابها ، وكشف فحص جثتها عن أن موتها لم يكن بالدم بل بالالتهاب البريتوني ، وشيعها لويس بمشهد لا يشيع بمثله غير أصحاب الرهوس المتوجة ، وألقي بوسويه فوق جثاتها في كنيسة سان - دني عظة جنازية رجعت أصداءها القرون .

وهنرييتا هي التي أعطت الملك أولى خليلاته الأكثر علاية . وقد ولدت هذه المرأة ، واسمها لويز دي لا فايير ، في مدينة تورام ١٦٤٤ ، وتلقت في إيمان مستسلم ذلك التعليم الديني الذي قامت عليه أمها وخالها الكاهن ، الذي أصبح فيما بعد أسقفا لنانت ، وما أن بلغت سن التناول الأول حتى مات أبوها ، فتزوجت أمها من جديد ، وكان الزوج رئيساً لحدم جاستون دوق أورليان ، فحصل للويز على وظيفه وصيفة لبنات الدوق ، فلما

مات جاستون ، وتزوج ابن أخيه وخليفته فيليب ، أخذ لويز معه وصيفة شرف هنرييتا (١٦٦١) . وبهذا الوصف كانت ترى الملك مراراً كثيرة . وبهرها بهأوه وسلطانه وسجهر شخصيته ، فوقت في غرامه كما وقعت عشرات النساء ، ولكنها لم تحلم بالتحدث إليه يوماً .

كان جمالها جمال الخلق أكثر منه جمال الجسد ، كانت رقيقة الصحة وبها عرج خفيف ، « وليس لها صدر يؤبه به » على حد قول أحد ناقدتها ، وكانت نحيفة إلى حد مخيف ، ولكنها ضعفا هذا كان في ذاته فتنة ، لأنه أورثها تواضعاً ودماثة في الطبع أسر الجميع حتى النساء ، ولفتت هنرييتا نظر الملك إلى لويز لتصرف الناس عن الشائعات التي أرجفت بأنها هي ذاتها خليلته ، وأفلحت الخطة فوق ما أرادت ، فقد جذبت لويس هذه الفتاة المحجول ذات السبعة عشر ربيعاً ، التي كان البون شاسعاً بينهما وبين النبيلات المتفطرسات العدوآنيات اللآني يحطن به في بلاطه . وذات يوم وجدها وحيدة في حدائق فونتنبلو ، فقدم نفسه إليها ، مضمراً نيات ليست بالشريفة جداً . وفاجأته بالاعتراف بأنها تحبه ، ولكنها قاومت إلحافه طويلاً ، وتاشدته ألا يحملها على خيانة هنرييتا والملكة ، ولكنها ما وافى شهر أغسطس ١٦٦١ حتى كانت قد غدت خليلته ، لقد كان كل شيء يبدو حسناً مادام يرضى مشيئة الملك .

ثم وقع الملك بدوره في غرامها ، فما كان يستشعر السعادة كما يستشعرها مع هذا الفرخ المحجول ، وخرجا في نزهاة خلوية كالأطفال ، ورقصا في المراقص ، وطفرا مرحا في حفلات الباليه ، وكانت إذا خرجت إلى جواره في الصيد تنسى ما في طبها من إحجام وتردد ، وتركب في تهور واندفاع « فيعجز حتى الرجال عن اللحاق بها » (١٠٨) على حد قول الدوق دانيميان . على أنها لم تستغل انتصارها ، فأبت قبول الهدايا أو الاشتراك في الدسائس ، وظلت متواضعة رغم زناها ، وكانت تحفل من وضعها ، وقد تمذبت حين

قدمها الملك إلى الملكة ، وولدت له عدة أطفال ، مات اثنان منهم في تاريخ مبكر ، أما الطفلة الثالثة والرابع ، اللذان تقررت شرعيتهما بمرسوم ملكي ، فقد أصبحا الكونت دفيرماندوا ، والمدموازيل دبلوا الائمة الجمال . وخلال أزمات الولادة هذه كانت ترى وجوهاً أجمل من وجهها تجتذب الملك ، ولم تحمل سنة ١٦٦٧ حتى تعلق قلبه بمدام دمونتسيان ، وبدأت لويز تفكر في التكفير عن آثامها بقضاء ما بقي من عمرها في دير للراهبات .

وأنس لويس هذا الميل فيها ، فبذل لها الكثير من علامات حبه الباقى ، وفكر في الحفاظ عليها في دنياه بخلع لقب الدوقية عليها ، ولكنه بين اشتغاله بحب دمونتسيان ، واستغراقه في الحرب ، قل شيئاً فشيئاً ما منحها من وقته ، أما هي فلم تأبه في البلاط بإنسان غيره . وفي ١٦٧١ تخلت عن ثروتها ، وارتدت أبسط ما وجدت من ثياب ، وتسلمت من القصر صباح يوم من أيام الشتاء ، وهربت إلى دير القديسة ماري — د — شايبو ، وأرسل لويس من يبحث عنها مؤكداً حبه وعذابه ، وإذ كانت لا تزال عذراء غريرة بعقلها ، فقد ارتضت أن تمود إلى البلاط . وظلت هناك ثلاث سنين أخرى ، ممزقة بين حبه للملك وشوقها للتطهر والسلام الدينيين ، وكانت تمارس في القصر تقشف الحياة الديرية ، وأخيراً أقنعت الملك بأن يفرج عنها ، ودخلت ديراً للراهبات الكرمليات الخافيات في شارع دانفير (١٦٧٤) ، وتسمت الأخت لويز دلا ميزيريكورد ، وعاشت هناك في توبة الزهاد ما بقي لها من صرطوال ستة وثلاثين عاماً ، قالت : « إن نفسي شديدة القناعة ، بالغة السكينة ، لأننى أعبد جود الإله » (١٠٩) .

أما خليفتها في الخطوة لدى الملك فلا تنظر من الناس بمثل هذا الفقران المام . فقد قدمت فرنسواز أئينايس روتشوار البلاط في ١٦٦١ ، وخدمت الملكة وصيفة شرف ، وتزوجت المركز دمونتسيان (١٦٦٣) . ويزعم

فولتير أنها إحدى ثلاث كن أجمل نساء فرنسا، أما الأخرى ان فاختاها (١١٠). وكان لها غداثر مجمدة شقراء مرصمة باللاآء، وعينان أبيتان ناعستان، وشفتان شهوانيتان، وثغر ضاحك، ويدان ملاطفتان، وبشرة في لون الزئبق ونسيجه — كذلك وصفها معاصروها وهم مبهورون، وكذلك صورها هنرى جاسكار فى لوحة مشهورة. وكانت تقيية، تحفظ أيام الصوم دون تهاون، وتختلف إلى الكنيصة فى تعبد وتكرار، لها طبع حاد وذكاء بتار، ولكن هذا كان أول الأمر من قبيل التحدى.

روى عنها ميشليه قولها إنها قدمت باريس مصممة على اقتناص الملك (١١١). ولكن سان - سيمون يذكر أنها حين رأت أنها أخذت تزيد من سرعة نبض الملك رجعت زوجها فى أن يعود بها فوراً إلى بوتو (١١٢). ولكنه أبى، واثقا من سلطانه عليها، متملقاً بعبير البلاط. وذات ليلة فى كومبيين، ذهبت لتنام فى حجرة مخصصة عادة للملك. وحاول برهة أن ينام فى حجرة مجاورة، ولكنه وجد فى هذا مشقة، وأخيراً استولى على حجرتة وعليها (١٦٦٧). أما المركز فحين بلغه الأمر لبس ثوب الترمل، وجلل مركبته بالسواد، وزين أركانها بالقرون. وكتب لويس بيده وثيقة الطلاق بين المركز والمركبة، وأرسل إليه ١٠٠٠٠٠٠ ايكو، وأمره بالرحيل عن باريس، وابتسم البلاط الذى تجرد تماماً من الخلق الكريم.

وظلت مدام دمونتسبان محظية للملك سبعة عشر عاماً. وقد أعطت لويس مالم تستطع لافالير - أعطته الحديث الذكى والحيوية اللثيرة. وكانت تفاخر بأنها هى وتبلد الحس لا يمكن أن يجتمعا فى مكان واحد وزمان واحد، وهو قول صحيح. وقد أنجبت للملكة ستة أطفال - أحبهم وشكر لها صنيمها، ولكنه لم يستطع أن يقاوم إغراء النوم من حين إلى حين مع مدام دسوييز أو مع الأنسة الشاية دسكوراي دروسيل، التى خلع عليها لقب دوقة فوتانج. وقد حدث هذه الانحرافات بدمام دمونتسبان إلى

التماس نصيحة للشموذات في أمر الأشربة السحريه أو غيرها من الوسائل للاحتفاظ بحب الملك ، ولكن القصة التي زعمت أنها دبرت تسميمه أو تسميم غريماتها هي في أغلب الظن أسطورة روجها أعداؤها (١١٣) .

وقد جني عليها أطفالها . ذلك أنها احتاجت إلى شخص يرعاهم ، وزكى لها بعضهم مدام سكارون ، فاستخدمتها ، ولاحظ لويس حسن المربية وهو يختلف لرؤية أطفاله . أما مدام سكارون هذه ، واسمها قبل الزواج فرنسواز دويينيه ، فكانت حفيدة تيودور أجريبا دويينيه ، المساعد الهيجونوتي لهنري الرابع ، وقد ولدت بسجن بنيور في بواتو ، حيث كان أبوها يقضى فترة من فترات سجنه الكثيرة عقابا له على جرائم مختلفة ، وعمدت كاثوليكية ، وربيت بين القوضى والفقير الخيمين على أسرة منقسمة . وعطف عليها بعض البروتستنت وأطعموها وثبتوها في العقيدة البروتستنتية تثبيتها جعلها تولى ظهرها للمذبح الكاثوليكي . فلما بلغت التاسعة أخذها أبوها إلى المارتنيك حيث أشرفت على الموت لصرامة التأديب الذي أدبته به أمها . ومات الأب بعد عام (١٦٤٥) ، فعادت الأرملة وأطفالها الثلاثة إلى فرنسا . وفي ١٦٤٩ أودعت فرنسواز ديلا للراهبات بمد أن عادت إلى الكاثوليكية ، وكانت تناهزت الرابعة عشرة آنثذ ، وتكسب قوتها بأداء الأعمال الحقيمة . ولعلنا ما كنا لنسمع بها قط لولا أنها تزوجت بول سكارون .

وأما بول هذا فكان كاتباً مشهوراً ، وظريفاً لامعاً ، مشلولاً شللاً كاد يكون تاماً ، مشوها تشويها بشعاً . وإذ كان ابنالحم ناب ، فقد توقع النجاح في حياته العملية ، ولكن أباه الأرملة تزوج ثانية ، وبذت الزوجة الجديدة بول ، فلم يظفر من أيه إلا بماش ضئيل لا يكفيه إلا للترفيه ليله عن ماريون ديلورم وغيرها من التبيلات . ثم أصيب بالزهري ، وأسلم نفسه لأحد الدجالين ، وتعاطى العقاقير القوية التي أكلقت جهازه العصبى . وأخيراً اشتد به الللل حتى كاد يمجزه إلا عن تحريك يديه . وقد وصف نفسه في هدم

العبارات : « سأصاف لك نفسى أيها القارىء على قدر استطاعتى . لقد كان جسمى حسن التكوين رغم قصر قامتى . ولكن العلة قصرتنى بقدم كامل . ورأسى أكبر قليلا مما يناسب جسمى . ووجهى ممتلىء ، أما جسدى فبيكل عظمى . وبصرى لا بأس به ، ولكن عينى بارزتان ، وإحدهما منخفضة عن الأخرى . وقد كونت ساقى وفخذى أول الأمر زاوية منفرجة ، ثم قائمة ، وأخيرا حادة ، وتكون فخذى وجسدى زاوية حادة أخرى ، وانحناء رأسى فوق معدتى يجعلنى أقرب إلى حرف Z . وقد انكش ذراعى كما انكش ساقى ، وكذلك فعلت أصابعى . جملة القول أننى خلاصة للتماسة البشرية (١٤٤) » .

وقد نمزى عن تماسته تلك بتأليفه « رواية مضحكة » عن متشرد (١٦٤٩) لقيت نجاحا كبيرا ، وبعرضه هزليات ساخرة صاخبة الفكاهة ، فاضحة النكتة . وأكرمه باريس لأنه احتفظ بمرجه وسط آلامه ، وأجرى عليه مازاران وأن المساوية معاشين فقد الحق فبهما لتأييده للفروند . كسب كثيرا ، وأنفق أكثر ، وتورط غير مرة فى الدين . وكان — وهو مسنود داخل صندوق يطل منه رأسه وذراعه — يرأس فى حيوية وعلم غزير صالونا من أشهر صالونات باريس . فلما تسكانرت ديونه ، كان يتقاضى ضيوفه بمن طعامهم ، ومع ذلك كانوا يأتون .

ترى من يتزوج رجلا كهذا ؟ فى سنة ١٦٥٢ ، كانت فرنسواز دويينيه التى بلغت السادسة عشرة من عمرها تعيش مع قريبة بخيلة ضنت بالإئناق عليها حتى لقد اعتزمت أن ترد فرنسواز إلى أحد أديار الراهبات . وقدم صديق هذه الفتاة إلى سكارون ، فاستقبلها فى كرم مؤلم ، وعرض أن يدفع نفقات طعامها وسكنها فى الدير ، لكى يمضيها من نذر الرهينة ، ولكنها أبت . وأخيرا عرض أن يتزوجها ، وأوضح لها بجلاء أنه لا يستطيع أن يطالبها بمقوق الزوج . فقبلته ، وخدمته ممرضة وسكرتيرة ، وقامت بدور للضيافة

٥ - قصة الحضارة

في صالونه ، وتظاهرت بأنها لا تسمع توريات الضيوف . وكان ذكاؤها يدهشهم حين تشترك في الحديث . وقد خلعت على اجتماعات سكارون درجة من الاحترام كلفت لجذب الأنسة دسكودرى ، ومدام دسفينيه بين آن وآخر ، وكان من زوار الصالون قبل ذلك نينون ، وجرامون ، وسانت — إفرمون . وفي رسائل نينون الماع إلى أن مدام سكارون لظقت من عذاب هذا الزواج البريء من الجنس بعلاقة غرام ، ولكن نينون ذكرت أيضاً أنها « كانت فاضلة لضعف عقلها . لقد أردت شفائها ، ولكنها كانت تحاف الله أكثر مما يجب (١١٥) » وكان وفاؤها لسكارون حديث باريس ، المتعطشة دون وعى منها لأمثلة لسلوك الكريم . ولما اشتد عليه شلله تيبست حتى أصابه وامتنعت حركتها ، فمعجز عن أن يقلب صفحة أو يمكس قلباً . فسكات تقرأ له ، وتكتب ما يمليه عليها ، وتقوم على كل حاجاته . وقبل أن يموت (١٦٦٠) كتب قبريته التي قال فيها :

« إن الرافد الآن هنا قد أثار من الشفقة أكثر مما أثار من الحسد ، وعانى ألف مرة عذاب الموت قبل أن يفقد الحياة . فيا أيها العابر لا تمحدث ضجيجاً وإياك إياك أن توقظه ، فهذه أول ليلة ينام فيها سكارون المسكين » .

ولم يخلف لزوجته غير الدائنين . وألقيت « الأرملة سكارون » في خضم الفقر مرة أخرى وهي بعد شابه في الخامسة والعشرين . والتهمت من الملكة الأم أن تجدد معاشها الذي ألغى ، فرتبت لها آن ألف جنيه في العام . واتخذت فرانسواز حجرة في دير ، وتواضعت في عيشها وملبسها ، وارتضت القيام بشتى المهام الصغيرة في البيوت الميسورة (١١٧) . وفي ١٦٦٧ أرسلت إليها مدام دمونتسبان وهي على وشك الوضع رسولا يطلب إليها أن تتلقى الوليد المنتظر وتربيته . ورفضت فرانسواز ، ولكنها قبلت حين أيد لويس الطلب . وظلت سنوات عديدة بعد ذلك تتلقى أطفال الملك وهم يخرجون إلى النور .

وتعلمت أن تحبهم ، وكانوا يرون فيها أما لهم ، أما الملك الذي ضحك منها أول الأمر لفرط احتشامها ، فقد انتهى إلى الإعجاب بها ، وأثر فيه ما بدا من حزنها حين مات أحد الأطفال رغم حدها المتصل عليه . وقال إنها تعرف كيف تحب ، وإنها لمتعة أن يكون إنسان موضع حبا (١١٨) . وفي ١٦٧٣ قررت شرعية الأطفال ، ولم يعد فرضا على مدام سكارون أن تتستر ، فقبلت في البلاط وصيفة لمدام دمونتسبان . ووهبها الملك ٢٠٠.٠٠٠ جنيه دعما لمركزها الجديد . فاشترت بالمال ضيعة في مانتون قرب شارتر . ولم تمس فيها قط ، ولكن الضيعة أعطتها لقبها جديدا ، وهو المركيزة دمانتون .

وكانت طفرة عنيفة لمن كانت تشكو الإملاق منذ عهد قريب جداً ، ولعلها أدارت رأسها حينئذ . وآلت على نفسها أن تنصح مدام دمونتسبان بأن تكف عن حياة الإنم التي تحياها . وساءت النصيحة مونتسبان ، وظنت أن مانتون تكيد لها للحلول محلها ، والحق أن لويس كان آتئذ ، في ١٦٥٧ ، قد أخذ يضيق بغضبات مونتسبان ، ويجد لذة في التحدث إلى المركيزة الجديدة ولعل الأستف بوسويه ، بالتواطؤ مع الملك ، أنذره بأنه سيحرم من تناول قربان القيامة ما لم يطرد محظيته . فأمرها بأن تبرح القصر ، ففعلت ، وتناول لويس القربان ، وتعف حينئذ واستحسن مدام دمانتون مسلكه ، دون أن يسكون لها قصد أمانى فيما يبدو (١١٩) ، لأنها رحلت بعد قليل مع صبي عليل (من أبناء مونتسبان) هو الدوق دمين تلمس له الشفاء في حمامات باريج الكبرى باقليم البرانس . وانطلق لويس إلى حرابه ، ثم عاد وقد اشتد به الجوع ، وضرب بإنذار بوسويه عرض الحائط ، ودعا مونتسبان لتعود إلى جناحها في فرساي . وهناك ارتقى بين ذراعيها المشتاقتين ، فحبلت ثانية .

أما مانتون فقد رحب بها الملك ومحظيته عند عودتها من البرانس مع الدوق الذي شفى مما ألم به ، ولكن راعها أن تراه غارقا في عدة علاقات

آئمة في وقت واحد . وفي ١٦٧٩ اختتم آتامه مع مونتسبان بتعيينها مشرفة على بيت الملكة - وكانت تلك إحدى الملاحظات الكثيرة التي جرح بها شامور ماري تريز . وثارت مونتسبان وبسكت ، ولكنه عزاها بالهبات السخية . وبعد عام تسلمت مانتنون وظيفة مماثلة - هي الوصيفة لمخدع زوجة ابنه البكر (الدوفينه) ، وكان الوحيد الباقي على قيد الحياة من أبنائه الشرعيين . وكثير تردد الملك الآن على الدوفينه للتحديث إلى مانتنون . وما من شك في أنه أراد أن يجعل للركيزة خلية له ، وأنها ردت عن نفسها - لا بل إنها ناشدته أن يكف عن جنوحه ويمود تائباً إلى الملكة (١٢٠) . فأذعن لها ولبوسويه ، وفي ١٦٨١ ، وبعد عشرين عاماً من مغازلة النساء ، أصبح زوجاً مثالياً . أما الملكة التي وطنت نفسها منذ أمد بعيد على تقبل خياناته ، بل على تقبل خليلاته ، فقد حظيت برضاء الملك ولكن لعامين فقط ، لأنها ماتت عام ١٦٨٣ .

وحن لويس أن مانتنون سترضى الآن بأن تكون خليلته ، ولكنها قابلته بصد لبق ، فهو الزواج وإلا فلا (١٢١) . وفي تاريخ لا يعرف على التحديد ، ولكنه على الأرجح في ١٦٨٤ ، تزوجها ، وكان في السابعة والأربعين ، وهي في الخمسين . وكان ارتباطا غير متكافئ ، لا يصيب الطرف الأدنى فيه أي رتبة جديدة ولا حقوق وراثية . ولقى مستشارو الملك عنقا في ثنيه عن إعطاء زوجه الحقوق الكاملة وتتويجها ملكة ، وذكروا له ما سيكون من تدمر الأسرة للمالكة والحاشية إذا وجدوا أنهم ينحنون احتراماً لمربية . وعليه لم يعلن نبأ الزواج ، وهناك من يظنون أن الزواج لم يتم قط . أما سان - سيمون ، للثبث أبداً بالنظام الطبقي ، فرأى أنه زواج مخيف (١٢٢) ، ولكنه كان خير رباط وأسمده للملك ، والوحيد الذي رعى عهده فيما يبدو . ولقد اقتضاه نصف قرن تقريباً أن يكتشف أن في حب المرأة زوجها ما يكفيه عن غيرها من النساء .

٨ - الملك يمضى إلى الحرب

كانت انتصارات ريشليوه ومازاران قد خلفت فرنسا أقوى دولة فى أوروبا . فالإمبراطورية أوهنها ما أصاب ألمانيا من إعياء وانقسام فضلا عن الخطر المتجدد عليها من العثمانيين . وأسبانيا أضعفها نضوب ذهبها ورجالها فى ثمانين عاما من الحرب العقيم التى خاضتها فى الأراضى المنخفضة . وانجلترا ، بعد ١٦٦٠ ، ربطتها بمجلة فرنسا المعونات السرية للملكها . كذلك كانت فرنسا فيما مضى بلداً منقسماً أصابه الضعف ، ولكن ما أتت سنة ١٦٦٧ حتى كانت جراح الفروند قد برئت ، وغدت فرنسا أمة موحدة . وقام أثناء ذلك رجال أفذاذ اضطلعوا بإعادة بناء الجيوش الفرنسية ، كلوفوا ، عبقرى التنظيم والضبط العسكريين ، وفوبان عبقرى التحصين وحرب الخنادق والحصار ، وكالفائدين للغوارين كونديه وتورين . وبدا للملك الشاب الذى يتملئه رجالة أن قد آن الأوان لتبلغ فرنسا حدودها الجغرافية الطبيعية — وهى الراين ، والألب ، والبرانس ، والبحر .

فليبدأ بالراين إذن . لقد كان الهولنديون يتسلطون عليه ، فلا بد إذن من إخضاعهم ، ثم ردهم بعد قليل إلى العقيدة التى كانت حليفا للملوك طوال ألف عام . فإذا بسطت فرنسا سلطاتها على مصاب النهر العظيم الكثيرة دانت لها كل أرض الراين ، وبسطت سلطانها على نصف التجارة الألمانية . ولكن الأراضى المنخفضة الأسبانية (بلجيكا) تقف عقبة فى الطريق ، فلا بد إذن من فتحها . وكان فيليب الرابع عند موته فى ١٦٦٥ قد خلف الأراضى المنخفضة الأسبانية لشارل الثانى ، ولده من زواجه الثانى . ورأى لويس ثغرة دبلوماسية ينفذ منها إلى هدفه . فاستند إلى عرف قديم أخذت به أيزو وبرابات ، يقضى بتفضيل أبناء الزوجة الأولى فى الميراث على أبناء الثانية . وكانت زوجة لويس بنت فيليب الرابع من زوجته الأولى ، وبمقتضى حق الأيلولة أو الوراثة هذا — *Ius devolutionis* — ترث مارى تيريز الأراضى

للنخضة الأسبانية. صحيح ان ماري نزلت عند زواجها عن حقها في الوراثة ، ولكن هذا التخلي كان مشروطاً بأداء أسبانيا صداقها لفرنسا ، وهو ٥٠٠,٠٠٠ كراون ذهبي (١٢٣). وهذا الصداق لم يؤد ، إذن . . . ورفضت أسبانيا هذا القياس المنطقي ، وعلى ذلك أعلن لويس حرب الأيلولة (الوراثة الأسبانية) . فلنترك مذكرات الملك للاعب الشطرنج هذا يميظ اللثام عن دوافعه :

« لقد أتاح لي موت ملك أسبانيا وحرب الأنجليز مع الهولنديين (١٦٦٥) في وقت واحد فرصتين هامتين لخوض الحرب : محاربة أسبانيا سميًا وراء حقوق آلتي ، ومحاربة إنجلترا دفاعًا عن الهولنديين . . . وسرني أن أرى في لحظة هاتين الحربين ميدانًا فسيحًا قد يتيح لي فرصًا عظيمة للتفوق . وكان الكثيرون من الرجال البواسل ، الذين آمنت فيهم التفاني في خدمتي ، يتوسلون إلي على الدوام أن أهنيء لهم الفرصة لإظهار بسالتهم . . . يضاف إلى هذا أنني مادمت مضطرا على أية حال للاحتفاظ بجيش كبير ، فإنه انفع لي ان التقى به في الأراضي المنخفضة من أن أطعمه على حسابي . . . وتحت ستار الحرب مع إنجلترا أستطيع ترتيب قواتي وهيئة مخبراتي (أي جهاز الجاسوسية) لأبدأ مغامرتي في هولندا بنجاح أعظم (١٢٤) . »

تلك هي النظرة المملكية إلى الحرب ، فقد تجعل الحرب بلد الملك أعظم مساحة أو أكثر أمنا أو أوفر دخلا ، وقد تفتح طرق الشهرة والمنعة ، وقد تتيح منصرفات للفرايز للتصارعة ، وقد تيسر للجيش الغالي النفقة أن يطعم على غذاء بلد أجنبي ، وقد تحسن موقف الدولة في الحرب القادمة . أما عن أرواح البشر التي ستحصدها الحرب ، فإن الناس لا بد أن يموتوا على أي حال وما أسخف أن يموت الرجل حتف أنه ، ويقضى بعملة بطيئة طويلة ، وأي ميته أفضل للرجال من الموت في خنادق المعركة على ساحة الجحد ، وفي سبيل الوطن ؟ وعليه ففي ٢٤ مايو ١٦٦٧ عبرت الجيوش الفرنسية إلى الأراضي المنخفضة الأسبانية . فلم تصادف مقاومة فعالة ، وكان عدد الفرنسيين ٥٠,٠٠٠ ر . . .

مقاتل ، والأسبان ٠٨٠٠٠ وما لبث الملك أن دخل شارلوا ، وتوريه ، وكورتريه ، ودويه ، وليل ، وكأ أنه يدخلها في موكب نصر ؛ وحسن فوبان المدن المفتوحة ، أما لوفوا فقد جهز المئذ في كل خطوة ؛ حتى الصحف الفضية للضباط في معسكراتهم أو خنادقهم . وضمت إلى فرنسا أرتوا ، وإينو ، وفلاندر اللونية ، واستغاثت أسبانيا بالامبراطور ليوبولد الأول ، فعرض لويس على ليوبولد قسمة الامبراطورية الأسبانية فيما بينهما ، ووافق ليوبولد ، فأمسك أي معونة عن أسبانيا . وبلغ من سهولة فتح فلاندر أن لويس هرع للاستيلاء على فرانش — كونتيه أيضاً ، وهو الإقليم الواقع حول بزاسون ، بين برجنديّة وسويسرا . وكان ولاية تتبع أسبانيا ، ولكنه شوكة في جنب فرنسا . وفي فبراير ١٦٦٨ هبط جيش فرنسي عدته عشرون ألف مقاتل على فرانش — كونتيه بقيادة كونديه ، وحالفه النصر في كل مكان ، لأن الرشا الفرنسية كانت قد ألانت القواد المحليين . وقاد لويس بنفسه حصار دول ، فسقطت بعد أربعة أيام . ولم تنقض ثلاثة أسابيع حتى استسلمت فرانش .. كونتيه كلها . فقفل إلى باريس مكلاً بالغار .

ولكنه كان قد أفسد على نفسه الأمر بتجاوزه الحدود ، ذلك أن « الأقاليم المتحدة » أقنعت السويد وإنجلترا بالانضمام إليها في حلف ثلاثي ضد فرنسا (يوليو ١٦٦٨) وتبينت الدول الثلاث أن حريتها السياسية أو التجارية ستذوى إذا امتد سلطان فرنسا إلى الراين . ورأى لويس أنه تعجل السير إلى هدفه ؛ ذلك أن الاتفاق السري الذي أبرمه مع ليوبولد كان ينص على أن تؤول إلى فرنسا كل الأراضي المنخفضة وفرانش — كونتيه عند موت شارل الثاني ملك أسبانيا ، وبدا أنه لن ينتفضي طام أو نحوه حتى يموت شارل العليل ، فلعله كان خيراً لفرنسا أن تقرّ حتى تقع الفرمة في حجرها بهدوء . وعرض لويس شروط الصلح على الحلف وأقنع دبلوماسيوه المنسكون إنجلترا والسويد ، فأنهيّت حرب الوراثة الأسبانية بمقتضى معاهدة إكس — لا — شابل (٢ مايو ١٦٦٨) وردت فرنسا فرانش — كونتيه إلى أسبانيا ، ولكنها احتفظت بشارلوا ، ودويه ، وتوريه ،

وأودينارد، وليل، وآرمانتيير؛ وكورتويه. وهكذا استبقى لويس لنفسه نصف الغنيمة.

ولكنه في ١٦٧٢ طأود زحفه على الراين، وتكشف الآن هدفه الحقيقي — وهو هولندا لافلاندر. وسلقى بنظرة على هذه المأساة في فصل لاحق من زاوية الهولنديين، وحسبنا القول بأن الهجوم كاد يصل إلى أمستردام ولاهاي قبل أن يقفه فتح سدود البحر. ولكن أوربا ثارت مرة أخرى على هذا التهديد الجديد لتوازن القوى. ففي أكتوبر ١٦٧٢ انضم الامبراطور ليوبولد إلى الأقاليم المتحدة وبراندنبورج في «حلف عظيم»، وانضمت إليه أسبانيا واللورين في ١٦٧٣، ثم الدنمرك والبالاتينات ودوقية برنزيك — لونيبورج في ١٦٧٤، وفي ذلك العام أكره البرلمان الانجليزي ملكه الموالى لفرنسا على إبرام الصلح مع الهولنديين.

وواجه لويس ببسالة هذا الانتقام الذي عوقبت به كبرياؤه. فجنى المزيد من الضرائب برغم شكواى كولبير من أنه يفقر بذلك فرنسا، وبني أسطولا، وزاد جيوشه إلى ١٨٠٠٠٠ مقاتل. وفي يونيو ١٦٧٤ وجه قوة منها لمحاصرة بزانسون ثانية، وما مضت ستة أسابيع حتى فتحت فرانش — كوفتيه من جديد. وخلال ذلك قاد تورين في حملة من أروع حملاته وأقساها عشرين ألفاً من جنوده إلى النصر على سبعين ألفاً من جنود الامبراطورية. ودحر البالاتينات واللورين وجزءاً من الإلثاس ليحول بين العدو وبين إطعام جنده، وتكرّر على طوال الراين ذلك الخراب الذي أحدثته من قبل حرب الثلاثين. وفي ٢٧ يوليو قتل تورين وهو يستطلع الأرض قرب سولزابخ في بادن، ودفن بأمر لويس في كنيسة سان — دني باحتفال أشبه بالاحتفال بدفن الملوك، وهو عليم بأن تلك الميتة الواحدة تعدل عشر هزائم. وحل «كونديه العظيم» محل تورين بعد ما حقق من انتصارات دامية في الأراضى المنخفضة، فطرد جيوش الامبراطورية من الإلثاس، ثم اعتكف ذلك «الأمير» بعد أن دوخته سنون من الشهوات والحرب، مؤثراً حياة الفلسفة

والحكيم في شانتى . واضطلع لويس الآن بالحملة في الأراضي المنخفضة ،
فحاصر فالنسين ، وكامبرى ، وسانتومير ، وغنت ، وإيبر ، واستولى عليها
كلها (١٦٧٧ — ٧٨) . وهلت فرنسا لملكها قائداً مظفراً .

ولكن العبء الذى أثقل به كاهل شعبه لم يمدحتملاً . فنشبت الثورات
في برردو وبرتنى ، وكان الفلاحون في جنوب فرنسا يتضورون جوعاً ،
والشعب في الدوفينيه يقتات على الخبز المصنوع من ثمر البلوط والجذور (١٢٥)
فلما عرض الهولنديون على لويس الصلح وقع معهم معاهدة (١١ أغسطس
١٦٧٨) ردت بمقتضاها للأقاليم المتحدة جميع الأراضي التى استولت عليها
فرنسا منها ، وخففت الرسوم التى أقصت للمنتجات الهولندية عن فرنسا .
وقد عوض عن هذه التنازلات بإلزام أسبانيا ، التى تفككت الآن أوصالها ،
بأن تتخلى له عن فرانش — كوتيه ، واثنى عشرة مدينة دفعت بحسود
فرنسا الشمالية الشرقية إلى داخل الأراضي المنخفضة الأسبانية . واحتفظت
فرنسا بمقتضى معاهدة مع الامبراطور بمدنيتين استراتيجيتين هما برايزاخ
وفرايبورج — ايم — برايسجاو ، وبقيت الاكواس والورين في قبضتها .
وكانت هاتان للمعاهدتان — نيميغن (١٦٧٨ — ٧٩) وسان — جرمان —
آن — ليه (١٦٧٩) نصراً للأقاليم المتحدة ، ولكنها لم تكونا هزيمة
للويس ، فلقد فاز على الامبراطورية وأسبانيا ، ووصل في أماكن — هنا
وهناك — إلى الراين الذى طالما انتهى الوصول إليه .

على أنه احتفظ بحججه الضخم رغم هذا الصلح ، موقناً أن الجيش القائم
قوة تعزز الدبلوماسية . واستناداً إلى تلك القوة من ورأه ، واستغلاً
عجزياً لا تصرف الامبراطور إلى قتال الصنابيين الراضين ، أنشأ في الاكواس ،
وفرانس — كوتيه ، وبرائسجاو « غرفاً لإعادة الاتحاد » ، تطالب ببعض
مناطق الحدود التى كانت تمتلكها فيما مضى ، واحتل الجنود الفرنسيون
هذه المناطق ، وأغرقت مدينة ستراسبورج العظيمة ، التى لين موقعها
إغداق الرشا عليهم ، بأن تعترف بلويس ملكاً عليها (١٦٨١) . وفى نفس

العام ، وبوسائل مماثلة ، أغرى دوق ميلانو بأن ينزل لفرنسا عن مدينة كازالى وحصنها ، وكانت تتحكم في الطريق بين سافوا وميلانو^(*) . فلما تلسكات أسبانيا في تسليم مدن الأراضى المنخفضة ، أرسل لويس جيوشه من جديد إلى فلاندر ويرايات ، وتغلب على المقاومة بقذفه البلاد بالمدافع دون تمييز ، وابتلع في طريقه دوقية لسكسمبورج (يونيو ١٦٨٤) . واعترفت أسبانيا والامبراطور مؤقتاً بهذه الفتوح بمقتضى هدنة ريجنسبورج (١٥ أغسطس) ، لأن العثمانيين كانوا يحاصرون فيينا آنشد . وبفضل تحالفه مع ناخب كولونيا مد لويس في الواقع سلطته إلى الراين . فيتحقق بهذا جزء من طموح فرنسا للوصول إلى حدودها الطبيعية .

ذلك كان الأوج الذى بلغه « الملك الشمس » فلم يحدث أن ظفرت فرنسا بمثل هذا الاتساع في الرقعة ولا بمثل هذه السطوة منذ عهد شارلمان . وأقيمت للمهرجانات الضخمة العالية احتفالاً بانتصارات الملك . ولقبه مجلس باريس رسمياً بلويس العظيم . (١٦٨٠) ورسمه لبرون في صورة إله على أقبية فرساي ، وزعم لاهوتى أن انتصارات لويس أثبتت وجود الله (١٢٧) . أما جماهير الشعب فقد مجدت حاكمها وسط فقرها المدقع ، وتاهت فخراً بمنعته الواضحة ، وأطراه حتى الأجانب ، لأنهم رأوا في حملاته شيئاً من المنطق الجغرافى ، وحياء الفيلسوف لايدنيز « ذلك الأمير العظيم الذى هو مفخرة زماننا غسير منازع ، والذى ستتوق الأجيال القادمة إلى نظيره عبثاً (١٧٨) » ، وإلى الشمال من جبال الألب والبرانس ، وإلى الغرب من القستولا ، بدأت كل أوروبا للثقفة تتحدث بلغته وتقلد بلاطه وفنونه وأساليبه . لقد بلغت الشمس الأوج .

(*) لمان « الرجل ذا القناع الحديدى » هو الكونت ماتيولى الذى باع لاسبانيا (١٦٧٩) سر المفاوضات بين لويس ودوق ميلانو . وقد تكهن البعض بأنه هو ذاته ماركيولى ، السجين الغامض الذى أخفى وجهه خلف قناع من المخمل (لا الحديد) ، والذى مات في الباستيل في ١٧٠٣ (١٢٦)

الفصل الثاني

بوتقة الإيمان

١٦٤٣ - ١٧١٥

١ - الملك والكنيسة

ينزع المؤرخ - كما ينزع الصحفي - إلى فقدان الخلفية العادية للعصر وسط الواجهة المثيرة للصورة التي يرسمها ، لأنه يعلم أن قراءه سيستطيون الشاذ ويحبون تجسيد العمليات والأحداث . ولكن وراء أحكام فرنسا ، ووزرائها ، وحاشيتها ، ومحظياتها ، ومقاتليها ، كان هناك رجال ونساء يتنافسون على الرزق والرفقاء ، يزجرون أبناءهم ويحبونهم ، يأتمنون ويعترفون بأنهم ، يلهون ويتشاجرون ، يذهبون إلى أصحابهم متناقلين وإلى المواخير متسترين ، وإلى الصلاة متواضعين متذللين . وكان طلب الخلاص الأبدي يقطع بين الحين والحين كفاح البقاء اليومي ، والحلم بالجنة ينتعش كلما ذبلت شهوة الحياة ، وصحن الكنيسة الظليل يريح هنيئة من وطيس الصراع . وكانت أساطير المعجزات شعر الجماهير ، والقداس مسرحية خلاصهم الممزجة ، وسمت الرسالة التي يحملها الكاهن بقلوب الفقراء المهزومين ولو كان هو ذاته رجلاً دينوياً جشعاً . وظلت الكنيسة المنافس للدولة ركيزة للمجتمع والسلطة ، لأنه بالرجاء أذعن الناس في صبر للممل الشاق ، والقانون ، والحرب .

وعرف كبار الأكليروس الكاثوليك أهميتهم في معجزة النظام ، وشاركوا النبلاء والملك موارد الأمة وبهاء البلاط . وخالط الأساقفة ورؤساء الأساقفة في ألفة مهذبة أعلام القوم من طراز كوندية ، ومونبسنبيه ،

بوسميينيه ، وداعب المئات من الآباء — أنصاف المكرسين ، أنصاف المتزوجين — داعبوا النساء والأفكار . على أنه يمكن القول بوجه عام أن عقلية رجال الأكليروس الكاثوليك وأخلاقهم كانت خيراً مما عهدناه خلال قرون قبل ذلك ، ربما بحافظ من منافسة القساوسة الهيجونوت^(١) .

لم تسكن أديار الراهبات « مراتع الرذيلة » التي صورها جنون خالق الأساطير ، المنبعث من الكراهية للدين . فالكثير منها كان صوامع للورع الصادق ، الزاهد أحياناً ، كدير الكرمليات الذي اعتكفت فيه لويزدالفا ليلير ، وبعضها الآخر كان ملاذاً لشابات الأسر الكريمة اللاتي لم يجدن أباً وهن لهن أزواجاً أو مهوراً ، أو اللاتي افتقرن إثمًا ، أو أسأن إلى حاكم أو ملك . في أديار كهذه لم ير نزيلاتها حرجاً في استقبال زائر من العالم الخارجي ، أو في مرافقة بعضهم البعض ، أو في قراءة الأدب الديوى ، أو في تخفيف سأمهن بلعب البليارد أو الورق . وبإصلاح دير من هذه جعلت جاكلين آرنو دير البور — رويال أشهر دير في تاريخ فرنسا .

على أننا لا نستطيع مثل هذا الحديث المترفق عن الطرق الديرية ، فالكثير منها أرخى نظمه ، وطاش حياة التبطل ، والعبادة الصورية ، والالحاف في التسول . وقد أصلح « أرمان جان درانسيه » دير نوردام دلا تراب بنورمنديا ، وأسس الطريقة الترابية الصارمة التي مازالت حية في صمت . ودخل اليسوعيون دخولاً أنشط في حياة فرنسا وتاريخها . كانوا في بداية القرن السابع عشر موضع توجس وريبة باعتبارهم مدافعين عن قتل الملك ، أما في نهاية القرن فقد كانوا كهنة اعتراف ومرشدين للملك — ثم أنهم كانوا خبراء في علم النفس . فحين أسست الراهبة مارجريت ماري ألاكوك بوحى من رؤيا صوفية تراوت لها (١٦٧٥) جمعية منقطمة للعبادة العلنية لـ « قلب يسوع المقدس » ، شجع اليسوعيون الحركة باعتبارها منقذاً وحافظاً لتقوى الجماهير . وفي الوقت نفسه يسروا الدين للخطاة إذسلوا بأن

الخطيئة في طبيعة البشر ، ووضعوا علم « الإفتاء » سبيلاً للتخفيف من عسر الوصايا العشر وللتلطيف من عصاب تأنيب الضمير ، وما لبث أن اشتد الطلب عليهم آباء اعتراف للخطاة ، واكتسبوا سلطة « مرشدي الضمائر » ، لاسيما بين النساء اللاتي سدن المجتمع الفرنسي ، واللاتي أثرن أحياناً في السياسة القومية للبلاد .

ولم يكن لكلمة « الافتاء » في القرن السابع عشر ذلك المدلول المبين الذي الصقته بها رسائل بسكال الأقليمية . فقد كان يفترض في كل قسيس ، بوصفه أب اعتراف أو مرشداً روحياً ، أن يعرف بالضبط ما الذي يجب أن يعتبر خطيئة مميتة ، أو خطيئة هينة ، أو لا خطيئة على الإطلاق ، وكان عليه أن يستمد لتطبيق علمه ، والملازمة بين حكمه ، ونصحه ، والعقوبة الكنسية التي يشير بها ، وبين الحالة المائلة أمامه (Casus) . وكان معلوم الناموس اليهود قد طوروا هذا الفن ، في التمييزات الخلقية ، بتفصيل مستفيض في الأجزاء القانونية من التلمود ، وحذا حذوهم التشريع والطب النفسى المصريان . وقبل أن تنشأ جماعة اليسوعيون بزمن مديد ، وضع اللاهوتيون الكاثوليك الأبحاث الضخمة في الافتاء لإرشاد السكاهن في أمر للبدأ الخلقى والتطبيق الاعترافى . ففي أى الحالات مثلاً يجوز أن يبدى على حرفية القانون الخلقى روحه أو قصده ؟ ومتى يجوز للإنسان أن يكذب أو يسرق أو يقتل ، أو يحنث بوعده حنثاً معقولاً ، أو ينتهك يمينا ، أو حتى ينكر العقيدة ؟

وطالب بعض المفتين بتفسير القانون الخلقى تفسيراً صارماً ، ورأوا أن الصرامة أجدى في المدى الطويل من التساهل . ولكن غير هؤلاء — ولا سيما اليسوعيين مولينا ، وإسكوبار ، وتوليدو ، وبوزنباوم — حذبوا دستوراً أخلاقياً متسامحاً ، وحضوا على ضرورة التماس العذر للطبيعة البشرية ، ومؤثرات البيئة ، والجهل بالقانون ، والمشقة البالغة في الامتثال الحرفى للقانون ، وعنف سوراة العاطفة عنفاً شبيهاً بالجنون ، وسائر الظروف

التي تعطل حربة الإرادة. وتيسيرا لهذه الأخلاقيات اللينة، وضع اليسوعيون مبدأ الترجيح — ومؤداه أنه إذا استحسن حجة معروف في اللاهوت اخلق رأيا بعينه، جاز لكاهن الاعتراف أن يحكم طبقاً لهذا الرأي إذا استصوب ذلك، ولو عارضته كثرة الخبراء. (وكانت كلمة Probabilia تعني في ذلك الوقت للمستحسن، أو الذي يسمع بالأستحسان^(٢)). يضاف إلى هذا، في رأى بعض المفتين اليسوعيين، أنه من اللباح أحيانا أن يكذب الإنسان، أو يمك من قول الحق بـ « تحفظ عقلي »، مثال ذلك أن للمسيحي الأسير، إذا أكره على الخيار بين الإسلام والموت، أن يتظاهر بقبول الإسلام دون أن يحسب ذلك خطيئة عليه. ثم إن أخلاقية حمل ما، في رأى إسكوبار، ليست في الفعل نفسه، الذي ليس في ذاته أخلاقيا أولا أخلاقيا، بل في نية الفاعل الخلقية، فليس هناك خطيئة مالم يكن هناك خروج واع، مختار، عن القامون الخلق.

والكثير من إفتاء اليسوعيين كان توفيقا معقولا رحيا بين القواعد التي يغلب عليها زهد العصر الوسيط، وبين مجتمع اكتشف مشروعية اللذة. ولكن اليسوعيين في فرنسا بصفة خاصة، وفي إيطاليا بدرجة أقل، طوروا الافتاء حتى بلغوا به من التسامح مع ضعف الطبيعة البشرية مبنا حمل رجالا جادين كبسكال في باريس، وساربي في البندقية، وكثيراً من اللاهوتيين الكاثوليك، ومنهم عدة يسوعيين^(٣) — حمل هؤلاء جميعا على الاحتجاج على ما رأوا فيه استسلاما من المسيحية لخطيئة. وصدم هذا التراخي اليسوعي مع العالم والجسد مشاعر هيجونوت فرنسا الذين ورنوا دستور كالفن الخلق الصارم. وقامت حركة قوية داخل الكاثوليكية ذاتها — وهي الجانسنية — فرفت في دير البور — رويال لواء أخلاقية شبه كالفنية، في حرب مناهضة لليسوعيين أهاجت فراسا والأدب الفرانسي قرنا كاملا. وجرت هذه الحرب لويس الرابع عشر إلى المعركة، لأن كهنة اعترافه كانوا يسوعيين وتطبيقه للدين لم يسكن مترمنا. وفي ١٦٧٤ اضطلع الأب لاهيز بالأشراف

على ضمير الملك ، وقد وصفه فولتير بأنه « رجل هادى الطبع يسهل عنده التوفيق دائما^(٤) » وقد شغل المركز المئتين وثلاثين سنة ، غفر خلالها كل شيء وحظى بمحبة كل إنسان . وقد قال لويس عنه « بلغ من طيبته أننى كنت أحيانا ألومه عليها^(٥) » . ولكنه بطريقته الهادئة الصابرة كان له تأثير بالغ على الملك ، وأمان على توجيهه إلى الاقتصار على امرأة واحدة آخر المطاف ، وإلى طاعة البابا .

ذلك أن لويس لم يكن دائما « بابويا » صادقا . كان متدينا على طريقته الرسمية ، ونذر أن قصر في حضور القداس اليومى^(٦) . قال لولده في مذكراته :

« . . . واصلت تدريبات التقوى التى نشأتنى عليها أمى ، من جهة لأشكر الله على كل الحظ الطيب الذى نلته ، ومن جهة لأكسب محبة شعبي . . . والحق يا بنى أننا لا نفتقر إلى عرفان الجليل والأناصاف نجس ، بل إلى الحكمة والفطنة أيضا ، حين نقصر فى عبادته تعالى ، الذى لسنا إلا نوابا له . وما خضوعنا له إلا القاعدة والمثل للخضوع الذى نستحقه^(٧) » .

على أن هذا لم يشمل الخضوع للبابوية . ذلك أن لويس ورث التقليد « العالى » بمقتضى تفويض بورج البرجائى (١٤٨٣) وكونكوردا فرنسا الأولى (١٥١٦) — ذلك التقليد الذى أقر حق ملوك فرنسا فى تعيين أساقفه فرنسا ورؤساء أديارها ، وتحديد دخولهم ، والتعيين فى جميع الوظائف الكنسية ذات الدخول فى الفترة بين موت الأسقف وتنصيب خلفه . وقد آمن لويس أنه خليفة الله أو ممثله فى فرنسا ، وأن خضوعه للبابا (بوصفه هو أيضا خليفة الله) يجب أن يقصر على شئون العقيدة والأخلاق ، وأن على رجال الأكليروس الفرنسيين أن يطيعوا الملك فى كل أمر يتصل بالدولة الفرنسية .

واستندكر فريق من الأكليروس هذه الدهوى — وهم المناصرون لسيادة

البابوية المطلقة - وأيدوا سلطان البابوات المطلق على الملوك والمجامع وتميين الأساقفة ، ولكن الغالبية - ومم الحزب الغالى - دافعوا عن استقلال الملك الكامل فى الأمور الزمنية ، وأنكروا عصمة البابا إلا إذا وافق عليها مجمع مسكونى ، ورأوا فى الرومان من سيطرة روما منفعة للأكليروس الفرنسى . وصرح أمير كونديه أن من رأيه أنه لو طاب للملك أن يتحول إلى المذهب البروتستنتى لكان رجال الأكليروس الفرنسى أول من يتبعه (٨) .

وفى ١٦٦٣ أصدرت السوربون - - زهى كلية اللاهوت فى جامعة باريس - ست مواد تؤكد الموقف الغالى . واتخذت « البرلمانات » الفرنسية ذات الموقف ، وأيدت لويس فى دعواه بحقه فى أن يقرر أى المراسيم البابوية ينبغى نشره وقبوله فى فرنسا . وفى ١٦٧٨ احتج البابا أنوسنت السادس على هذه النزعة الغالية ، وحرّم رئيس أساقفة تولوز لأنه عزل أسقفا طوم هذه النزعة . ودعا الملك مجعما من الأكليروس ، كلمهم تقريبا من اختياره . وفى مارس ١٦٨٢ أجاد المجمع تأكيد مواد السوربون الست ، ووضع لنفسه المواد الأربع الشهيرة ، التى كادت تفصل الكنيسة الفرنسية عن روما :

١ - للبابا سلطان فى الأمور الروحية ، وليس له سلطان عزل الأمراء أو حل رعاياهم من طاعتهم .

٢ - للمجامع المسكونية سلطان فوق سلطان البابا .

٣ - الحريات التقليدية للكنيسة الفرنسية لا يجوز انتهاكها .

٤ - لا عصمة للبابا إلا بموافقة مجمع الأساقفة .

وأعلن أنوسنت بطلان قرارات المجمع ، ورفض التنصيب القاتونى لجميع الأساقفة الجدد الذين وافقوا على المواد . وإذ كان لويس لا يمين إلا أمثال هؤلاء المرشحين ، فقد شغرت فى ١٦٨٨ نحو خمس وثلاثين أسقفية من أساقفتها القاتونيين . على أن الشيخوخة ومدام دمانتون كانا قد الانا جانب الملك ، ثم أراحه الموت من ذلك البابا العنيد . وفى ١٦٩٣ - مع لويس

لمرشحيه إن ينكروا المواد ، وأقر البابا أنوسنت الثاني عشر حق الملك في
القيينات الأسقفية ، وأصبح لويس من جديد « الملك المسيحي جداً »
. Rex Christianissimus

٢- البور - رويال : ١٢٠٤ - ١٦٢٦

كانت الحرب القديمة بين الكنيسة والدولة أهون الدرامات الدينية الثلاث
التي اضطرم بها حكم لويس . فقد فاقها عمقاً ذلك الصراع الذي احتدم بين
الكاثوليكية السنية التي دانت بها الدولة والأكليروس ، وكاثوليكية
الجانسفين والبور — رويال القريبة من البروتستنتية ، وكان أعمق هذه
المسرحيات وأشدّها فجيعة هو القضاء على الهيغونوت في فرنسا . ولكن
ما هو البور — رويال هذا ، ولم هذا الضجيج الكثير من حوله في التاريخ
الفرنسي ؟ لقد كان ديراً لراهبات الطريقة السترسية Cistercian على نحو
سنة عشر ميلاً من باريس وستة أميال من فرساي ، في مكان وطىء تكنتفه
المستنقعات ، وصفته مدام دسفينيه بأنه « واد رهيب ، هو بالضبط
المكان الذي يجد فيه الإنسان خلاصاً (٩) » . أسس حوالي ١٢٠٤ ، ونجا
بشق الانفس من التقلبات الكثيرة التي تعرض لها في حرب مائة العام
والحروب الدينية . وقد اضمحل نظامه وتناقضت راهباته ، ولعل الدير كان
يحتفى عن الاضطرار لولا أنه خضع لرأسه جاكلين آرنو ، وجرّد للدفاع عنه
قلم بليز بسكال .

لقد صنع أنطوان آرنو الأول (١٥٦٠ — ١٦١٩) التاريخ ببلاغته
ووفرة ذريته . ففي ١٥٩٣ ، بعد أن حاول باريير اغتيال هنري الرابع ،
وجه آرنو إلى برلمان باريس خطاباً غاضباً طالب فيه بطرد اليسوعيين من فرنسا .
ولم يصتمعوا عنه بعدها ، وكانوا ينظرون بعين نقادة منذرة بالشر إلى مآثرهم
به أسرته في البور — رويال . وكان لأربعة على الأقل من بين أبنائه —
البالغين نيماً وعشرين — دور في قصة ذلك الدير . فقد عينت جاكلين آرنو
٦ — قصة الحضارة

مساعدة لرئيسة دير البور — رويال وهي في السابعة (١٥٩٨) وبعد عام أصبحت شقيقتها جان ، البالغة ستة أعوام ، رئيسة لدير سان — سير . وكان التعيينان بأمر هنرى الرابع ، وثبتهما مرسومان بابويان أمكن الحصول عليهما بتزيف صمر القناتين (١٠) . ولعل أباهما الخمس لابنتيه هاتين الوظيفتين بديلا عن العثور على زوجين ومهرين لهما .

فلما أصبحت جا كلين ، بوصفها الأم آنجليك ، رئيسة إسمية لدير — رويال (١٦٠٢) لم تجد غير أرخى النظم بين راهباته الثلاث عشرة ، فقد كات كل منهن تحتفظ بثروتها ، وتكشف شعرها ، وتستعمل مستحضرات التجميل ، وتتبع أحدث الأزياء . وقل أن تناولن الأسرار المقدسة ، ولم يستمن لأكثر من سبع عظات خلال ثلاثين عاما (١١) . فلما ازداد دوى الرئيسة الشابة بالحياة التى أزمها إياها أبواها ، سخطت ونوت الهروب (١٦٠٧) . « فسكرت فى مغادرة البور — رويال والعودة إلى العالم — دون إحاطة أبى أو أمى بنيتى ، لأهرب من هذا النير الذى لا يطاق ، ولأزوج » . (١٢) ومرضت ، فحملت إلى بيتها ، وهناك مرضتها أمها بكثير من الرعاية الحانية حتى طادت إلى البور — رويال عقب إبلاها وهى مصممة على الوفاء بندورها الديرية حبا فى أمها . على أنها أوصت بمشء من عظم الحوت لتحفظ لقوامها بمخافته (١٣) . وظلت تخفى نفورها من الحياة الدينية إلى أن سمعت فى عيد القيامة عام ١٦٠٨ عظة ألقاها راهب كبوشى عن آلام المسيح ، وكانت يومها فى ميعة الصبا . قالت تروى الحدث فيما بعد « خلال هذه العظة لمسنى الله لمسة جعلتنى أحس منذ تلك اللحظة بأننى أسعد حالا فى حياة الرهبنة . ولا أدرى أى شىء كنت أحجم عن فعله لله إذا واصل تعالى هذه الحركة التى منحتنى إياها نعمته (١٤) » . ذلك ، فى لغتها ، كان « أول عمل للنعمة » (أى اللطف الإلهى) .

وفى أول نوفمبر من ذلك العام ملأها عظة أخرى — هى « نأى أعمال

النعمة ، شعورا بالخزي من شدة تراخيها وتراخي راهباتها في الوفاء بما
يذرن من فقر وعزلة . وإذ كانت ممزفة بين حبها للراهبات ورغبتها في فرض
نظام الطريقة السسترسية ، فقد رأت عليها الكآبة ، ومارست ألوانا من
التكشف لم يقو عليها جسدها ، فأصابها الحمى . ولا بد أنها كانت لطيفة محببة
إلى النفوس ، وآية ذلك أنه حين سألتها الراهبات عن السر في حزنها ،
وصارحتهن برغبتها في أن يرجعن إلى التزام نظام رهبتهن بحذافيره ، ارتضين
حسكها ، وجمعن كل ممتلكاتهن الخاصة ، وأخذن المهد على أنفسهن
بالمقر الدائم .

أما الخطوة الثانية ، وهي اعتزال العالم ، فسكانت أشد إيلا ما . فقد حظرت
الأم أنجليك على الراهبات أن يغادرن الدير ، أو يستقبلن الزوار — حتى
أقرب الأقرباء — دون إذن صريح ، فإذا استقبلتهم في قاعة الاستقبال
دون غيرها . وشكون مما سيكلفهن هذا من عنت شديد . ولكن تعطين
القدوة الحسنة المشددة لعزائمن صممت ألا ترى أبويها في زيارتهما التالية
إلا من نافذة ذات شبك أو « شيش » في الباب الفاصل بين قاعة الاستقبال
وحجرات الدير . فلما حضر أبواها راعهما أنها لا تريد التحدث إليهما إلا
من خلال هذا الشباك . . وأصبح « يوم الغباك » *journee du guichet*
(٢٥ سبتمبر ١٦٠٩) يوما مشهورا في الأدب الدائر حول البور —
رويال .

وهذا غضب الأسرة المقصاة ، وتأثر أفرادها بورع الأم أنجليك (التي
بلغت الآن الثامنة عشرة) تأثرا حمل الفتاة تلو الفتاة من بيت آرنو على دخول
البور — رويال . ففي ١٦١٨ ، أخذت شقيقتها آن أوجني على نفسها عهد
الرهينة . ولحققتها شقيقات أخريات بمدقليل — كاترين ، وماري ، ومادليز .
وفي ١٦٢٩ ، جئت أمهن الأرملة عند قدمي الأم أنجليك ملتزمة قبولها مبتدئة
في الرهينة ثم أخذت المهد في الوقت المناسب ، وطاشت في تواضع وسعادة

تحت رئاسة ابنتها ، وراحت تدعوها منذ الآن بالأم . وقد حمدت الله وهي
تحتضر (١٦٤١) لأنها قدمت ستاً من بناتها للحياة الدينية . ودخلت خمس
من حفيداتها البور — رويال في فترة لاحقة . وأصبح ابنها رويير وثلاثة
من حفيدتها « متوحدين » هناك ، وأصبح ألمع أبنائها ، وهو انطوان
آرنو الثاني ، عضو السوربون ، فيلسوف البور — رويال ولاهوتيه . وإنما
ليأخذنا العجب لهذه الخصوبة ، ولا نملك غير الاحترام لمثل هذا العمق في
التعبد والولاء والإيمان (*) .

وقادت الأم أنجليك قطيعها خطوة بخطوة عوداً إلى نظام الرهبنة
السترسية الكامل فحفظت الراهبات ، اللاتي بلغ عددهن الآن ستاً وثلاثين ،
جميع الأصوام بدقة تامة ، ومارسن الصمت فترات طويلة ، واستيقظن في
الثانية صباحاً لترتيل تسبحة الصباح ، ووزعن الصدقات على فقراء الجيران
من مألن المشترك . وسرت الإصلاحات من البور — رويال ، وأرسات
الراهبات اللاتي دربن فيه الأديار في جميع أرجاء فرنسا لخصها على العودة إلى
سابق نظمها . من ذلك أن ديرافى موبويسون كان شديد الإنحلال ،
وقد استعمله هنرى الرابع من قبل مكان لقاء مع خليلته جابرييل دستريه ،
وكانت رئيسته محاطة ببناتها غير الشرعيات ، وكان الراهبات يغادرن ديرهن
دون قيد ليلتين ويراقصن رهبان دير مجاور (١٦) . وفي ١٦١٨ طلب رؤساء
الأم أنجليك إليها أن تحمل محل رئيسة دير موبويسون ، ومكثت هناك خمس
سنوات ، فلما طادت إلى البور — رويال تبعتها اثنتان وثلاثون راهبة إلى
الدير الأم الذي انبعث منه نور الإصلاح .

وفي ١٦٢٦ ظهر وباء الملاريا في البور — رويال ، وإذ نبه بعضهم أنجليك

(*) لاحظ سانت — بيغ أن « عدة شابات من بينهن راهبات البور — رويال كن
قد أصبن بالجدري فتشوهت وجوههن في سن مبكرة » ، وأضاف في خبث « لا أريد أن
أقول أننا لا نهب الله إلا ما فقد قيمته في هذه الدنيا » (١٥) .

إلى مافى جوالدير الرطب من خطر ، فإنها انتقلت مع راهباتها إلى منزل
بباريس . وهناك ، وتمت تأثير الجانسنية ، دخلن معركتهن التاريخية مع
اليسوعيين والملك . وسرطان ما احتل « المتوحدون » المباني المهجورة
المتهدمة في البور - رويال - دى - شان ، وكانوا رجالا رغبوا في أن
يحيوا حياة أقرب إلى الحياة الديرية وان لم يندروا أنفسهم المرهينة . ووفد
على المسكان نهر من آل آرنو - أنطوان الثاني ، وأخوه روبير آرنوداندي ،
وابنا أختيه أنطوان لوميتير وسيمون لوميتير دسريكور ، وحفيده إسحاق
لموى ساسي ، وانضم إليهم بعض رجال الكنيسة ، أمثال بيير نيكول
وأنطوان سانجلان ، لابل بعض النبلاء أمثال الدوق دلون والبارون
دبرنشاو . وراحوا يصرفون معاميا المستنقعات ، ويحفرون الخنادق ،
ويرمون المباني ، ويمنون بالبساتين والحدائق . وكانوا - جماعة أوفرادى -
يمارسون ألوانا من الفنون ، ويصومون ، ويرتلون ، ويصلون ، ويلبسون
لباس الفلاحين ، ويمتنعون عن تدفئة غرفهم في البرد القارس . وكانوا
يدرسون الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة ، وقد ألفوا كتبها
تعبدا وتمقه ، وأحد هذه الكتب ، واسمه « فن التفكير » ، وهو من
تأليف نيكول وآرنو الصغير ، ظل كتبيا محببا في المنطق حتى
القرن العشرين .

وفي ١٦٣٨ افتتح المتوحدون « مدارس صغيرة » دعوا إليها أطفالا
اختاروهم من سن التاسعة أو العاشرة ، وعلموهم الفرنسية ، واللاتينية ،
واليونانية ، والنواحي السنية في فلسفة ديكارت . وطلب إليهم أن يجتنبوا
الرقص والمسرح (وكلاهما وافق عليه اليسوعيون) ، وان يصلوا كثيرا ،
ولكن ليس للقديسين ، ولم تكن هناك صور دينية في الكنيسة الصغيرة
التي يسمعون فيها القداس . وفي البور - رويال - دى - شان ، والبور -
درويال - د - هاري ، أصبح اعتراض تقوى آل آرنو على قساد البلاط ،

اعتراضاً آخر من اللاهوت والأخلاق الجانسنية الصارمة على تيسير اليسوعيين للمسيحية حتى توأم الطبيعة البشرية .

٣ _ الجانسنيون واليسوعيون

كان كورنيليس جانسن هولنديا ، ولد في ولاية أوترخت لأبوين كاثوليكين ، ولكنه تأثر تأثراً عميقاً باللاهوت الأوغسطيني الذي دان به جيرانه الكالفنيون . فلما التحق بجامعة لوفان الكاثوليكية (١٦٠٢) وجدها مضطربة بمجدل عنيف بين الحزب اليسوعي أو السكولاستي ، وشيعة تتبع الآراء الأوغسطينية التي نادى بها ميخائيل بابوس في الجبرية والنعمة الإلهية . وأنحاز جانسن إلى الأوغسطينيين . وفي الفترة بين دراسته السابقة للتخرج وعمله أستاذاً ، قبل جانسن دعوة وجهها إليه زميل يدهى جاف ودورجييه دهوران ليعيش معه في بايون . وقد درسا القديس بولس والقديس أوغسطين ، واتفقا على أن خير سبيل للدفاع عن الكاثوليكية ضد الكالفنيين الهولنديين والهييجونوت الفرنسيين هو الاقتداء بأوغسطين في تشديده على النعمة الإلهية والجبرية ، وتأصيل دستور أخلاق صارم بين الأكايروس والملمانيين الكاثوليك ، يفضح الانحلال المنتشر في البلاط والأديار ، كما يفضح أخلاقيات اليسوعيين الهينة الالينة .

وفي ١٦١٦ ، بينما كان جانسن رئيساً لبيت للطلاب الهولنديين في لوفان ، هاجم لاهوت اليسوعيين في حرية الإرادة ، وبشر ببيورتائية صوفية قريبة من التقوية التي كانت بسبيل التشكل في هولندا ، وإنجلترا ، وألمانيا . ثم واصل الحرب أستاذاً لتفسير الكتاب المقدس بلوفان ، وأسسها لأبير . وترك عند موته (١٦٣٨) رسالة كبيرة — لم ينجزها تماماً — عنوانها «أوغسطينوس» ، ما لبثت بعد نشرها في ١٦٤٠ أن أصبحت البرنامج المقائدي

لبور — رويال ، ومثار الجدل في اللاهوت الكاثوليكي الفرنسى طوال قرن تقريبا .

ومع أن الكتاب اختتم بلفظة خضوع لكنيسة روما ، فإن كالفينسى الأراضى المنخفضة رحبوا به بوصفه لب الكالفنية وجوهرها (١٧) . فقد قبل جانسن الجبرية قبولا تاما كما قبلها أوغسطين ولوثر وكالفن من قبل . حتى قبل أن يخلق الله العالم ، اختار تعالى أولئك الرجال والنساء الذين ينبغى أن يخلصوا ، وقرر من ينبغى أن يهلكوا ؛ وأعمال البشر الصالحة ، وإن تكن ذات قيمة ، لا يمكن إن تسكبهم الخلاص دون معونة من النعمة الإلهية ، وقايلون هم الذين سيخلصون حتى بين القلة الصالحة . أما الكنيسة الكاثوليكية فلم تكن أنسكرت صراحة جبرية القديس بولس والقديس أوغسطين ، ولكنها تركتها تتوارى في خلفية تعليمها ، لصعوبة التوفيق بينها وبين حرية الإرادة ، التي بدا أنها شرط لاغنى عنه — منطقيا — للمسئولية الخلقية ولفكرة الخطيئة . ولكن إرادة الإنسان في رأى جانسن ليست حرة ، فقد فقدت حريتها بخطيئة آدم . وأصبحت طبيعته الإنسان الآن فاسدة فسادا يمجزه عن تخليص نفسه ، ولا يمكن أن يخلصه غير نعمة الله التي اكتسبها بموت المسيح . أما دفاع اليسوعيين عن حرية الإرادة فقد بدا لجانسن أنه يعالى في دور الأعمال الصالحة في نيل الخلاص ، ويجعل موت المسيح ، ذلك الموت الذى افتدى الخطاة ، أمراً لا ضرورة له تقريبا . ثم به إلى أننا يجب ألا نأخذ المنطق مأخذ الجد الشديد ، قالعقل ملكة أدنى بكثير من الإيمان الواثق المسلم ، تماما كما أن للممارسات الطقسية ضرب من الدين أدنى من اتصال النفس المباشر بالله .

وقد وصلت هذه الأفكار إلى البور — رويال بطريق دو فرجييه ، الذى كان أثناء ذلك قد أصبح رئيسا لدير سان — سيران . وقد وفد مسيودسان — سيران ، كما سمى الآن ، على باريس وهو يتقد غيرة وتحمسا

لاصلاح اللاهوت والأخلاق ، وليستبدل التقوى الباطنة بالتدين الظاهر
وسرعان ما قبل مرشدا روحيا للراهبات في البور - رويال - دبارى ،
وللمتوحدين في البور - رويال دي - شان (١٦٣٦) ، وغدت هذه
المؤسسة المزروجة صوت الجانسية ونموذجها الأمثل في فرنسا . أما ريشليو
فقد رأى في هذا المصلح رجلا متعصبا مثيرا للقلق ، فاعتقله في فانسين
(١٦٣٨) . وفي ١٦٤٢ أفرج عن سان - سيران ، ولكنه مات بالفالج
بعد سنة .

وقد ظل يلهم الكثيرين من آل آرنو حتى وهو في سجنه . فنشر آرنو
الثاني « آرنو الكبير » في ١٦٤٣ رسالة في « كثرة تناول الأسرار المقدسة »
واصلت حرب أبيه مع اليسوعيين . ولم يذكر اسمهم صراحة ، ولكنه
تدد بفكرة أحس بأن بعض الكهنة الاعتراف يتساحون فيها ، وهي أن في
قدرة الخطي « أن يكفر عن خطيئته المتكررة إذا أكثر من الاعتراف
وتناول القربان . وشعر اليسوعيون بأنهم المقصودون بهذا الهجوم ، فشدوا
النكير على آل آرنو . وتوقع أنطوان المتعصب ، فرحل عن باريس إلى البور
- رويال - دي - شان . وفي ١٦٤٨ رحلت الراهبات أيضا عن العاصمة
وقد روعتهن حرب الفروند وعدن إلى مقرهن القديم . وأخلى المتوحدون
المسكان وانتقلوا إلى مزرعة قريبة تدعى ليجرانج .

كان البابا أوربان الثامن قد أدان (١٦٤٢) العقيدة العامة التي انطوى
عليها كتاب جانسن « أوغسطينوس » . وفي ١٦٤٩ طلب أستاذ في
السوربون إلى الكلية أن تدين سبع قضايا في الكتاب رغم أنها تحظى برواج
شديد . وأحيل الأمر إلى إوسنت العاشر ، وانتهز اليسوعيون الفرصة ليقنعوا
البابا بما تنطوى عليه الجانسية من أخطار بوصفها لاهوتا كالفنيا يتخفى في
في ثوب كاثوليكي . وأخيرا حملوه على إصدار مرسوم Cam occasione
(٣١ مايو ١٦٥٣) ، حكم بالهرطقة على خمس قضايا زعم أنها مأخوذة من
كتاب « أوغسطينوس » :

١ - هناك تعاليم الهية يعجز الصالحون عن طاعتها عجزا مطلقا رغم إرادتهم .

٢ - لا يستطيع إنسان أن يقاوم تأثير النعمة الإلهية .

٣ - لكي تكون أعمال البشر أهلا أو غير أهل للمكافأة والتقدير لا يشترط أن تكون خلوا من الضرورة القاهرة ، بل يكفي أن تكون بلا ضغط أو كبت .

٤ - هذه الهرطقة ، الشبيهة بهرطقة بيلاجيوس ، مؤداها السماح لإرادة الإنسان بأن تمنع قوة مقاومة النعمة ، أو الامتناع لتأثيرها .

• - كل من زعم أن المسيح مات ، أو سفك دمه ، للبشر جميعا ، هو شبيهه ببيلاجيوس (١٨) .

هذه القضايا لم تؤخذ حرفيا من كتاب « أوغسطينوس » ، ولكنها صيغت بقلم أحد اليسوعيين تلخيصا لتعليم هذا الكتاب . وهي كخلاصة فيها قدر لا بأس به من الانصاف (١٩) ، ولكن الجانسينيين احتجوا بأن القضايا ، بهذا الوصف ، لا توجد عند جانسن - وإن كان آرنو قد ألمح في خبث إلى أنه يمكن العثور عليها كلها عند القديس أوغسطين . وفي غضون ذلك لم يقرأ الكتاب أحد فيها يبدو .

وكان أنطوان آرنو مقاتلا بالفطرة . فأقر بمصمة البابا في أمور الإيمان والأخلاق ، لافي الأمور المتصلة بالحقيقة الواقعة ؛ ومن الحقائق الواقعة أنه أنكر أن جانسن قرر هذه القضايا المحكوم بإدانتها . وفي ١٦٥٥ عاد إلى مقابلة اليسوعيين في عقردارم بنشره « رسائل إلى دوق وبييل » ، وقد هاجم فيها الأساليب التي زعم أنها أساليب اليسوعيين في كرمي الاعتراف ورحبت السوربان باقتراح بطرده . فأعد دفاعه ، وقرأه على أصحابه في البور - رويال . فلم يقم من شوهم موقعا ذا بال ، وكان أحد من

مريدا جديدا يدعى بليز بسكال . فاتجه إليه آرنو وأهاب به قائلا : « أنت أيها الشاب ، لم لا تكتب شيئا (٢٠) ؟ » واعتكف بسكال في حجرته ، وكتب أول « رسائله الإقليمية » وهو من عيون الأدب والفلسفة الفرنسيين . وينبغي أن نستمع إلى بسكال في شيء من الإسهاب ، لأنه لم يكن أعظم كتاب النثر الفرنسي فحسب ، بل ألمع المدافعين عن الدين في عصر العقل بأكمله .

٤ - بسكال : ١٦٢٣ - ٦٢

١ - بسكال الإنسان

كان أبوه إتيين بسكال رئيسا لمحكمة المعاوين بسكايرمون - فيران في وسط فرنسا الجنوبي . وماتت أمه بعد مولده بثلاث سنين ، مخلفة فضلا عنه أختا أكبر منه تدعى جلينيرت وأخرى أصغر تدعى جاكاين . وانتقلت الأسرة إلى باريس حين بلغ بليز الثامنة . وكان إتيين يدرس الهندسة والفيزياء ، وقد اتاح له تفوقه فيهما أن يصادق جاسندي ، وميرسين ، وديسكارت . وكان بليز يسترق السمع لبعض لقاءاتهم ، فأصبح في الفترة الأولى من حياته عاشقا للعلم . فلما بلغ الحادية عشرة ألف رسالة قصيرة عن أصوات الأجسام المتذبذبة . وخيل للأب أن ولع الصبي بالهندسة سيلحق الأذى بدراساته الأخرى ، فحظر عليه حينئذ أن يمضى في عكوفه على الرياضيات . ولكن حدث يوما - فياروى - أن إتيين وجدده يكتب على الحائط بقطعة من الفحم البرهان على أن زوايا المثلث الثلاث تساوى زاويتين قائمتين (٢١) ، وبمدها سمح للغلام أن يدرس اقليدس . وقبل أن يبلغ السادسة عشرة كتب بمحذا في القطاعات المخروطية فقد أكثره ، ولكن إحدى نظرياته كانت مساهمة خالدة في ذلك العلم ، وما زالت تحمل اسمه . وحين عرضت مخطوطة البحث على ديسكارت أبى أن يصدق أنه من وضع الابن لا الأب .

في ذلك العام (١٩٣٩) لعبت أخته الجميلة جاكلين دوراً مثيراً في حياة الأسرة ، وكانت آتخذ في الثالثة عشرة . ذلك أن الأب كان قد استثمر بعض المال في السندات البلدية ، وخفض ريشليو نسبة الفائدة التي تؤدي عن هذه السندات ، فالتقده إتيين ، وهدد الكردينال بالقبض عليه ، فاختبأ في أوفرن . ولكن الكردينال كان يحب التمثيليات والبنات ، وقامت بعض الفتيات - ومنهن جاكلين - بتمثيل مسرحية سكوديري « الحب الظالم » . أمامه ، فشرح تمثيلها صدره ، واغتمنت هي الفرصة وتوسات إليه أن يصنح عن أبيها ، ففعل ، وعينه ناظراً ملكياً في روان عاصمة نورمنديه ، وإليها انتقلت الأسرة في ١٩٤١ .

وهناك اخترع بليز أول آلاته الحاسبة العديدة المحفوظ بعضها إلى الآن في كونسرفتوار الفنون والصنائع بباريس ، وكان يومها في التاسعة عشرة . أما المبدأ الذي قامت عليه فهو سلسلة من التروس ينقسم كل منها إلى تسعة أرقام وصفرة ، ويحرك كل منها ليدور عشر دورة نظير كل دورة كاملة للترس الذي إلى يمينه ، ويظهر كل منها رقه الأعلى في ثقب عند القمة . ولم تكن الآلة تستطيع غير الجمع ، ولا كانت عملية من الناحية التجارية ، ولكنها قربت من بداية تطور يثير اليوم دهشة العالم . وأهدى بسكال إحدى آلاته الحاسبة إلى كرستينا ملكة السويد ، مشفوعة بخطاب اطراء بليغ جداً ، فدعته إلى قصرها ، ولكنه أحس بأنه أضعف من أن يحتمل ذلك للمناخ الرهيب .

وكان العالم الشاب المتحمس شديد الاهتمام بالتجارب التي نشرها تورثشيللي عن وزن الهواء ، وطرأت على خاطر بسكال فكرة كان فيها مستقلا عن تورثشيللي ، ولكن ربما استوحاها من اقتراح لديسكارت (٢٢) ، ومؤداها أن الزئبق في أبوية تورثشيللي يرتفع إلى مستويات مختلفة في ماكن مختلفة ، حسب اختلاف الضغط الجوي . فطلب إلى زوج أخته في أوفرن أن يحمل أبوية زئبق إلى قمة جبل ، وبلاحظ أي فرق - على مختلف

المستويات — في ارتفاع الزئبق في الجزء المغفل من أنبوبة فتح طرفها الآخر لضغط الهواء . وقمل فلوران بيريه كما طلب إليه ، في ١٩ سبتمبر ١٦٤٨ ارتقى مع بعض أصحابه « بوى ددوم » ، الذي يرتفع خمسة آلاف قدم فوق مدينة كليرمون — فيران ، وهناك ارتفع الزئبق إلى ثلاث وعشرين بوصة في الأنبوبة ، بينما ارتفع عند سفح الجبل إلى ست وعشرين ، وهلمت أوروبا كلها للتجربة لأنها أثبتت نهائياً مبدأ البارومتر وقيمه .

وتلقى بسكال بفضل شهرته عالمياً (١٦٤٨) نداءً مثيراً من مقامر طلب إليه أن يضع قانوناً رياضيات الحظ أو الصدفة ، فقبل التحدي ، واشترك مع غيرهما في وضع حساب الاحتمالات ، الذي ينتفع به الآن كثيراً في جداول التأمين من المرض والموت . ولم تبد عليه في هذه المرحلة من نمو أي بادرة بأنه سينقل يوماً ما ولاءه من العلم إلى الدين ، أو يفقد إيمانه في المنطق والتجريب ، وواصل العمل عشر سنين في المضللات العملية لاسيما الرياضية منها ، وفي تاريخ متأخر (١٦٥٨) عرض جائزة من مجهول في تربيعة الدويرى — وهو الخط المنحني الذي تحدته نقطة على دائرة تدحرج على خط مستقيم فوق سطح مستو . وتقدم بالحلول واليس ، وهو بجنز ، ورن ، وغيرهم ، ونشر بسكال بعد ذلك حله ، تحت اسم مستعار ، وأعقب ذلك جدول سلك فيه المتنازسون ، ومنهم بسكال ، مسالك لم يتسم بالكثير من الفلسفة .

وتسلط على حياته خلال ذلك مؤثران أساسيان ، المرض والجانسانية . ذلك أنه منذ كان فتى في الثامنة عشرة عانى من علة عصبية قل أن تركته يوماً بنسير ألم . وفي ١٦٤٧ أقدمته إصابة بالشلل لم يستطع بسببها المشي إلا إذا توكأ على عكازين . كان رأسه يصدع ، وأمعاؤه تلتهب ، وساقاه وقدماه دأمة البرودة والحاجة إلى الوسائط المرهقة لتنفيذ دورته الدموية ، وكان يلبس الجوارب الطويلة المتقوعة في البراندى الهامسك لدفء قدميه .

وكان مما حمله على الانتقال إلى باريس مع جاكلين أن يجد علاجاً طبياً أفضل ، وتمسنت صحته ، ولكن جهازه العصبي كان قد لحق به أذى مستديم . فأصبح منذ ذلك الحين عرضة لأوهام ازداد صمقها على الأيام حتى أثرت في خلقه وفلسفته ، فبات سريع الإفعال ، فريسة لنوبات من الغضب المتكبر العائى ، وقل أن أشرق وجهه باقتسامه (٢٢) .

وكان أبوه طيله حياته كاثوليسكياً تقياً بل صار مأوساً وسط شواغله العلمية ، وقد علم أبنائه أن الإيمان الديني أئمن ما يمكن ، وأنه شئ بعيد كل البعد عن متناول أو عن حكم قوى التمسكير الضعيفة التي يملكها البشر . وفي روان أصيب الأب بمجرح خطير فعالج به طبيب جانسنى بنجاح ، ومن هذا الاتصال اتخذ إيمان الأسرة مسحة جانسنية ، فلما انتقل بليز وجاكلين إلى العاصمة كثرت اختلافهما إلى القديس في البور — رويال — د — بارى ، ورغبت جاكلين في دخول الدير راهبة ، ولكن أباهما لم يستطع أن يروض نفسه على السماح لها بالخروج من حياته اليومية ، ولكنه مات عام ١٦٥١ ، وما لبثت جاكلين أن ترهبت في البور — رويال — دى — شان ، بعد أن حاول أخوها عبثاً أن يثنئها عن عزمها .

وتنازعا حيناً على تقسيم ميراثهما ، فلما سوى النزاع وجد بليز نفسه رجلاً غنياً حراً - وتلك حال مجافية لحياة التقوى ، فاتخذ لنفسه بيتاً فاخر الأثاث ، واستكثر من الخدم ، وجاب باريس في مركبة تجرها خيول أربعة أو ستة (٢٤) . وأعطاه شفاؤه المؤقت شعوراً خداعاً بالنشاط والخفة حرفة من التقوى إلى اللذة . وعلمنا ألا انفسه على تلك السنوات القليلة التي قضاها « في العالم » (١٦٤٨ - ٥٤) ، يستمتع بصحبة ظرفاء باريس وألعاها وحسانها ، ويطارد في برهة مثيرة بأوفرن سيدة ذات جمال وثقافة ، وصفها بـ « سافو الريف » (٢٥) . وحوالى هذه الفترة كتب « أحاديث في آلام الحب » ويلوح أنه فسكرفى الزواج — الذى سيصفه في تاريخ لاحق بأنه « أحط ظروف الحياة المباحة لمسيحى » (٢٦) . وكان بعض أصحابه

خبرة جمعوا بين الحريتين ، حرية الأخلاق وحرية الفكر ، ولعلمهم هم الذين
أثاروا اهتمام بسكال بمونتييني ، الذي تغلغت الآن « مقالاته » في حياته .
وأكبر الظن أن تأثيرها الأول عطفه نحو التشكك الديني .

ووبخنته جا كلين حين نعى إليها نبأ عينه الجديد ، وصلت لأجل صلاح حاله .
وكان من خصائص طبيعته العاطفية أن تستجيب لصلواتها إثر حادث وقع له .
ذلك أنه بينما كان ذات يوم يركب عربته فوق البون دنوبى جسر تيللى ، جمعت
الطويل واندفعت فوق الحاجز إلى نهر السين . وكادت العربة أن تتبع الخليل ،
ولسكن العنان انقطع لحسن الحظ ، وتملقت المركبة بنصفها فوق الحافة .
وخرج منها بسكال وأصحابه ، واسكن الفيلسوف للمرهف الحس أغشى عليه
لفرط خوفه من الموت الدائم ، وظل برهة غائباً عن رشده . فلما أطاق شعر
بأنه رأى الله فى رؤيا . وفى نشوة من الخوف والندم وعرفان الجميل سجل رؤياه
على رق راح يحمله منذ تلك اللحظة مخيطا فى بطانة سترته : « السنة ١٦٥٤
بعد الميلاد ، الأثنين ٢٣ نوفمبر ٠٠٠ من نحو السادسة والنصف مساء إلى
النصف بمد منتصف الليل . أن الاله القديم ، إله إبراهيم ، وإله إسحق ، وإله
يعقوب ، لا إله الفلاسفة والعلماء . اليقين ، اليقين ، الوجدان ، الفرح ،
السلام . إله يسوع المسيح لن يمجده الإنسان إلا بالطرق التى يعلمها
الإنجيل . يأسه والنفس الإنسانية ، أيها الآب العادل ، أن العالم لم يعرفك
قط ، ولكنى عرفتك . إنه الفرح ، الفرح ، دموع الفرح يا إلهى ،
هل أنت تاركى ؟ يسوع المسيح لقد فصلت عنه ، وهربت منه ، وتخلت
عنه ، وصلبته . ليتنى لا أفارقة أبداً ، إنها المصالحة الحلوة الكاملة (٢٧) » .

وطاود زيارته للبور — رويال ولجا كلين ، وشرح صدرها بحالته
النفسية الجديدة ، حالة التواضع والتوبة . واستمع إلى عظات أنطوان
سانجلان . وفى ديسمبر ١٦٥٤ أصبح عضواً فى جماعة البور — رويال (٢٨) .
وفى يناير كان له هناك حديث طويل مع ساسى ، الذى آلى على نفسه أن

يقنعه بسطحية العلم وعمق الفلذمة . وآنس آرنو ونيكول من العضو الجديد
حماسة في الاهتداء وبراعة في التعبير الأدبي تبدوان وكأتهما اداة وضعتها
المنالية في أيدي الجماعة للدفاع عن البور — رويال ضد اعدائه . فطلبا إليه
أن يخصص قلمه للرد على اليسوعيين الذين كانوا يحاولون تصويو الجانسية
على انها خطيئة . وأستجاب للطلب في ذكاء وقوة بلغا مبلغا جعل جماعة
اليسوعيين تشكروا إلى اليوم من وخز بسكال الأليم .

ب - الرسائل الإقليمية

في ٢٣ و ٢٦ يناير ١٦٥٦ نشر بسكال الرسالتين الأولى والثانية مما سماه
« رسائل كتبها لوى دمونتالت » (وهو اسم مستعار) « إلى صديق في
الأقاليم ، وإلى الآباء اليسوعيين المبجلين ، عن أخلاقياتهم وسياساتهم . وكان
إطارها ذكيا ، فقد زعم إنها تقرير من باريس إلى صديق في الأقاليم عن
المسائل الخلقية واللاهوتية التي كانت يومئذ تثير الأوساط الفسكرية والدينية
في العاصمة . وقد زود آرنو ونيكول بسكال بالحقائق والمراجع . أما هو
فقد أبدع ذلك الأسلوب الأدبي الذي استشرف مستوى جديداً في النثر
الفرنسي ، فقد توافرت لبسكال حماسة المؤمن الجديد وذكاء رجل
الدينيا وتهذيبه .

أما الرسائل الأولى فقد التمس التأييد العام لآراء الجانسينيين في النعمة
الالهية والخلاص ، وهي الآراء التي دافع عنها آرنو من قبل ، وقد قصد بها
أن تؤثر في السوربون لتعارض الاقتراح بطرد آرنو . وقد فشلت في هذا ،
إذ جرد آرنو رسميا من لقبه وطرد (٣١ يناير) . وحفز الفشل بسكال
وآرنو إلى الهجوم على اليسوعيين لأنهم يقوضون الفضيلة بما يعيب آباء
اهترافهم من تحلل ، وما يشوب فتاوام من ثمرات . وقد نقبا في مؤلفات
إيسكوبار وغيره عن اليسوعيين ونددا يبادئ « الاحتمالية » و « التوجيه
بالنيه » و « التحفظ العقلي » ، وحتى بتوفيق المرسلين اليسوعيين بين

اللاهوت المسيحي وعباده الصينيين لأسلافهم (٢٩) . وإن لم يتهما اليسوعيين . صراحة بتبرير الوسائط لبلوغ الغايات . وكان هذا المهدي يزداد حماسة كلما توالت الرسائل وكشف له آرنو عن المزيد من فتاوى إيسكوبار . وبعد الرسالة العاشرة أُلغى عن أكذوبة الباريسي كاتب الرسائل الإقليمي ، وأماط اللثام عن شخصه ، ووجه الخطاب إلى اليسوعيين رأساً في بلاغة تضطرم سخطاً ، وذكاء يفيض تهكماً . وكان ينفق أحياناً عشرين يوماً في تحرير رسالة واحدة ، ثم يهرع بها إلى المطبعة قبل أن يفتر اهتمام الجمهور . وقد اعتذر عن طول الرسالة السادسة عشرة بعذر فريد في بابه ، إذ قال « لم يتسع لي الوقت لاختصارها (٣٠) » . وفي الرسالة الثامنة عشرة والأخيرة (٢٤ مارس ١٦٥٧) تحدى البابا نفسه . ذلك أن البابا الإسكندر السابع أصدر (١٦ أكتوبر ١٦٥٦) تنديداً آخر بالجانسنية ، فذكر بسكال قراءه بأن حكم البابا عرضة لأخطأ ، كما أخطأ في حالة جاليليو (٣١) (وذلك شعور بسكال) . وأدان البابا الرسائل (٦ سبتمبر ١٦٥٧) واسكن فرانساً المثقفة كلها قرأتها .

أكانت الرسائل منصفة لليسوعيين ؟ أنقلت المختارات عن الكتاب اليسوعيين نقلاً أميناً ؟ قال عقلاني مثقف « صحيح ولا ريب أن بعض العبارات المعدلة حذفت أحياناً دون موجب ، وأن عبارات أخرى ترجمت ترجمة خاطئة ، وأن ضغط الفقرات الطويلة في جمل قصيرة يشمرك في بعض الحالات بأن في هذا إجحافاً بالمؤلف » ثم يقول « ولكن هذه الحالات قليلة وغير هامة نسبياً » (٣٢) وهناك الآن إجماع على أن المختارات دقيقة في جوهرها (٣٣) هل أنه لا بد من التسليم بأن بسكال انتزع أشد فقرات بعض المفتين إزطاجاً وشبهة من سياقها ، وقاد شطراً من الجمهور إلى رأى فيه غلو كثير ، مؤداه أن هؤلاء الفقهاء اللاهوتيين يتآمرون على هدم أخلاق العالم المسيحي . وقد أطرى فولتير براءة الرسائل بوصفها أدبا ، ولكن رأى أن « الكتاب كله مبني على أساس زائف . فقد نسب المؤلف في حذق إلى الجماعة اليسوعية

كلها الآراء المتطرفة التي قال بها بعض اليسوعيين الأسبان والفلمنك (٣٤) ،
الذين خالفهم كثير من اليسوعيين . وأسف دلليير لأن بسكال لم يتهمهم
بالجانسين أيضا ، لأن « تمايم جانسن وسان سيران المروعة كانت تتيح
على الأقل مجالاً للسخرية لا يقل عما أتاحتها التمايم الطيبة التي نادى بها
موليا وتامبوران وفاسكوز (٣٥) » .

وكان تأثير « الرسائل » هائلا . صحيح أنها لم تخضد لتوها شوكة
اليسوعيين — ومن المؤكد أنها لم تنتقص من سلطانهم على الملك — ولكنها
فضحت شطط المفتين فضحا حمل الاسكندر السابع نفسه على إدانة « التحلل » ،
رغم مواصلته معارضة الجانسية ، وعلى الأمر بمراجعة نصوص الفتاوى
(١٦٦٥ - - ٦٦) (٣٦) . و « الرسائل » هي التي أضفت على كلمة الافتاء
الديني « Casuistry » مدلول التشقيقات الخداعة المظهر التي تدافع عن
الأفعال أو الأفسار الخاطئة . ثم إنها أضفت آية من آيات الأسلوب إلى
ذخيرة الأدب الفرنسي . وكان فولتير قد طاش قرنا قبل فولتير . فهنا
ذكاء فولتير المرح ، وتهكمه البتار ، وفسكاهته الشكاكية ، وقدمه العنيف ،
وفي الرسائل اللاحقة ذلك الاستنكار الحار للظلم ، الذي أنقذ فولتير من
أن يسكون موسوعة سخرية وتهكم . وقد وصف فولتير نفسه الكتاب
بأنه « خير ما كتب وظهر في فرنسا إلى الآن » ، وكان رأى أنفذ النقاد
فاطبة وأكثرهم رهافة وتميزا أن بسكال « ابتكر النثر الرائع في فرنسا (٣٨) »
وحين سئل بوسويه أى كتاب كان يؤثر أن يؤلف لو لم يؤلف كتابه قال ،
إنه رسائل بسكال الإقليمية (٣٩) .

ح - في الدفاع عن الإيمان

عاد بسكال إلى باريس في ١٩٥٦ ليشراف على نشر « الرسائل » ، وطاش
هناك طوال السنوات الست الباقية من عمره . على أنه لم يهجر العالم ، ففي سنة
٧ - قصة الحضارة

موته ذاتها شارك في تنظيم خدمة منتظمة بالمركبات في العاصمة - وهي البذرة لشبكة الأمنوبيسات الحالية . ولكن حدثين وقعاه جددًا تقواه ، وحمله على أن يتوج أعماله بكتاب جديد أسهم به في الأدب والدين . ذلك أنه في ١٥ مارس ١٦٥٧ حصل اليسوعيون من الملكة الأم على أمر بإغلاق مدارس الموحدين وحظر قبول المزيد من الأعضاء في البور - رويال . وأطيع الأمر في هدوء ، وأرسل الأطفال - وكان من بينهم راسين - إلى بيوت الأصدقاء ، وتفرق المعلمون محزونين . وبعد تسعة أيام (وهو تاريخ صدور آخر الرسائل الإقليمية) وقع ما بدا معجزة في كنيسة دير الراهبات الذي تكدر صفوه . ذلك أن ابنة أخت بسكال البالغة من العمر تسع سنوات ، واسمها مارجريت بيريه ، كانت تشكو من ناسور دمعي مؤلم يرشح صديدا كريها من العينين والأنف . وأهدى أحد أقرباء الأم أنجليك للبور - رويال شوكة زعم هو وغيره أنها أخذت من إكليل الشوك الذي عذب به المسيح . وفي ٢٤ مارس وضعت الراهبات الشوكة على مذبحهن في احتفال مهيب وسعت ترتيب الزامير . ولثمت كل منهن الأثر المقدس بدورها ، ولما رأت إحداهن مارجريت بين العابدات أخذت الشوكة ولمست بها قرحة الفتاة . وروى أن مارجريت أعربت ذلك المساء عن دهشتها لأن عينها لم تمد تؤلمها ، وأدهش أمها ألا ترى أثرا للناسور ، وقرر طبيب دعى لفحص الفتاة أن الصديد والورم قد اختفيا . وأذاع هو ، لا الراهبات ، نبأ هذا الذي سماء شفاه معجزا . ووقع سبعة أطباء آخرون كانوا على علم سابق بناسور مارجريت بيانا قرروا فيه أن معجزة - في رأيهم - قد حدثت . وبمحث موظفو الاسقفية الأمر ، وانتهوا إلى نفس النتيجة ، وأذنوا بإقامة قداس شكر لله في البور - رويال . وتقاطرت جماهير المؤمنين على الدير ليروا الشوكة ويقبلوها ، وهلت باريس الكاثوليكية كلها للمعجزة ، وأمرت الملكة الأم بالكف عن كل اضطهاد للراهبات . وماد المتوحدون إلى ليجراج . (في عام ١٧٢٨ أشار البابا بندكت الثالث عشر إلى هذا الحدث على أنه دليل

على أن عصر المعجزات لم ينته). أما بسكال فقد صنع لنفسه شعار نبالة كان عبارة عن عين يحيط بها إكاييل من الشوك، وقد كتب عليه: « Scio cui credidi — أعرف من صدقت (٤٠) ».

وعكف الآن على كتابة دفاع مفصل عن الإيمان الديني يكون بمثابة وصيته الأخيرة. ولكن قصارى ما وجد في نفسه القدرة عليه: وهو أن يدون في إيجاز خواطر منفصلة يجمع بينها في ترتيب اجتهادى ولكنه قوى. ثم عاودته أوجاعه القديمة (١٦٥٨)، في شدة أعجزته إلى النهاية عن أن يضى على هذه المذكرات تسلسلا متماسكا أو شكلا بنائيا. فلما مات قام صديقه الدوق دروانيه وعلماء البور — رويال بتحرير ونشر هذه المادة وسموها « خواطر المسيو بسكال عن الدين وغيره من المسائل (١٦٧٠) ». وقد خشوا أن تفضى هذه « الخواطر » المبتورة التي خلفها بسكال إلى التشكك لا إلى التقوى، ومن ثم أخفوا الأجزاء المتشككة، وأدخلوا تعديلا على بعض ما بقي مخافة أن يسيء إلى الملك أو الكنيسة لأن اضطهاد البور — رويال كان قد توقف في تلك الفترة، وكره المحررون تجديد الجدل. ولم تنشر « خواطر » بسكال Pensees في نصها الكامل الموثوق إلا في القرن التاسع عشر.

ولو شئنا أن نغامر بفرض ترتيب عليها لجمالنا نقطة بدايتها فلك كوبرنيق. ونحن نشعر ثمانية — إذ نصغى إلى بسكال — باللطمة الهائلة التي كان فلك كوبرنيق وجاليليو يكيلها للمسيحية التقليدية:

« ليتأمل الإنسان الطبيعة كلها في جلالها الكامل السامى، ليقص عن بصره الأشياء الوضيعة التي تحيط به، ولينظر إلى ذلك النور للتوهج الذى وضع كأنه مصباح ابدى ينير العالم، ولتبد الأرض له مجرد نقطة داخل الدائرة الشاسعة التي يرسمها ذلك النجم، وليأخذ العجب من أن هذا المحيط الهائل إنما هو نقطة ضئيلة من زاوية النجوم التي تتحرك في قبة السماء.

فإذا توقف بصرنا عند هذا الحد ، فليجأوزه الخيال ٠٠٠ فكل هذا العالم المرئي ليس إلا عنصرا لا يدرك في صدر الطبيعة العظيم . ولا يستطيع أى تمكير أن يمتد إلى هذا المدى ٠٠٠ إنها كرة لانهاية مركزها في كل مكان ، ومحيطها في غير مكان (٤٢) . هذا أكثر مظهر قابل للإدراك من مظاهر فدرة الله ، حتى أن خيالنا يتوه في هذا الخاطر .

ثم يضيف بسكال في سطر شهير مطبوع بحساسيته الفلسفية ، « ان الصمت الأبدي الذى ياف هذا الفضاء اللانهاى يخيفنى (٤٣) » .

ولكن هناك لانهاية أخرى — وتلك هى لانهاية صغر الذرة « التى لا تقبل الانشطار ، وقبولها النظرى للانقسام قبولا لاحدله ، فهما كانت ضالة الحد الأدنى الذى نحتزل به أى شىء ، فإننا لانملك إلا الاعتقاد بأنه هو أيضا له أجزاء أصغر منه . وعقلنا يتذبذب في حيرة وارتباغ بين الشاسع غير المحدود ، والدقيق غير المحدود .

« إن من يتأمل نفسه على هذا النحو تخيفه نفسه ، وإذا أدرك أنه معلق ٠٠٠ بين هاويتي اللانهاية والعدم ، ارتعد فرقا ٠٠٠ وبات أميل إلى تأمل هذه المعجائب في صمت منه إلى ارتيادها بفرور . فإ الإنسان في الطبيعة ، بمد كل شىء ٠٠٠؟ انه العدم إذا قيس بغير المحدود ، وهو كل شىء إذا قيس بالعدم ، إنه وسط بين العدم والسكل . وهو بعيد كل البعد عن إدراك الطرفين ، فنهاية الأشياء وبدايتها أو أصلها ، يلقيهما سر لاسبيل إلى استكناها ، وهو عاجز على السواء عن رؤية العدم الذى أخذ منه ، واللانهاى الذى يغمره (٤٤) . (٣) »

(٣) يقول سانت ييف « ليس فى اللغة الفرنسية صفحات أروع من المخطوط البسيطة الصارمة التى تحتويها هذه الصورة التى لانظير لها » (٤٥) .

فالعقل إذن ما هو إلا ادعاء غيبي . فهو مبني على العقل — المبني على الحواس ، التي نخذعنا بعشرات الطرق . وهو محدود بالحدود الضيقة التي تعمل حواسنا داخلها ، وبقصر عمر الجسد قصراً قابلاً للفساد . وإذا ترك العقل لذاته لم يستطع أن يفهم — أو يعطى أساساً مكيناً للفضيلة ، أو الأسرة ، أو الدولة ، فكيف بإدراك طبيعة العالم ونظامه الحقيقيين ، فضلاً عن فهمه لله . وفي العرف ، لا بل في الخيال والأسطورة ، حكمة أكثر مما في العقل و « أحكم العقول يتخذ تلك المبادئ » ، التي أدخلها خيال الإنسان بتمجّل في كل مكان ، مبادئ له (٤٦) « وهناك نوطان من الحكمة : حكمة الجماهير البسيطة « الجاهلة » ، التي تعيش بحكمه التقاليد الموروثة والخيال (أي الطقوس والأساطير) ، وحكمة الحكيم الذي نفذ إلى صميم العلم والفلسه ليبدرك جهله (٤٧) . إذن « لاشيء أروح للعقل من أن ينبذ العقل » و « الاستخفاف بالفلسفه ملاك الفيلسوف الأصيل (٤٨) » .

ومن ثم رأى بسكال أنه من الحكمة إقامة الدين على العقل ، كما حاول حتى بعض الجانسنيين ، أن يفعلوا . فالعقل لا يستطيع أن يثبت وجود الله ، ولا الخلود ، لأن الأدلة في الحالين شديدة التناقض . كذلك لا يصلح الكتاب المقدس أساساً نهائياً للإيمان ، لأنه حافل بالفقرات الملتبسة أو الغامضة ، وربما كان للنبوءات التي يفسرها الاتقياء على أنها تشير إلى المسيح دلالة مختلفة (٤٩) . أضف إلى ذلك أن الله في الكتاب المقدس يتكلم بالأرقام ، التي يضللنا مدلولها الحرفي ، والتي لا يدرك معناها الحقيقي إلا من وهبوا النعمة الألهية . « أننا لن نفهم شيئاً من أعمال الله ما لم نؤمن بهذا المبدأ ، وهو أنه تعالى يشاء أن يعنى البعض وينير بصائر البعض (٥٠) . (وهنا يبدو أن بسكال يقبل حرفياً قصة يهوه وهو يقسى قلب فرعون) .

ولو اعتمدنا على العقل لوجدنا غير المفهوم أينما تلفتتنا . فنذا الذي يستطيع أن يفهم ، في الإنسان ، ذلك الاتحاد والتفاعل بين جسد واضح

للمادية وذهن واضح اللامادية؟ «فليس هناك شيء أشد استحالة على التصور من أن تعى المادة نفسها (٥١)». إنهم الفلاسفة الذين ملكوا أهواءهم — «وأي مادة تستطيع أن تفعل هذا (٥٢)؟». وطبيعة الإنسان، التي يمزج فيها الملاك بالوحش امتزاجاً شديداً، تكرر التناقض بين العقل والجسد، وتذكرنا بالكبير الذي زعمت الأساطير اليونانية أنه عزة لها رأس أسد وذيل ثعبان.

«يا لهذا الإنسان من كبير! ياله من بدعة، ووحش، وفوضى، وتناقض، ومعجزة! هذا الحكم في كل الأشياء، ونموذج الغباء في الأرض، مستودع الحق، وبالوعة الضلال والشك، مفخرة الكون ونفايته. فئذا الذي يحل لنا هذا اللغز المعقد (٥٤)؟».

إن الإنسان — من الناحية الخلقية — لغز غامض. فكل ضروب الأوم تبدو مستترة فيه. «ما الإنسان إلا مخلوق خداع للظاهر، كذوب، منافق، مع نفسه ومع غيره (٥٥)». «كل الناس بطبيعتهم يكره بعضهم بعضاً، ولن يجد أربعة أصدقاء في العالم (٥٦)». «ما أفرغ قلب الإنسان وما أحفله بالقدر» (٥٧) ثم يا لغوره الذي لا قرار له ولا شبع، «ما كنا نركب البحر أبداً لولا حملنا بأننا سوف نرؤى قصتنا... أننا نفقد الحياة مغتبطين شريطة أن يتحدث الناس بما فعلنا... وكل الناس، حتى الفلاسفة، يتحنون أن يكون لهم معجبون (٥٨)». ومع ذلك فإن من جوانب عظمة الإنسان أنه من شره، وكرهه، وغروره، أنشأ دستوراً من القوانين والأخلاق ليسيطر على شره، واشتق من شهوته مثلاً أعلى في الحب (٥٩).

وشقاء الإنسان لغز آخر. فلم شقى الكون هذا الشقاء الطويل لينجب نوعاً من الخليقة شديد الهشاشة في سعادته، كثير التعرض للألم في كل عصب، وللحزن في كل حب، وللموت في كل حياة؟ ومع ذلك فإن «جلال الإنسان عظيم في معرفته أنه شقى (٦٠)».

«ما لإنسان إلا قسبة، وهي أوهى ما في الطبيعة، ولكنها قسبة مفكرة.

والكون كله لا حاجة به لأن يتسلح لكي يسحقه ، فنفخة بخار ، أو قطرة ماء ، تكفى لقتله — ولكنه ، بعد أن يسحقه الكون ، لا يزال أنبل من هذا الذى يقتله ، لأنه يعرف أنه مفارق الحياة ، أما الكون فلا يعرف شيئاً عن انتصاره على الإنسان (٦١) .

وليس من هذه الألغاز لغز يجد في العقل جواباً له . ولو ركنا إلى العقل وحده لحكنا على أنفسنا بـ « برووية » تشكك في كل شيء إلا الألم والموت ، والفلسفة لا تستطيع على أحسن الفروض إلا أن تسكون تبريراً عقلانياً للهزيمة . ولكننا لا نستطيع أن نؤمن بأن قدر الإنسان هو كما يراه العقل — أن يكافح ، ويتعذب ، ويموت ، بمسءد أن ينجب آخرين ليكافوا ، ويتعذبوا ، ويموتوا ، جيلاً بعد جيل ، في افتقار للهدف ، وغباوة ، وحقارة هائلة . فنحن في قرارة نفوسنا نشعر بأن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً ، وبأنه تجديف ما بعده تجديف أن نظن أن الحياة والكون بلا معنى . فالفه ومعنى الحياة يجب أن يشعر بهما القلب لا العقل . « فإن للقلب مبرراته التي لا يعرفها العقل (٦٢) . » ، وخيراً نفعل أن أصغينا إلى قلوبنا وإن « وضعنا إيماننا في الوجدان (٦٣) » . ذلك أن كل إيمان ، حتى بالأمور العملية ، إنما هو ضرب من الإرادة ، وتوجيه للانتباه والرغبة (إرادة الإيمان) . والتجربة الصوفية أعمق من شهادة الحواس أو حجج العقل .

أى جواب إذن عند الوجدان يجيب به عن الغاز الحيسة والفسكر ؟ الجواب هو الدين . فالدين وحده يستطيع أن يرد للحياة معناها ، والإنسان نبه ، وبدونه نتخبط أعمق حتى من تخبطنا الأول في إحباط عقلى وعقم محيت . فالدين يعطينا كتاباً مقدساً ، والكتاب ينبئنا بسقوط الإنسان من النعمة ، وهذه الخطيئة الأصلية هي دون غيرها التي تستطيع أن تنسر ذلك الجمع الغريب في الطبيعة البشرية بين الكره والحب ، وبين الشر الوحشى واشتياقنا للخلاص والله . فاذا سمحنا لأنفسنا بأن نؤمن (مهما بدت سخافة

هذا الإيمان للفلاسفة) بأن الإنسان بدأ بالنعمة الإلهية ، وأنه فقدتها بالخطيئة ، وأنه لا خلاص له إلا بالنعمة الإلهية عن طريق المسيح المصابوب ، وجدنا بعد هذا سلاماً عقلياً لا يوهب للفلاسفة أبداً . والذي لا يستطيع الإيمان ملمون ، لأنه يعلن بكفره أن الله لم يهباً أن يمنحه النعمة .

والإيمان رهان حكيم . وهب أن الإيمان لا يمكن إثباته ، فأى ضمير إن قامت على حقيقته ثم اتضح بطلانه ؟ « لزام عليك أن تراهن ، وليس لك في هذا خيار ... فلتوازن بين المكسب والخسارة في الرهان على وجود الله ... أنك إن كسبت كسبت كل شيء ، وإن خسرت لم تخسر شيئاً . فراهن إذن دون تردد على أنه تعالى موجود (٦٤) . فاذا وجدت أول الأمر أن الإيمان صعب عليك فاتبع عادات وطقوس الكنيسة كأنك تؤمن حقاً . « تبرك بالماء المقدس ، واطلب تلاوة القدايس ، وهلم جراً ، وهذا كفيل بأن يجعلك تؤمن بطريقة بسيطة طبيعية ، وبأن يهدئك » — سيهدى من عقلك المغتر بقدرته النقاد (٦٥) . واعترف وتناول القربان ، وستجد في هذا راحة وقوة (٦٦) .

ونحن نعلم هذا الدفاع التاريخي إذا تركناه يهتتم على هذه النعمة غير البطولية . فلنا أن نثق بأن بسكال حين آمن لم يؤمن كأنه مقامر بل كنفس حيرتها ودوختها الحياة ، كانسان أدرك في تواضع أن عقله الذي أذهل ذكاؤه الصديق والعدو ، ليس كنفوس السكون ، ووجد في الإيمان السبيل الوحيد ليضفي على ألمه المعنى والمغفرة . يقول سانت — بيف « ان بسكال رجل مريض ، وعلينا أن نذكر هذا على الدوام ونحن نقرؤه (٦٧) » ولكن بسكال لو ووجه بهذا الرأي لأجاب : السنا كلنا مرضى ؟ فليرفض الإيمان كل من اكتملت له السعادة . ليرفضه كل من لم يقنع بمعنى في الحياة أكثر من أنها مسار عاجز من ميلاد قدر إلى موت إليم .

« تصور نقرأ من الناس يرسمون في الأغلال وقد حكم عليهم جميعاً

بالموت ، وفي كل يوم يشنق بعضهم على مرأى من الباقين ، والباقون يتبينون حالهم في حال زملائهم ، ويتبادلون نظرات الحسرة واليأس ، وينتظر كل منهم دوره . هذه صورة لحالة الإنسان (٦٨) .

فكيف السبيل إلى التعويض عن هذه المذبذبة البشعة التي نسميها التاريخ إلا بالإيمان بأن الله سيصحح الأخطاء كلها في النهاية ، سواء استند هذا الإيمان إلى دليل أو لم يستند ؟ .

وقد تحمس بسكال في حاجته لأنه لم يفتق قط إفاقة حقيقية من الشكوك التي أوحى بها إليه موتيني ، وملحدو « السنوات التي قضاها في العالم » ، وحياد الطبيعة القاسى بين « الشر » و « الخير » .

« ذلك ما أراه وما يقض مضجعي . فأينها تلفت لم أجد غير الغموض والابهام . ولا تقدم لى الطبيعة إلا ما يحتمل الشك والقلق . فلو أننى لم أر علامات على وجود إله لثبت على الإنكار . ولو رأيت آثار الخالق في كل مكان لسكنت إلى الإيمان في هدوء وسلام . ولكنى في حالة يرئى لها لأننى أرى أكثر كثيراً مما يبرر إنكار وجوده تعالى ، وأقل كثيراً مما يطمئننى على وجوده . ولقد طالما تمنيت أن تعلن الطبيعة عن وجوده دون لبس أو غموض ما دام هذا الإله حافظها (٦٩) » .

وحالة القلق العميق هذه ، والقدرة المعطلة على رؤية الجانبين ، هي التي تجعل بسكال يستهوى المؤمنين والشكاكين على السواء . فلقد شعر هذا الرجل بغيظ الملحد من الشر ، وبثقة المؤمن في انتصار الخير ، ولقد عبر من تدويمات موتيني وشارون الدهنية إلى التواضع اللغتبطة الذي أحس به القديسان فرانسيس الأسيسى وتوماس أكيبس . وهذه الصرخة المنبمئة من أحماق الشك ، وهذه الصياغة لإيمان ضد الموت ، هما اللذان يجعلان « خواطر » بسكال أبلغ الكتب قاطبة في النثر الفرنسى . لقد أصبحت الفلسفة أدباً للمرة الثالثة في القرن السابع عشر ، لا في تركيز بيكون الهادى ،

ولافى ألفة ديكارت السارة ، بل فى القوة العاطفية لشاعر يحس بالفلسفة ، ويكتب لقلبه بدمه . فى قمة العصر الكلاسيكى علا هذا النداء الرومانسى ، وبلغ من القوة ما أتاح له أن يعمر بعد بوالو وفولتير ، وأن يسمعه عبر قرن من الزمان روسو وشاتوبريان . قهنا ، فى صبيحة عصر العقل ، وفى عقود هوبز وسبينوزا ذاتها ، وجد العقل منازل له فى رجل محتضر .

روت مدام بيريه ، شقيقة بسكال ، أنه كان فى سنه الأخيرة يعانى من « علل مستديمة متفاقة (٧٠) » وانتهى به الأمر إلى الرأى بأن « للرض هو الحالة الطبيعية للمسيحيين (٧١) » . وكان أحيانا يرحب بالآلام لأنها تصرفه عن المفريات . قال « إن ساعة من الألم تعلم أفضل من كل الفلاسفة مجتمعين (٧٢) » . وقد هجر كل اللذات ، وعكف على ممارسة النسك ، ووجد نفسه بحزام ثبتت فيه مسامير من حديد (٧٣) . ووبخ مدام بيريه لأنها تسمح لأبنائها بمناقها . وعارض فى زواج ابنتها قائلا : « إن حالة الزوجية ليست خيرا من الوثنية فى نظر الله (٧٤) » . ولم يسمح لإنسان فى حضرته أن يتحدث عن جمال المرأة .

وفى عام ١٦٦٢ ، آوى أسرة فقيرة فى بيته صدقة من صدقاته الكثيرة . فلما أصيب أحد الأطفال بالجدرى انتقل بسكال إلى بيت شقيقته بدلا من أن يطلب إلى الأسرة أن تغادر بيته . ولم يمض طويل وقت حتى لزم فراشه وقد حطمته الآلام المموية . وكتب وصيته ، فترك نصف نروته تقريبا للمقرء . واعترف لكاهن ، وتناول القربان الأخير ، ثم لفظ أنفاسه إثر تقلصات عنيفة ، فى ١٩ أغسطس ١٦٦٢ وهو لا يجاوز الأربعين . ولما شرحت جثته وجد أن معدته وكبدته مريضتان ، وأن فى أمعائه قرحا (٧٥) . وقال الأطباء أن محه « ضخم الحجم جدا ، وأن مادته جامدة مكثفة » ولكن خطأ واحدا فقط من خطوط الاتصال بين عظام الجمجمة هو الذى كان مقفلا قفلا سليما ، ولعل هذا هو السر فى نوبات الصداع الرهيبه التى ابتلى بها .

ووجد على الحاء المنح منخفضان « كبيران كأنهما صنعا بأصابع وضعت في الشمع » (٧٦) وقد دفن في كنيسة أبرشية سانت اتيين - دومون .

٥ - البور - رويال : ١٦٥٦ - ١٧١٥

شدت « الرسائل الافليمية » من عزم اليسوعيين والأساقفة على قمع الجانسية باعتبارها بروتستنتية مقنعة . فأصدر البابا الاسكندرية السابع (١٦ أكتوبر ١٦٥٦) استجابة لإلحاح الأساقفة الفرنسيين مرسوماً بابوياً يلزم جميع رجال الكنيسة الفرنسيين بالتوقيع على الصيغة التالية :

« إنى أخضع بإخلاص لدستور البابا أنوسنت العاشر ، المؤرخ ٣١ مايو ١٦٥٣ ، حسب معناه الحقيقي الذي حددته دستور أبينا الأقدس البابا الإسكندر السابع المؤرخ ٦ أكتوبر ١٦٥٦ ، وأقر بأنى ملتزم في ضميرى بطاعة هذين الدستورين ، وأدين بقلبي وفى التعليم الوارد فى قضاياء كورنيلس جانسن الخمس المحتواة فى كتابه للمعنون « أوغسطينوس » .

وامتنع مازاران عن فرض التوقيع على هذه الصيغة ، ولكن فى ١٣ أبريل ١٦٦١ ، عقب موت مازاران ، أذاع لويس الرابع عشر الأمر ، وقدم وكيل أسقفية من أصدقاء الجماعة لهذه الصيغة ببيان توفيقى ، فوقعها آرنو وللتوحدون فى هذه الصورة ، ونصحوا راهبات البور - رويال بالحدو حدوهم ، ولكن الأم أنجليك - التى كانت طريجة الفراش لإصابتها بالاستسقاء - رفضت التوقيع وثبتت على الرفض إلى أن ماتت فى السبعين فى ٦ أغسطس ١٦٦١ ، وكذلك رفض بسكال وشقيقته جا كلين ، التى أصبحت وكييلة الدير . وقالت جا كلين : مادام الأساقفة لا يملكون من الشجاعة لإشجاعة الفتيات ، فلا بد أن يكون للفتيات شجاعة الأساقفة (٧٧) . وأخيراً وقعت كل الراهبات الباقيات على قيد الحياة ، ولكن جا كلين

التي أضلتها مقاومتها الطويلة ماتت في ٤ أكتوبر وهي لا تتجاوز السادسة والثلاثين ، وتلاها بسكال بعد عام واحد .

واستنكر الملك خلال ذلك الفدياجة الموفقة وأصر على أن يوقع الراهبات الصيغة دون أى إضافة أو تغيير ، ونقل القليلات اللاتي وقمن إلى البور — رويال في باريس ، ولكن أغلبية الراهبات ، تتضمن الأم آنيس ، صرحن بأنه ليس في وسعهن التوقيع بضمير خالص على وثيقة تناقض معتقداتهن أشد مناقضة . وفي أغسطس ١٦٦٥ حرم رئيس الأساقفة الراهبات السبعين وأخواتهن العلمانيات الأربع عشرة من تناول الأسرار المقدسة ، وحظر عليهن أى اتصال بالعالم الخارجي . وخلال السنوات الثلاث التالية ، كان أحد الكهنة المتعاطفين مع الراهبات يتسلق أسوار البور — رويال — دى شان ليناول الراهبات المحتضرات قربانهن الأخير . وفي ١٦٦٦ قبض على ساسي ، ولوميتز ، وثلاثة آخرين من المتوحدين بأمر الملك ، أما آرنو الذي تنسكروا شعر مستعار وسيف ، فقد آوته الدوقة لونيغفيل ، التي كانت تستخدمه بنفسها أثناء اختبائه (٧٨) . وتبنت هي وغيرها من النبيلات قنيسة الراهبات ، وأقنمن لويس بأن يلين ؛ وفي ١٦٦٨ أصدر البابا كلمنت التاسع مرسوماً جديداً صيغ في لبس حكيم يسمح لجميع الأطراف بقبوله ، وأفرج عن السجناء ، وردت الراهبات المنشقات إلى البور — رويال — دى شان ، وطادت الأجراس تدق في الدير بعد أن صمتت ثلاث سنين . واستقبل الملك آرنو استقبالاً ودياً ، وكتب هذا كتاباً ضد السكلفين ، ولكن نيكول كتب كتاباً آخر ضد اليسوعيين .

ودام «سلام الكنييسة» أحد عشر طاماً ، ثم ماتت مدام لونيغفيل ، ومات معها السلام . وإذ بدأ الملك يشيخ ، وانقلبت انتصاراته هزائم ، استحال عليه خليطاً من التعصب والخوف ، وسأل نفسه ، أكان الله يماقبه على تسامحه مع الهرطقة ؟ واتخذ بغضه للجانسية طابعاً شخصياً ، ومن الأمثلة على هذا

التحول أن لويس رفض تمييز رجل يدعى فونبيرتوى في احدى الوظائف لشبهته في أنه جانسنى ، ولكنه وافق على التمييز حين أكدوا له أن الرجل ملحد فقط (٧٩). ولم يستطع قط أن يعترف لراهبات تمدين لأمره بالتوقيع على الصيغة المشددة . وضمانا للقضاء على مركز سخطة هذا في وقت مبكر حظر عليه قبول أعضاء جدد . ووجه نداء للبابا كلنت الحادى عشر لكي يصدر إداة صريحة للجانسنية . وبعد طامين من الإلحاح أطلق البابا مرسوم Vineam Domini (١٧٠٥) ولم يكن باقيا على قيد الحياة في البور — رويال آنثذ سوى خمس وعشرين راهبة ، أصغرهن في الستين . وترقب الملك موتهن بفارغ الصبر .

وفي عام ١٧٠٩ خلف الأب اليسوعى ميشيل تيلبيه البالغ من العمر ستة وستين عاما ، الأب لاشيز ، كاهن اعتراف للملك . فأقر في ذهن لويس — وكان للملك قد بلغ الحادية والسبعين — أن مصير روحه الأبدى رهين بالإبادة الناجزة الكاملة للبور — رويال . وقد احتج كثيرون من الأكايروس العلمانيين على هذه العجلة وفيهم أنطوان دنواى ، رئيس أساقفة باريس ، ولكن الملك تغلب على معارضتهم . وفي ٢٩ أغسطس ١٧٠٩ أحاط الجنيد بالدير ، وأطلع الراهبات على رسالة ملكية مختومة تأمر بتفريقهن فورا ، وسمح لهن بخمس عشرة دقيقة يجتمعن فيها أمتعتهن . ولم يجدسكأوهن ولا دموعهن . فدفعن داخل مركبات وشنتن في مخلف الأديار للمتمثلة التي تبعد من ستين إلى مائة وخمسين ميلا . وفي ١٧١٠ هدمت مبانى الدير الشهير وسويت بالتراب .

ولكن الجانسنية طاشت . لقد مات آرنو ويكول في منفاهما بفلاندر (١٦٩٤ — ٩٥) ، ولكن كاهنا في مصلى باريس يدعى باسكويه كينيل ، دافع عام ١٦٨٧ عن اللاهوت الجانسنى في كتابه « تأملات أخلاقية في العهد الجديد » . وقد زج به في السجن (١٧٠٣) . ولكنه هرب إلى أمستردام .

حيث أسس كنيسة جانسنية . وإذا اكتسب كتابه التأييد الكثير من الأكليروس العلماني الفرنسي ، فقد أقنع لويس البابا كلمنت الحادي عشر بأن يصدر مرسوم Uuigenitus (٨ سبتمبر ١٧١٣) الذي أدان ١٠٤ قضية نسبت إلى كينيل . وقد استاء كثير من الأحرار الفرنسيين من المرسوم لأنه تدخل بابوي في شؤون الكنيسة ، واتحدت الجانسانية مع أحياء للحركة للغاية . فلما مات لويس الرابع عشر ، كان في فرنسا من الجانسنيين أكثر مما كان فيها في أي عهد مضى (٨٠) .

ويصعب علينا اليوم أن نفهم لم انقسمت أمة ، وثار ثائرة ملك ، حول مشا كل عويصة تتصل بالنعمة الآلهية ، والجبرية ، وحرية الإرادة ، ولكننا نسي أن الدين كان له يومها ما للسياسة الآن من أهمية وخطر . وكانت الجانسانية الجهد الأخير الذي بذلته النهضة الأوربية في فرنسا ، والاتفاضة الأخيرة للمصور الوسطى . ونحن إذا تأملناها في منظور التاريخ بدت لنا رجعية لا تقدما . بيد أن تأثيرها في عدة نواح كان تقديميا . فقد كافت حيننا في سبيل قسط من الحرية — وإن كنا سنجد لها في أيام فولتير أشد تمعيبا من البابوية (٨١) . وحدت من شطط الإفتاء الديني . وكات غيرتها على الأخلاق ثقلا نافعا أمام سياسة التراخي في أمور الاعتراف ، تلك السياسة التي ربما شاركت في تدهور الأخلاق الفرنسية . كذلك كان تأثيرها التعليمي طيبا ، وكانت « المدارس الصغيرة » التي أسستها خير المدارس في زمانها . وظهر تأثيرها الأدبي لا في بسكال وحده بل في كورابي باعتدال ، وفي راسين بحبوبة ، وهو تلميذ البور — رويال ومؤرخه . أما تأثيرها الفلسفي فكان غير مباشر وغير مقصود ، ففكرتها عن الله قاضيا بالعذاب الأبدي على الشطر الأكبر من النوع الإنساني — بما فيهم جميع الأطفال غير المعمدين ، وجميع المسلمين وجميع اليهود — لعل هذه الفكرة شاركت في دفع رجال كفولتير وديدرو إلى التمرد على اللاهوت اللسيحي بأسره .

٦- الملك والهيجونوت : ١٦٤٣ - ١٧١٥

لم يكن الملك قد خلس روحه بعد ، فقد بقي في فرنسا ١٠٠٠ ر. ١٥٠٠ من البروتستنت . وكان مازاران قد واصل وطور سياسة ريشليو في حماية حرية الهيجونوت الدينية ما داموا مطيعين سياسياً . أما كولبير فقد أدرك قيمتهم في تجارة فرنسا وصناعاتها . وفي ١٦٥٢ أكد لويس مرسوم نانت (١٥٩٨) الذي أصدره جده هنري الرابع ، وفي ١٦٦٦ أعرب عن تقديره لولاء الهيجونوت خلال حرب الفروند ، ولكن كان يجزئه ألا تتحقق وحدة فرنسا الدينية كما تحققت وحدتها السياسية ، وحوالي ١٦٧٠ كتب في مذكراته فقرة تنذر بالسوء :

« أما عن ذلك العدد الكبير من رعاياي الذين يدينون بما يسمونه المذهب الأصلاحي ، وهو شر ٠٠٠٠ انظر إليه بحزن ٠٠٠ فيخيل إلى أن أولئك الذين أرادوا استعمال ضروب عنيفة من العلاج لم يفتنوا إلى طبيعة هذا الشر ، الذي نجم بعضه عن حرارة في العقول ، والذي يجب أن يترك ليدوى ويموت دون أن يحس به أحد ، بدلا من أثارته من جديد بمثل هذه المقاومات العنيفة . ٠٠٠ وقد آمنت بأن خير سبيل للخفض من عدد الهيجونوت في مملكتي تدريجياً هو أولاً عدم الضغط عليهم اطلاقاً بأى قيد صارم جديد ، والأمر بمراعاة ما حصلوا عليه من أسلافى دون منحهم أكثر منه ، وحتى قصر تنفيذه داخل أضيق الحدود التي تجيزها العدالة واللياقة (٨٢) » .

وفي هذه الفقرة رائحة التعصب المخلص . وهذا رأى ملك مطلق السلطة ، أخذ عن بوسويه شعار « ملك واحد ، وقانون واحد ، وعقيدة واحدة » . فلم يعد ذلك التسامح الذي دان به ريشليو الذي كان يعين لمناصب الدولة الرجال الأكفأ أياً كانت عقيدتهم . ويواصل لويس حديثه فيقول إنه لمن يعين في هذه المناصب سوى الكاثوليك الصالحين ، أملاً بذلك أنه سيشجع المرتدين على الرجوع إلى حظيرة الكاثوليكية .

أما الكنيسة نفسها فلم تسكن قد وافقت قط على التسامح الذي كلفه مرسوم نانت ، ففي ١٦٥٥ طالب مجمع اكليريكي بتفسيراً شديداً لمرسوم . وفي ١٦٦٠ طلب بجمعهم إلى الملك أن يغلّق جميع الكليات والمستشفيات الهيجونوتية ، وأن يحرم الهيجونوت من الوظائف العامة ، وفي ١٦٧٠ أوصى المجمع بأن يعتبر الأطفال الذين بلغوا السابعة من عمرهم قادرين قانوناً على إنكار الطرقة الهيجونوتية ، وأن الذين ينكرونها على هذا النحو ينبغي فصلهم عن آبائهم ، وفي ١٦٧٥ طالب المجمع بأن يعلن بطلان الزيجات المختلطة ، وأن يعتبر نسل هذه الزيجات غير شرعي (٨٣) . وكان رأى بعض رجال الدين الورعين اللطفاء مثل الكردينال ديبرول أن استخدام الدولة لوسائل المنع بالإكراه هو السبيل العملي الوحيد في التعامل مع البروتستنتية (٨٤) ، وألح الخبر تلو الخبر على الملك بهذه الحجة ، وهي أن استقرار حكومته يرتكز على النظام الاجتماعي ، الذي يرتكز على الفضيلة ، التي تنهار إذا لم يدعمها دين الدولة . وشارك العلمانيون الكاثوليك في هذه الحجة ، وأبلغ القضاة الحكومة عن صدمات مكثرة الأمن بين المذهبين المتنافسين في المدن — هجمات كاثوليكية على المدارس والجنازات والبيوت البروتستنتية ، وأعمال انتقام بروتستنتية من نفس النوع .

وشيئاً فشيئاً أذعن لويس لهذه الحملة مخالفاً في ذلك فطراته الأميل إلى الخير ، وإذ كان على الدوام في حاجة للمال ينفقه على الحرب والأناقة ، فقد وجد رجال الدين يقدمون له منحاً كبيرة شريطة أن يقبل آراءهم . ودفعته عوامل أخرى في نفس الاتجاه ، فلقد كان يشجع — بل يرشو — تشارلز الثاني لكي يحول انجلترا إلى الكاثوليكية ، فكيف يتأني في الوقت ذاته أن يسمح بالبروتستنتية في فرنسا ؟ ألم يوافق البروتستنت في صلح أوجزبورج (١٥٥٥) وبعده على المبدأ القائل بأن دين الحاكم يجب أن يفرض على رعاياه ؟ وألم ينف الحكام البروتستنت في ألمانيا وفي الأقاليم المتحدة الأسراني رفضت ديانة الأمير ؟

وكان لويس ، منذ أن بدأ حكمه الفعلي قد أصدر — أو أصدر وزراؤه
بموافقته — سلسلة من المراسيم التي اتجهت إلى إلغاء مرسوم التسامح إلغاء
تاماً . ففي ١٦٦١ حرم على البروتستنت العبادة في معظم مساحة جكس ،
قرب الحدود السويسرية ، بحجة أن جكس ضمت إلى فرنسا بعد صدور
المرسوم ، وكان يعيش في هذا الاقليم سبعة عشر ألف بروتستنتي ، وأربعمائة
كاتوليكي فقط (٨٥) . وفي ١٦٦٤ جعلت الترقية إلى طبقة معلمي الحرف في
الطوائف الصناعية عسيرة إلا على الكاثوليك (٨٦) ، وفي ١٦٦٥ سمح للصبيان
في الرابعة عشرة والبنات في الثانية عشرة بقبول اعتناق الكاثوليكية وترك
آبائهم ، الذين يلزمون عندها بأن يدفعوا لهم راتباً سنوياً لإعالتهم (٨٧) .
وفي ١٦٦٦ حظر على الهيجونوت إنشاء كليات جديدة ، أو الاحتفاظ
بمعاهد لتعليم أبناء الأشراف ، وفي ١٦٦٩ تقرر اعتبار هجرة الهيجونوت
جريمة يعاقب عليها المهاجر بالاعتقال إذا وقع في قبضة السلطات ومصادرة
بضائمه (٨٨) . وكان كل من ساعد هيجونوتياً على الهجرة عرضة للحكم
بتشغيله في سفن الأسرى مدى الحياة (٨٩) . وفي ١٦٧٧ سمح لويس بوقف
« صندوق للمهتدين » تصرف منه مبالغ ، متوسطها ستة جنيهات للفرد ،
لكل هيجونوتي يقبل اعتناق الكاثوليكية . وضماناً لثبات المهتدين على
الكاثوليكية أصدر مرسوماً (١٦٧٩) يقضي بنفي جميع المرتدين ومصادرة
أملاكهم (٩٠) . ثم قطع هذا السيل من التحريمات احتجاج ناخب براندنبورج
وشكاوي كولبير مما تحدته هذه القوانين بالتجارة من كساد ، واشتغال
الملك بمحملاته الحربية ، ولكن تصالحه في ١٦٨١ مع الكاثوليكية ، الأمرة
بالاقتصار على امرأة واحدة ، رده من جديد إلى الحرب المقدسة على
الهيجونوت ، فقال لأحد مساعديه إنه يشعر « بالزام لا محاسن منه بهداية
جميع رعاياه واستئصال شأفة الهرطقة » (٩١) . وفي ١٦٨٢ أصدر خطاباً —
وأمر جميع الرعايا البروتستنت بأن يقرهوه على شعبيهم — بهدفيه الهيجونوت
« بويلات لا تقاس بما سبقها هولا وفتكا » (٩٢) . وخلال السنوات الثلاث
٨ — قصة الحضارة

التالية أغلقت ٥٧٠ كنيسة من كنائس الهيجونوت البالغ عددها ٨١٥ ، وهدم الكثير منها ، وحين حاول الهيجونوت العبادة على أنقاض كنائسهم للهدمة عوقبوا باعتبارهم عصاة متمريدين على الدولة .

وكانت حملات الخيالة dragonnades قد بدأت خلال هذا ، فقد كان من العادات القديمة في فرنسا أن يسكن الجنود في الكومونات أو البيوت وعلى حسابها . واقترح لوفوا وزير الحرب على الملك (١١ أبريل ١٦٨١) إعفاء معتنقي الكاثوليكية الجدد عامين من هذا الإيواء للجنود ، فأصدر للملك الأمر ، وعلى ذلك أمر لوفوا المديرين العسكريين لإقلمي بواتو ولغوزان بأن ينزلوا خيالتهم مساكن الهيجونوت ، لاسيما الأثرياء منهم . وفي بواتو سمح المرشال ماريك لجنوده بأن يفهموا أنه لن يسوء أن يعاملوا مضيفيهم البواسل بشيء من الغيرة الرسولية ، وراح الجنود يسرقون الهيجونوت ويضربونهم ويهتكون أعراضهم ، فلما سمع لويس بهذا الشطط وبخ ماريك ، ولما استمر طرده من وظيفته (٩٣) . وفي ١٩ مايو أمر بوقف هداية الهيجونوت بطريق إيواء الخيالة ، وشجب أعمال العنف التي ارتكبت في بعض الأماكن ضد دعاة الإصلاح البروتستنتي (٩٤) . وأبلغ لوفوا المديرين الإقليميين بأن لهم أن يواصلوا حملات الخيالة ، ولكنه بيدهم إلى ضرورة حجب كل معلومات عن هذا الأمر عن الملك . وانتشرت حملات الخيالة في أرجاء كثيرة من فرنسا ، فأدخلت في الكاثوليكية آلافاً من المهتدين . وأنكرت مدن وأقاليم - كموبيلييه ، ونيم ، وبيارن - مذهبها الكالفيني على بكرة أبيها ، وتظاهر أغلب الهيجونوت باعتناق الكاثوليكية بعد أن أرهبهم الأمر ، ولكن الألوف هجروا بيوتهم وأملاكهم وهربوا عبر الحدود أو وراء البحر متحدين القوائين . وأبلغ لويس أنه لم يبق بفرنسا غير قلة قليلة من الهيجونوت ، وأن مرسوم نانت أصبح بلا معنى . وفي ١٦٨٤ التمس الجمعية العامة للكليروس من الملك إلغاء المرسوم كلية ، وتوطيد ملك يسوع المسيح غير منازع من جديد في فرنسا (٩٥) .

وفي ١٧ أكتوبر ١٦٨٥ ألقى الملك مرسوم ثالث باعتباره مرسوماً
للأزوم له الآن في غرناطة التي تدين كلها تقريباً بالكنتسكة . فحظر منذ ذلك
التاريخ على الهيجونوت إقامة شعائرهم أو فتح مدارسهم ، ونصدر الأمر
بهدم كل أمكنة العبادة الهيجونوتية وتحويلها كنائس كاثوليكية ، وأمر
رجال الدين الهيجونوت بالرحيل عن فرنسا في ظرف أربعة عشر يوماً ،
ولكن هجرة غيرهم من الهيجونوت حرمت وإلا كان عقاب المهاجرين
تشفيلهم في سفن الأسرى مدى الحياة . ووعده المخبرون بنصف بضائع
المهاجرين العلمانيين^(٩٦) ، وقضى بأن يعمد جميع الأطفال المولودين في
غرناطة بواسطة القساوسة الكاثوليك وأن يربوا على المذهب الكاثوليكي ،
ووعدت فقرة أخيرة بالسماح للقله الباقية من الهيجونوت بأن يسكنوا بعض
المدن آمنين . ونفذت المادة في باريس وضواحيها ، وحى رئيس الشرطة
التجار الهيجونوت هناك وطمانهم ، ولم يكن هناك حملات خيالة في باريس
أو قربها ، وكان في وسع المراقص أن تمضي في فرساي ، وفي وسع الملك
أن ينام مطمئناً مرتاح الضمير ، ولكن حملات الخيالة استمرت في كثير
من الأقاليم بتحرير من لوفوا^(٩٧) ، وتعرض الهيجونوت المعاندون للنهب
والتعذيب . يقول الحجة الفرنسي الأكبر في إلغاء مرسوم ثالث :

« لقد أذن للجنود أن يقتلوا كل جريمة إلا القتل . فسكانوا يكرهون
الهيجونوت على الرقص حتى يدركهم الإعياء ، ويقذفون بهم في البطاطين إلى
أعلى ، ويصبون الماء المغلي في حلوقهم ، ويضربون بطون أقدامهم ،
وينتفون لحامهم ، ويحرقون أذرع مضيفهم وسيقانهم بلهيب الشموع ،
ويكرهونهم على أن يقبضوا على الحجر اللاتب بأيديهم ، ويحرقون
أرجل الكثيرين بإمساكها طويلاً أمام نار كبيرة . ويلزمون النساء بأن
يقفن عرايا في الطريق يَحْتَمِلْنَ هزء المسارة واهاناتهم . وقد أوثقوا مرة
أما مرضعا إلى صمود سرير وأمسكوا برضيعها بعيدا عنها وهو يهرخ في
حلب ثديها ، فلما فتحت فمها لتتوسل إليهم بصقوا فيه^(٩٨) . »

ويرى ميشليه أن إرهاب ١٦٨٥ للقدس هذا كان أمتنع كثيرا من إرهاب عصر الثورة في ١٧٩٣ (٩٩). وقد أكرر نحو ٤٠٠.٠٠٠ من « المهتدين » على حضور القداس وتناول القربان ، وحكم على الذين بصقوا قطع القربان للمكرسة بعد مغادرتهم الكنيسة بالحرق احياء (١١٠٠). وزج بالذكور من الهيجونوت للمعاندين في سجون تحت الأرض أو زنايات غير مدفأة . أما نساء الهيجونوت للمعنات في العناد فقد حبسن في الأديار حيث لقين على غير توقع للمعاملة الرحيمة من الراهبات (١٠١).

على أن إقليمين قاوما الإرهاب ببسالة ملحوظة . وسنسمع أبناء القودوا في الدوفينييه الفرنسية ويديمونت السافووية في مكان لاحق من هذا الكتاب . وفي أودية سلسلة جبال السيفين في اللانجدوك احتفظ الألوف من الهيجونوت « المهتدين » بإيمانهم سرا ، مترقبين الوقت والفرصة للتحرر . وقد أكد لهم « أنبيائهم » الذين أدعوا الوحي الإلهي بأن الوقت قد اقترب ، فلما بدا أن حرب الوراثة الأسبانية تستوعب الأسلحة الفرنسية ، شكل الفلاحون جماعات متمردة من « الكاميزار Camisards » الذين ارتدوا القمصان البيض ليميز بعضهم بعضا في الليل . وفي إحدى المعارك قتلوا الأب شيلا الذي كان يضطهدهم بغيرة شديدة ، ففأجام فوج من الجند وذبحهم دون تمييز ، وهدم بيوتهم وخرّب محاصيلهم (١٧٠٢) . وردت بقية منهم على هذا الهجوم بضراوة ، إلى أن اقنعتهم بالصلح وسائل المرشال فيلار النوفيقية .

ومن بين الهيجونوت الذين سكنوا فرنسا في ١٦٦٠ والبالغ عددهم ٤٠٠.٠٠٠ ، فرنحو ٤٠٠.٠٠٠ في العقد الذي تخلله إلغاء مرسوم نانت عبر الحدود المنقورة مغامرين بحياتهم . وطاشت مئات قصص البطولة قرنا بأكله يعد تلك السنين اليائسة . ورحبت الدول البروتستنتية بالمهاجرين فأفسحت جنيف مكانا لأربعة آلاف من الهيجونوت برغم أن سكانها لم يزيدوا على ستة عشر ألفا . وقدم تشارلز الثاني وجيمس الثاني للمعونة للمادية

لهيجونوت على الرغم من كئيبتهما ، وسهلا استيعابهم في الحياة السياسية والاقتصادية الإنجليزية . واستقبلهم ناخب براندنبورج استقبالا وديا حتى أن أكثر من خمس سكان برلين في ١٦٩٧ كانوا فرنسيين وفتحت لهم هواندة أبوابها وبنت مئات البيوت لأيواء الوافدين واقترضهم للمال ليقيموا مصالحهم وكفلت لهم كل حقوق للمواطنة ، وانضم الكاثوليك الهولنديون إلى البروتستنت واليهود في جمع للمال لإغاثة الهيجونوت . ولم يكتف اللاجئون الشاكرون بإتراء الصناعة والتجارة في الأقاليم المتحدة ، بل إنهم تطوعوا في الجيوش الهولندية والإنجليزية التي خاضت القتال ضد فرنسا ، ورافق بعضهم وليم الثالث أو تبعه إلى إنجلترا ليساعده على جيهس الثاني . أما المرشال شومبيرج الكلفنى الفرنسى الذى أحرز انتصارات للويس الرابع عشر من قبل فقاد جيشا إنجليزيا ضد الفرنسيين ومات وهو يهزمهم في معركة البوين (١٩٦٠) . وفي كل بلد من هذه البلاد المضيفة جلب الهيجونوت مهاراتهم في الحرف والتجارة والمال ، وأفادت أوروبا البروتستنتية كلها من انتصار الكاثوليكية في فرنسا . وشغل صناع الحرير الفرنسيون حيا بأكله من أحياء لندن ، وأصبح المنفيون الهيجونوت في إنجلترا شراح الفسك الإنجليزي ومترجميه لفرنسا ، فهدوا بذلك لغزو يسكون «ويوتن ولوك للعقل الفرنسى .

واستنكرت قلة من الكاثوليك الفرنسيين سرا تلك المذابح التى رافقت إلغاء المرسوم ، وأمدوا كثيرا من المضحايا بالمعونة وقدموا لهم المأجأ خفية . ولكن الكثرة العظمى هلت للقضاء على الهيجونوت باعتباره قوة إنجازات الملك ، وقالوا أن فرنسا أصبحت الآن ، فى النهاية ، بلدا كاثوليكيا موحدا . وأثنى كبار الكتاب أمثال بوسويه وفنيلون ولافوتين ولا بروبير ، وحتى الأب الجانسنى آرنو ، على شجاعة الملك فى تنفيذ ما خالوه إرادة الأمة . وكتبت مدام دسفينيه تقول « ليس هناك أبدع ولا أروع . ولم يصنع

ملك ولن يصنع شيئاً أخله من هذا (١٠٢) . أما لويس نفسه فأسعده أن
يكل - كما خيل إليه - عملاً ثقيلاً ولكنه مقدس . يقول سان سيمون :-

« لقد آمن أنه جدد عهد تبشير الرسل الأولين . وكتب الأساقفة
للدائع التي تشيد به ، وجعل اليسوعيون المنابر تتغنى بالثناء عليه ...
ولم يكن يسمع غير الاطراء بينما كان الكاثوليك والأساقفة الاتقياء
الصادقون يثنون بالروح إذ يرون الكاثوليك السنين ينحرفون إلى الخطأ ،
والمهرطقين يسلكون مسلك الطغاة الخوارج ، 'والوثنيين يحاربون الحق
والمؤمنين المجاهرين بإيمانهم والشهداء . ولم يستطيعوا أن يطيقوا هذا السيل
من الحنث وتدنيس المقدسات (١٠٣) » .

وكان سان - سيمون وفوبان من الفرنسيين القلائل الذين أدركوا منذ
البداية تلك الخسارة الاقتصادية التي ألحقها بفرنسا نزوح هذا العدد الكبير
من المواطنين السكادحين . وفقدت كان صناعة نسيجها ، وتور ثلاثة أرباع
أنوال الحرير فيها . ومن بين الستين مصنعا للورق في إقليم أنجوميوا لم يبق
سوى ستة عشر ، ومن بين ١٠٩ متجر في مدينة ميزير لم يبق سوى
ثمانية ، ومن بين أربع مائة مصبغة في تور لم يبق سوى أربع وخمسين (١٠٤) .
واضحلت ثغور كرسيليا لفقدها الأسواق في بلاد أصبحت الآن بفضل
جهود الهيجونوت وإرشادهم تلتج ما كانت من قبل تستورده من فرنسا .
وقضى جزئياً على حركة التعمير الكبرى التي أدخلها كولبير على الاقتصاد
الفرنسي ، ونزحت الصناعات التي جاهد في سبيل تنميتها في فرنسا لتغذي
منافسيها . ولما هبطت إيرادات الدولة من الصناعة هبوطاً حاداً وقعت
الحكومة من جديد في أيدي المرابين الذين انقذها كولبير من برائتهم .
وفقدت البحرية الفرنسية تسعة آلاف بحار ، والجيش ستائة ضابط واثني
عشر ألف جندي ، ولعل نضوب البحرية والجيش على هذا النحو كان من
عوامل الهزائم التي أوشكت أن تحطم فرنسا في حرب الوراثة الأسبانية -

كذلك شددت همجية الاضطهاد الرهيبة واستغاثات المهاجرين من عزيمة أوروبا البروتستنتية على الاتحاد ضد فرنسا .

على أن إلغاء المرسوم ربما كان مميّناً غير مباشر للفنون والعادات ولطائف الحياة في فرنسا . ذلك أن الروح الكلفنية المتشككة في الوثنية والصور المنحوتة والمرح الطائش ثبّطت الفن والأناقة والظرف ، ولو أن فرنسا أصبحت بيوريتانية لسكانت شذوذاً وخطأ . ولكن إلغاء المرسوم كان كارثة على الدين الفرنسي . لقد لاحظ بيكون من قبل أن مشهد الحروب الدينية كان خليقاً بأن يجعل لوكريتوس — لو رآه — « سبعة أضعاف ما كان أبيقورية » وإلحاداً (١٠٥) . « فماذا تراه كان قائلاً الآن ؟ لم تبق نقطة توفف للعقل الغالى بين الكاثوليسكية والإلحاد . وبينما أفادت البروتستنتية في سويسرة وألمانيا وهولندة وأنجاة في الإعراب عن الفرد على الكنيسة ، لم يبق في فرنسا أداة استنكار كهذه . فوجدت حركة الانتقاص على الرومانية أنه أيسرها أن تكون شكاً خالصة من أن تكون بروتستنتية سافرة . وانتقلت النهضة الفرنسية ، غير المعوقة من البروتستنتية ، رأساً إلى حركة التنوير بعد موت الملك .

٧ - بوسويه : ١٦٢٧ - ٨٨

بيد أن الكنيسة الفرنسية كانت ظافرة ولو مؤقتاً ، وتربعت على عرشها وسلطانها . وكانت رغم ماشاب روحها الجماعية من تعصب ، وما عاب سلطتها من فسوة ، تظم أرقى نخبة من الرجال في أوروبا تعليماً ، وكان قديسوها ينافسون طغاتها . وكان من أسافقتها نفر ذوو نزعة إنسانية ، عاكفون في إخلاص على الخير العام كما رأوه . ودخل اثنان منهم الأدب الفرنسي دخولا شارفاً في سنائه دخول بسكال ، وكان في زمانهما أكثر بروزاً . وقلما تجد بين رجال الكنيسة الفرنسيين من ضارح في سمعته بوسويه ، أو فنيون في شعبيته .

أما جاك بنين بوسويه (واسمه الأوسط Bèligno — أى اللطيف — كان أنسب لفنيون) فقد ولد في أسرة ثرية لحمام بارز وعضو في برلمان ديجون (١٦٢٧) . نذره أبواه للقسوسية ، وجز شعر رأسه في الثامنة ، وحين بلغ الثالثة عشرة عين كاهناً في كاتدرائية متز . وفي الخامسة عشرة أرسل إلى كلية نافار بباريس . وفي السادسة عشرة كان قد بلغ من الفصاحة منزلة حملت نساء الأوتيل درامبوييه المثقفات على إقناعه بأن ياتى عليهن عظة في منتصف سهرة الصالون رغم ما طبع عليه من كبرياء مقترنة بالخبجل . وبعد أن تخرج بمرتبة الشرف عاد إلى متز ورسم قسيساً وتقدم بعد قليل لنيل درجة الدكتوراه في اللاهوت . وقد راعه أن يجهد أن عشرة آلاف من بين الثلاثين ألف نفس في متز كانوا من البروتستنت الهالكين . ودخل في جبل مهندب مع بول فيري الزعيم الهيجونوتي ، وقد سلم له ببعض المفاسد في الممارسات الكاثوليكية ، ولكنه زعم أن الانشقاق رغم ذلك شر أعظم . وظل على علاقات ودية مع فيري اثنتي عشر سنة ، تماماً كما سترام في فترة لاحقة يجاهد جهاداً حقيقياً مع ليننتز في سبيل إعادة توحيد العالم المسيحي . ولما سمته آن النمساوية يعظ في متز خيل إليها أنه أرقى من تلك البيثة التي لا تليق بمواهبه ، وأقنمت الملك بأن يدعوهُ إلى باريس ، فانتقل إليها في ١٦٥٩ .

ووعظ أول الأمر جماهير بسيطة في دير سان لازار برعاية فانسان ديبول . وفي ١٦٦٥ وعظ جمهوراً عصبياً في كنيسة « لي مينيم » قرب البلاس رويال . وسمعه الملك ، فتبين في الخطيب الشاب مزيجاً متوازياً من البلاغة ، وانتقامه العقيدة ، وقوة الخلق . فدعاه لإلقاء عظات الصوم الكبير في ١٦٦٢ باللوفر ، واختلف إلى هذه الخطب في تقوى واضحه ، اللهم إلا في ذلك الأحد الذي انطلق فيه على جواده مسرماً ليستردي لوز دلا ظالير من الدير . وحفز حضور الملك هذه العظات بوسويه على أن ينق أسلوبه من الجلافات الريفية ، والاستشهادات السكولاستية ، والحجج الجدلية .

ذلك أن أفاقة البلاط انتقلت إلى كبار الأكليروس ، فأثمرت عهداً من البلاغة المنبرية ينافس البلاغى القانونية التى اشتهر بها ديموستين وشيشرون . وفى أثناء السنوات الثمانية التالية وفق بوسويه فى أن يكون الخطيب المفضل فى كئناس القصر ، ثم أصبح المرشد الروحى لعدد من كبريات النبيلاب مثل هنرييتا « مدام » دورليان ؛ ومدام دلونجفيل ، ومدموازيل دموبانسيه (١٠٦) وكان فى بعض عظاته يوجه الخطاب إلى الملك مباشرة ، مقالياً فى تملقه عادة ، ولكنه دعاه مرة بجمارة إلى أن يهجر زناه وفجوره ويمود إلى زوجته . ففقد برهة رضاه الملك ، ولكنه استرده حين هدى تورين إلى الكاثوليكية . وفى ١٦٦٧ اختاره لويس ليؤن أن المساوية فى مآتمها ، وبعد عامين ألقى عظه فوق جثمان هنرييتا ماريا ملكة انجلترا الأرملة ، وفى ١٦٧٠ اضطلع بواجب أليم هو تأيين هنرييتا الصغرى ، تائبته المحبوبة التى فاضت روحها بين ذراعيه فى فتنة صباها التى لم يكتب لها بقاء طويل .

والمظتان اللتان ابن بهما تشارلز الثانى ملك انجلترا وأخته هما أشهر العظات قاطبة فى الأدب الفرنسى — لأن خطاب البابا أوربان الثانى الذى مازال يفوقهما شهرة ، والذى استنفر فيه أوروبا إلى الحرب الصليبية الأولى (١٠٩٥) — هذا الخطاب كان باللاتينية وإن ألقى على أرض فرنسية . واستهل بوسويه أول هذين التأيينين بموضوعه الجرىء المفضل ، وهو أن على الملوك أن يتعلموا من دروس التاريخ ، وأن الانتقام الإلهى سوف يحمل بهم إن لم يستعملوا سلطتهم لخير الشعب ، ولكنه بدلا من أن يرى فى تشارلز الأول ملك انجلترا مثالا على هذا العقاب ، لم يجد فيه عيباً سوى فرط رأفته ، ولم يجد عيباً على الاطلاق فى زوجته الوفية ، فصور الملكة للتوفاة قديسة . باهدت تهدى زوجها وانجلترا إلى الكاثوليكية . ثم استطرد بإسهاب فى موضوع آخر محبب إلى نفسه ، وهو تكاثر الملل والنحل البروتستنتية التى لا حصر لها ، وفوضى الأخلاق المنبعثة من اضطراب العقيدة ، وقال : إن « التمرد لكبير » كان عقاباً إلهياً على مروق انجلترا

من كنيسة روما ، ولكن ما كان أروع سلوك الملكة بمد إعدام زوجها على هذا النحو الإجرامى الرهيب ! لقد تقبلت أحزانها ككفارة وبركة ، وحمدت الله عليها وعاشت أحد عشر عاماً في صلاة متواضعة صابرة ، وأخيراً أنيبت على تمها ، فرد ابنها إلى عرشه ، وكان في وسع الملكة الأم أن تسكن القصور من جديد ، ولكنها آثرت عليها ديراً في فرنسا ، ولم تستعمل ثروتها الجديدة إلا في الاستكثار من أعمال البر .

وكان أشد من هذه تأثيراً وأوثق قرباً للتاريخ وللذكريات الفرنسية تلك العظة التي ألقاها بوسويه بمد عشرة شهور فوق جنان هنرييتا آن . وكان قد رسم قبيل ذلك أسقفاً لكومدوم في جنوب غربى فرنسا ، ومن أجل هذا الخطاب جاء إلى كنيسة دير سان — دنى في كل بهائه الأسقى ، يتقدمه المنادون ، وعلى رأسه تاج الأسقفية ، وفي أصبعه تتألق الزمردة الكبيرة التي أهدته إياها يا الأميرة المتوفاة . وفي مثل هذه المظان كان يجد من انفعال الخطيب تفكيره في الموت في صورة طامة ، أما الآن فقد كان الموت موت واحدة كانت حتى الأمس القريب مسرة الملك وبهاء البلاط ، وأجش الخبر الجليل بالبكاء وهو يذكر كيف فوجئ القوم مفاجأة ألمة بهذه اللطمة التي جعلت فرنسا كلها تنوح وتتعجب من طرق الله . ثم وصف هنرييتا لابل موضوعية فائرة ، بل بتحيز المحبة — « لقد كانت على الدوام لطيفة مسالمة صمحة خيرة (١٠٧) » — واكتفى بالإلماع في إيجاز حكيم إلى أن سعادتها لم تتكافأ مع فضائلها . ثم تجاسر حتى هذا الأسقف الأريب ركن السنية الركين وحارسها الأمين — تجاسر لحظة على أن يسأل الله لم يزد هر كل هذا النمر والظلم على الأرض (١٠٨) . ثم عزى نفسه وجمهوره بذكري تقوى هنرييتا في احتضارها ، وبالأسرار المقدسة التي طهرتها من كل حلاقاتها الأرضية ، فلا ريب إذن أن روحاً رقيقة مطهرة كروحها تستحق الخلاص ، بل إنها لتزين الفردوس نفسه !

وبسبب خطأ نادر في الحكم على الأخلاق حين لويس بوسويه (١٦٧٠)

معلماً للدوطان ، متأثراً في ذلك ببلاغته تلك - وعهد إليه بتدريب ذلك الصبي المتخلف ، المتبلد الحس ، على المعرفة والخلق اللازمين لحكم فرنسا . وانصرف بوسويه مخلصاً لهذه المهمة . فاستقال من أسقفيته ليكون قريباً من تلميذه القاصر ومن البلاط ، وكتب للويس الصغير كتيبات جادة في تاريخ العالم والمنطق والإيمان المسيحي والحكم وواجبات الملك ، مما كان خليقاً بأن يجعل من الصبي هولة من الكمال والقوة .

وفي إحدى هذه المقالات المسماة « السياسة مستقاة من كلام الأسفار المقدسة » (١٦٧٩ - ١٧٠٩) دافع بوسويه عن الملكية المطلقة وحق الملوك الإلهي بغيرة فاقت غيرة الكردينال بيلارمين في تأييده لسيادة البابوات . ألم يكتب في العهد القديم أن « الله أعطى لكل شعب حاكمه » (١٠٩) وفي العهد الجديد بكل سلطان القديس بولس « إن السلاطين مرتبة من الله (١١٠) ، أجل ، ولقد أضاف الرسول قوله « إذن فكل من يقاوم السلطة يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة » . واضح إذن أن كل من يقبل الكتاب المقدس كلمة الله يجب أن يكرم الملك باعتباره خليفة لله ، أو كما قال أشعيا النبي عن كورش إنه « مسيح الرب (١١١) » . إذن فشخص الملك مقدس ، وسلطة الملك مقدسه ومطلقة ، والملك لا يسأل إلا أمام الله . ولكن هذه المسئولية توضع على عاتقه التزامات قاسية . فعليه في كل لفظ وعمل أن يطيع قوانين الله ، ومن حسن حظ لويس أن إله التوراة كان عطوفاً على تعدد الزوجات .

كذلك كتب بوسويه للدوطان (١٦٧٩) كتابه الشهير « حديث عن تاريخ العالم » . ذلك أنه حين روعه إلماع ديكرت إلى أن جميع الأحداث في العالم للويعي - إذا افترضنا لها دفعة مبدئية من الله - يمكن أن تفسر آلياً بأنها منبعثة من قوانين الطبيعة ودستورها ، رد عليه بأن كل حدث كبير في التاريخ إنما هو - على التقريب من ذلك - جزء

من خطة إلهية ، ومعمل من أعمال العناية الإلهية أفضى إلى ذبيحة المسيح . ونمو المسيحية لتصبح « مدينة متسعة لله » . وتناول الكتاب المقدس ثانية . باعتباره موحى من الله ، فركز التاريخ كله على سيرة يهود العهد القديم والأمم التي أنارتها المسيحية . « لقد استخدم الله الأشوريين والبابليين ، ليعاقب شعبه المختار ، والفرس ليردم إلى وطنهم ، والاسكندر ليجمعهم ، وأنطيوخس ليمتحنهم ، والرومان ليصونوا حرية اليهود ضد ملوك سوريا » . فإذا بدا لنا في هذا الرأي إحماقة ، فان علينا أن نذكر أنه كان أيضا رأى كتاب التوراة الذين وحد بوسويه بينهم وبين الله في ثقة . ومن ثم فقد بدأ بملخص لتاريخ العهد القديم ، وقام بهذه المهمة بما عرف عنه من ولع بالنظام والإيجاز وقوة البلاغة . واعتمد ترتيبه الزمني على تقويم أوشير رئيس الأساقفة ، فأرخ الخليقة بسنة ٤٠٠٤ و مر بوسويه مرور الكرام بتلك الأمم التي لم يشر إليها الكتاب المقدس ، ولكنه وصفها وصفا مجلانيا على بصيرة وقوة ملحوظتين ، وأبدى فهما عطوفا للفضائل والإنجازات الوثنية . وقد رأى بعض التقدم خلال مشكال الإمبراطوريات الصاعدة والساقطة ، واتخذت فكرة التقدم جسدا ولحا في كتاباته ، وكذلك في كتابات شارل بيرو وغيره من للدافمين المعاصرين عن المحدثين ضد القدامى ، ومهدت الطريق من بعيد لطورجر وكوندرسيه . وخلق الكتاب رغم كل عيوبه الفلسفة الحديثة للتاريخ ، وحسب رجل واحد أن يحقق إنجازا كهذا .

على أن الأمير تلميذ يوسويه لم يقدر شرف تأليف السكتب العظيمة لتعليمه . فقد كان في روح بوسويه من الجد والصرامة مالا يجعله المعلم الاعايف المرضي . وكان أنسب لطبيعته أن يرشد في رفق لويز دلافالير لتهرب من حياة الزنا إلى الدير ، وقد ألقي العظة حين قطعت على نفسها عهد الرهبنة . وفي ذلك العام (١٦٧٥) جاهر ثانية بلوم للملك الزير ، واستمع إليه لويش في صبر نافذ ، ولكنه أهاده لمنصب الأسقفية وعينه أسقفا على مو (١٦٨١)

على قرب من فرساي ينيح له أن يتذوق نغامة البلاط وبهائه . وكان طوال ذلك الجيل للتكبر ، الشارح والقائد العمدة للاكليروس الفرنسى . وقد وضع لأجلهم « للمواد الأربع » التى أكدت من جديد « الحريات الغالية » للكنيسة الفرنسية إزاء السيطرة البابوية . ولقد أفقده عمله هذا قبعة الكردينالية ، ولكنه أصبح بابا فرنسا .

ولم يكن بالبابا السيئ . فهو مع إصراره على كرامة الأسقفية ورعاية مراسمها ظل رحيمًا لطيفًا ، وبسط عبادة فوق ألوان كثيرة من المعتقد الكاثوليكي . وقد وافق بسكال على إدانة الشطط الذى تورط فيه الإفتاء . إلهى دون أن يغتفر له السخط والاحتقار اللذين إلهبا رسائله الإقليمية . فى ١٧٠٠ أوقع جمعية الاكليروس العامة باستنكار ١٢٧ قضية أخذت من فتاوى للمفتين اليسوعيين ، وقد ظل على علاقات ودية مع آرنو وغيره من الجانسنين . وذاع عنه أنه كان متسامحًا فى كرسى الاعتراف ، وأنه استنكر مظاهر التقشف فى اللمانيين ، ولكنه أطرى بجمرة نيك رانسيه ، وكان يختلف بين الحين والحين إلى خلية فى لاتراب ، ويتمنى أحيانًا أن يظفر بسلام صومعة الراهب . ولكن بريق البلاط غلب طموحه للقداسة ، ولوث لاهوته بأطماع الارتقاء فى مراتب الكنيسة والدولة . وقد توسل مرة إلى رئيسة الدير فى موقائلا : « صلى لأجل لكىلا أحب العالم (١١٢) » . وقد أصبح أشد إصرامة فى أخريات أيامه . وعلينا أن نعتفر له تنديده بالمسرحيه وبموليير فى كتابه « حقائق عامة عن الملهاة » (١٦٩٤) لأن موليير لم يعرض الدين إلا فى صورته للزمتة المناققة ، ولم ينصف رجالًا مثل فانسان ديول .

كان بوسويه أشد تمصبًا نظريًا منه عمليًا . فقد رأى أن من السخف أن يظن أى ذهن فردى مهما هظم ذكاؤه أنه يستطيع أن يكتب فى عمر واحد من المعرفة والحكمة ما يؤهله للجلوس فى كرسى القضاء ليحكم على

تقاليد ومعتقدات الأسرة والمجتمع والدولة والكنيسة . فالحس المشترك « Sens commun » أجدر بالثقة من التفكير الفردي ، ولا يعنى الحس أو الإدراك المشترك فكر الأشخاص العاديين ، بل الذكاء الجماعى لأجيال علمتها قرون من الخبرة ، والذكاء الذى يتمثل فى أعراف النوع الإنسانى ومعتقداته . فنذا الذى يستطيع أن يزعم أنه يعرف خيرا من هؤلاء جميعا حاجات النفس البشرية والإجابات عن الأسئلة التى لا تستطيع المعرفة وحدها أن تجيب عنها؟ وبترتب على هذا أن الذهن البشرى فى حاجة إلى سلطة تعطيه السلام، والتفكير الحر لا يستطيع إلا أن يدمر ذلك السلام ، والمجتمع البشرى فى حاجة إلى سلطة تعطيه الأخلاق ، ولكن التفكير الحر بتشككه فى المصدر الإلهى للقانون الخلقى إنما يهدم النظام الأخلاقى برمته . فالهرطقة إذن خيانة للمجتمع والدولة كما أنها خيانة للكنيسة ، و«الدين يؤمنون بأن الملك ينبغى ألا يستعمل القوة فى أمور الدين . . . يرتكبون خطأ مجانباً للتقوى (١١٣) » ولقد أثار الأسقف الإقناع على الإكراه فى هداية المهرطقين ، ولكنه دانع عن الإكراه باعتباره الملاذ الأخير ، ورحب بإلغاء مرسوم نانت لأنه « المرسوم الودع الذى سيكيل للهرطقة الضربة القاضية . . . ونفذ القانون فى إقليمه بكثير من التسامح ، حتى لقد كتب الناظر الملكى يقول « ليس فى الإمكان عمل شئ فى أمتقنية مو ، لأن ضعف الأسقف يقف عقبة فى سبيل هداية الهيجوات (١١٤) » . وقد ثبت معظم الهيجونات فى تلك المنطقة على مذاهبهم .

وكان إلى النهاية يعمل نفسه بأن الحجة قادرة أن تسكب حتى هولندة وألمانيا وإنجلترا وتردها للإيمان القديم . وسنراه يفاوض لايبنتز سنوات عديدة على خطة الفيلسوف التى اقترحها لإعادة توحيد القطاعات المنشقة من المسيحية . وفى ١٦٨٨ كتب رائعتة « تاريخ ملل الكنائس البروتستنتية » — وهو الذى قال « بكل » إنه « ربما كان أخطر كتاب وجه ضد البروتستنتية (١١٥) . وقد تميزت مجلداته الأربعة بالدراسة الشاقة ، وكانت كل صفحة فيها تدعم بالمراجع ، وهولون من الأمانة كان بدأ يتجسد .

وبذل الأسقف في كتابه محاولة ليكون منصفاً . فلم بمفاسد الكنيسة التي تمرد عليها لوثر ، ورأى الكثير مما يستحق الإعجاب في خلق لوثر ، ولكنه لم يستطيع أن يسيغ الفظاظة المبتهجة التي اختلطت في لوثر بالبسالة الوطنية والتقوى الرجولية . ثم صور ملائكتون بصورة تكاد تكون صورة الحب . غير أنه كان يأمل في تفكيك ولاء أتباع هؤلاء المصلحين لهم باظهار مواطن ضعفهم الشخصي وخلافاتهم اللاهوتية وقد هزأ بالفكرة التي زعمت أن لسكل إنسان الحرية في تفسير الكتاب المقدس لنفسه وتأسيس دين جديد على قراءة جديدة له ، فشكل من خبر الطبيعة البشرية يستطيع أن يتنبأ بأنه لوترك هؤلاء الحبل على الغارب لآسفر هذا عن تفتيت المسيحية إلى متاهة من الملل والنحل ، وتفتيت الأخلاق إلى فردية لا يستطيع أن يكسح جراح غرائز الغاب فيها سوى الاستكثار من الشرطة استكثاراً لأنهاية له . فن لوثر إلى كالفن إلى سوكينوس — من رفض البابوية ، إلى رفض سر القربان إلى رفض المسيح — ثم من التوحيد (رفض التثليث) إلى الإلحاد ، تلك هي الدرجات الهابطة شيئاً فشيئاً إلى انحلال الإيمان . ومن الثورة الدينية إلى الثورة الاجتماعية ، ومن رسائل لوثر إلى حرب الفلاحين ، ومن كالفن إلى كرمويل إلى « المسوين » إلى قتل الملك ؛ تلك درجات منزلة في تحلل النظام الاجتماعي والسلام . ولا يستطيع سوى دين ذي سلطان أن يعطى الوازع للأخلاق ، ويمنح الاستقرار للدولة ، ويسلح الروح البشرية بالقوة وهي تواجه الحيرة وفقد الأحياء والموت .

لقد كان الكتاب حجة قوية ، شديدة التأثير بما حوت من ثقافة وبلاغة ، محتوية على صفحات لا ضريب لها في نثر ذلك العصر الفرنسي إلا في جدليات بسكال العنيفة و « خواطره » ، ولولا أن التجاهد للعقل قد أحبطه التجاؤد للقوة في فظاظات إلغاء المرسوم لحقق نجاحاً أعظم . فقد ظهرت في الدول البروتستنتية عشرات الردود المفندة لحجج الكتاب تشجب بقوة ذلك

التظاهر بالاحتكام إلى العقل في رجل حبذ النهب والسلب والنفي والمصادرة والاسترقاق في سفن تشغيل الأسرى حججاً للدفاع عن المسيحية الكاثوليكية. وتساءل أصحاب الردود ألم يكن هناك ملل مختلفة في الكاثوليكية أيضاً؟ وأي قرن خلا من الانقسامات في الكنيسة - من الكاثوليك الرومان ، والكاثوليك اليونان ، والكاثوليك الأرمن ، والكاثوليك الشرقيين؟ وألم يكن جانسنيو البور - رويال في تلك اللحظة يقتتلون مع إخوانهم من الكاثوليك أعضاء جماعة يسوع؟ وألم يكن الأكليروس الغالي بزطامة بوسويه نفسه في نزاع مر مع دعاة سلطان البابوية المطلق كاد يبلغ حد الانشقاق على روما؟ وألم يكن بوسويه يقاتل فنيلون؟

٨ - فنيلون . ١٦٥١ - ١٧١٥

كان فرانسوا دسالتنيك دلاموت - فنيلون ، النبيل المولد ، الثلاثي الاسم ، كبوسويه سنياً طموحاً ، أسقفاً ورجل بلاط ، ومملها لأمير من البيت للمالك ، وكاتباً من خول النثر . ولكنه في غير ذلك كان بينه وبين بوسويه ما بين السماء والأرض من تباين . كتب سان - سيمون معرباً عن إعجابه بالرجل يقول :

« رجل طارح القوام نحيل الجسد قوى البنية شاحب الوجه كبير الأنف له عينان تقدحان الشرر والذكاء . في سحنته ما يوحى بأنها تتألف من متناقضات ، ومع ذلك ، فإن هذه المتناقضات على نحو ما لا تؤذي الناظر . فوجهه أبيض وقور ، رزين مرح ، يطالعك منه اللاهوتي والأسقف والنبيل على السواء ، وفي هيئته كما في شخصه يرى الناظر قبل كل شيء رقة وتواضعاً وقدراً ثابتاً من رفعة الذهن . لقد كان مسيراً على الناظر إليه أن يحول عينيه عن وجهه (١١٦) » .

وعند ميشليه أن « فيه شيئاً من الشيخوخة منذ ولادته (١١٧) » -

لأنه كان نعمة الازدهار الأخير لإقطاعى مكتمل في بيريجوز تزوج آنسة نبيلة رغم فقرها : ضارباً صفحاً عن تدمير أبنائه الكبار ، وأقصى الابن الجديد عن المال بنذره للكنيسة . وربته أمه ، فشب على أناقة في الحديث ورهافة في الحس أشبه باناقة حديث النساء ورهافة حسبن . وقد أحسن تنقيفه في الآداب القديمة على يد معلم خاص ويسوعى باريس ، فأصبح أديباً لا قسيساً فحسب . وكان في استطاعته أن يبارى أى مهرطق في الاستشهاد بأقوال الوثنيين ، ويكتب الفرنسية بأسلوب حساس مرهف مهذب هو نقيض أسلوب بوسويه الخطابى ، الفحل ، الجزل

رسم كاهنا في الرابعة والعشرين (١٦٧٥) ، وسرمان مارتى رئيساً لدير « الكاثوليك الجدد » . وهناك اضطلع بمهمة شاقة هي رد الشابات اللاتى أبعدن عن البروتستنتية حديثاً إلى حظيرة الإيمان الكاثوليكى . وقد استمعن إليه أول الأمر على مضض ، ثم في استسلام ، ثم في محبة ، لأنه كان يسيراً على المرء أن يقع في غرام فنيون ، ثم إنه الرجل الوحيد المتاح لمن . وفي ١٦٨٦ أرسل إلى إقليم لاروشل ليعاون على هداية الهيجونوت . وقد حبذ مرسوم الإلغاء ، ولكنه استنكر العنف ، وأنذر وزراء الملك بأن هداية الناس بالإكراه لن تكون إلا سطحية ومؤقتة . ولما طاد إلى الدير بباريس نشر (١٦٨٧) « رسالة في تعليم البنات » تكاد تستشف فيها روح روسو في دفاعها عن الوسائل اللينة في التربية . ولما عين الملك الدوق دوفيليه مربيّاً لحفيده دوق برجنديه ، البالغ من العمر ثمانية أعوام ، طلب إلى فنيون أن يتولى تعليم الصبي (١٦٨٩) .

أما الدوق الصغير فكان متكبراً عنيداً مشبوب العاطفة ، في طبعه أحياناً شراسة وقسوة ، ولكنه أوتى ذهنك متألقاً وذكاء متوقداً . وأحس فنيون أن الدين وحده هو الكفيل بترويضه ، فأشربه مخافة الله ومحبتة معاً ، واكتسب في الوقت نفسه احترام تلميذه بأخذه بنظام حازم خفف معه — قصة الحضارة

من شدته فهم عطوف لدور المراهقة . وقد راودته الأحلام باصلاح فرنسا عن طريق تربية ملكها للمستقبل . فعلم الغلام سخافة الحرب ، وضرورة النهوض بالزراعة بدلا من تثبيط هم الفلاحين بالضرائب تيجي لبناء المدن الباذخة والتمويل الحروب المدوانية . وفي كتابه « حوارات الموتي » الذي ألفه لتلميذه ، وسم بالهمجية « تلك الحكومة التي لا قوانين فيها غير ارادة رجل واحد ٠٠٠ فالحاكم ينبغي أولا وقبل كل شيء أن يكون مطيعا للقانون ، فاذا ابتعد عن القانون لم يعد لشخصه قيمة » . وكل الحروب حروب أهلية ، لأن الناس جميعا أخوة ، يدين كل منهم للنوع الإنساني — وهو الدولة الكبرى — بدين أعظم كثيرا من دينه للبلد الذي ولد فيه (١١٨) . أما الملك ، الذي لم يكن ضالعا في هذا التعليم الذي لا تفهمه غير القلة ، والذي رأى تحسنا عجيبا في خلق حفيده ، فقد كافأ فنيون برئاسة أسقفية كامبريه (١٦٩٥) . وأخجل فنيون أبحارا كثيرين باقامته تسعة أشهر من كل عام في مقر رئاسته الدينية . أما الشهور الباقية فكان ينفقها في البلاط تواقا للتأثير في السياسة ، مواصلا أحيانا تعليم الدوق .

وخلال ذلك كان قد التقى بالمرأة التي قدر لها أن تكون « المرأة القاضية عليه » بمعنى الكلمة . هذه المرأة ، واسمها مدام جان ماري دلاموت — جويون ، التي تزوجت في السادسة عشرة ، وترملت في الثامنة والعشرين وهي جميلة غنية ، تهافت الخطاب على طلب يدها ، ولكنها كانت قد تلقت تدريرا دينيا مكثفا ليجمعها ضد الرجال الطامعين ، ولم تجد لتقواها منصرفا كافيا في المراعاة الصورية لشعائر العبادة الكاثوليكية ، فاستممت في تجاوب لمتصوفة زمانها الذين وعدوا بسلام النفس — لا بالاعتراف والتناول والقداس بقدر ما هو بالاستغراق في تأمل إله كلي الوجود ، وفي استسلام النفس لله استسلاما كاملا محبا . في مثل هذه المحبة الالهية لم يعد لأمور الدنيا وزن ، وفي مثل هذا التسامي الروحي يجوز للمرء أن يهمل كل الطقوس

الدينية ومع ذلك يرقى إلى السماء ، لا بعد الموت فحسب بل في الحياة أيضاً .
وكانت محكمة التفتيش قد أدات القس الأسباني ميجويل دى مولينوس
(١٦٨٧) لأنه بشر بـ « هدوية » كهذه في إيطاليا ، ولكن الحركة
كانت تنتشر في جميع أرجاء أوروبا - في « تقوية » ألمانيا والأراضي المنخفضة ،
وبين الكويكرز وأفلاطوني كبردج بأنجلترة ، وبين « المنذرين »
في فرنسا .

وقد بسطت مدام جويون آراها في عدة كتب بلاغة مؤثرة . فرضت
أن النفوس أشبه بالسيول التي انبثقت من عند الله وأنها لن تجد الراحة حتى
تفني نفسها فيه تعالى كأنها الأنهار يبتلعها البحر ، فإذا الفردية تتلاشى ،
وإذا الوعي بالذات أو بالعالم ، بل الوعي كله ، ينتهى ولا يبقى غير الاندماج
في الله . في مثل هذه الحال تكون النفس معصومه ، لا ينال منها خير
ولا شر ، ولا فضيلة ولا خطيئة . فهما فعلت ففعلها صواب ، ولا تستطيع
قوة أن تؤذيها . وقالت مدام جويون لبوسويه أنها لا تستطيع أن تطلب
المغفرة على ذنوبها ، لأنه لا ذنوب في عالم الوجد الصوفى الذى تعيش
فيه (١١٩) . ورأت بعض نساء الطبقة الأرستقراطية في هذه الصوفية لونا
رفيعا من التقوى . وكان من بين مريديها السيدات بوفيليه ، وشوفروز ،
وبورتمار ، يل - إلى حد ما - مدام دمانتون . واستهوى فيلون نفسه
هذا المزيج الساحر من التقوى والثراء والحسن . وكان خلقه هوذاته مزيجا
معتادا من الصوفية والطموح والعاطفة الرقيقة . فأقنع مدام دمانتون
بأن تسمح لمدام جويون بالتدريس في المدرسة التي أسستها زوجها الملك
السرية في سان سير ، وطابت دمانتون إلى كاهن اعترافها أن ينصحها في
أمر مدام جويون ، فاستشار بوسويه ، ودعا بوسويه المتصوفة لشرح له
تعالمهما ، ففعلت . وتوجس الأسقف الحذر فيها خطرا يتهدد لاهوت
الكنيسة وبمارساتها ، لأنها لم تستغن عن الاسرار المقدسة والكاهن

حسب ، بل عن الأناجيل والمسيح أيضاً ، فوبخها ، وناولها القربان ، وطلب إليها أن ترحل عن باريس وتكف عن التعاليم . فوافقت أول الأمر ، ولكنها عدلت بعد ذلك . واستطاع بوسويه أن يحمل السلطات على حبسها في دير ثمانية أعوام (١٦٩٥ - ١٧٠٣) أفرج عنها بعدها شريطة أن تعيش في هدوء على ضيعة ابنها قرب بلوا ، وهناك ماتت عام ١٧١٧ .

وأراد بوسويه أن يرسم الحدود وللتصوف المباح ، فألف كتاباً سماه « تعاليم عن حالات الصلاة » (١٦٩٦) وأطلع فنيلون على نسخة من المخطوطة وطلب إليه أن يوافق عليها . وتردد فنيلون ، وكتب كتاباً معارضاً سماه « تفسير أقوال القديسين المأثورة عن الحياة الباطنة » (١٦٩٧) . وأصبح الكتابان اللذان نشرتا في وقت واحد تقريباً مشار نقاش واسع ، احتدم احتدام المقاش حول البور - رويال . أما الملك الذي كان يضع ثقته في بوسويه فقد عزل فنيلون من وظيفته معلماً لدوق برجنديه ، وأمره بأن يلزم أسقفيته في كامبرى . وطلب لويس إلى البابا بتحريض من بوسويه أن يشجب كتاب فنيلون . ولكن إنوسنت الثاني عشر تردد ، فهو لم ينس نزعة بوسويه الغالية ، ودفاع فنيلون عن سلطة البابا المطلقة . وضغط لويس على البابا ، فأذعن ، ولكنه توخى غاية الاعتدال في ادانته لكتاب « الاقوال المأثورة » (مارس ١٦٩٩) . وأذعن فنيلون للحكم في هدوء .

ثم راح يؤدي واجباته في كامبرى باخلاص وضمير أكسبها احترام فرنسا ، ولعلهما كانا خليقين باسترضاء بوسويه والملك لولا أن طابعا نشر (أبريل ١٦٩٩) برضى فنيلون رواية كان قد ألفها لتلميذه الأير ووضع لها عنواناً بريئاً في ظاهره « تنمة لأوديسة هوميروس » وهي معروفة لنا باسم (مغامرات تيلياك بن أوليس) . هنا ، وفي أسلوب يفيض رشاقة ونعومة ورقة أنثوية تقريباً ، شرح المعلم اللطيف مرة أخرى فلسفته السياسية المثالية . فترى لسان حاله (منتور) يحذر الملوك بعد أن أقنعهم بسياسة السلام قائلًا :

« منذ الآن تكونون كلكم شعباً واحداً تحت أسماء شتى ورؤساء مختلفين . . . فما النوع الإنساني كله غير أسرة واحدة . . . وكل الشعوب إخوة . . . وما أتمس القوم الفجار الذين ينشدون الجسد القاسى فى دماء إخوانهم المسفوكه . . . : إن الحرب ضرورية أحياناً ، ولكنها معرفة الإنسانية . فلا تزعموا لى أيها الملوك إن على المرء أن يبتغى الحرب إن أراد الجسد . . . فكل من يؤثر مجده على مشاعر الإنسانية ليس إنساناً بل هو وحش تملؤه الكبرياء ، ولن يكسب غير الجسد الزائف ، لأن الجسد الحقيقى لا يكون إلا فى الاعتدال والصلاح . . . ويجب ألا يرى الناس فيه رأياً طيباً ، لأنه لم يقم لهم وزناً فى فكره ، وأراق دماءهم فى سفه ليرضى غروراً وحشياً (١٢٠) » .

وقد سلم فنيولون بحق الملوك الإلهى ، ولكن بوصفه قوة منحتهم إياها العناية الإلهية ليسعدوا الناس ، وحقاً تحده القوانين :

« إن السلطة المطلقة تهوى بالرعية جماء إلى درك العبودية . فهم يتملقون الطاغية إلى حد العبادة . وكاهم يرتعدون فرقا لنظرة منه ، ولكن ما إن تهب أضعف نسمة من نسبات التمرد عليه حتى ينهار هذا السلطان القبيح نتيجة شططه . ذلك أنه لم يستمد أى قوة من محبة الشعب (١٢١) » .

فى هذه الأسطر رأى لويس الرابع عشر نفسه موصوفاً ، وحروبه مدانة . وبادر أصدقاء فنيولون بالاختفاء من البلاط ، وقبض على طابع « تيلجيك » ، وأبلغت الشرطة بمصادرة جميع نسخه . ولكنه طبعه ثانية فى هولندا ، وسرعان ما تداولته الأيدى فى جميع أرجاء العالم التارىء للفرنسية ، وقل أوسع الكتب الفرنسية قراءة وأحبها إلى القراء طوال قرن من الزمان (١٢٢) وأكد فنيولون أن لويس لم يكن فى ذهنه فى هذه الفقرات الناقدة ، ولكن أحداً لم يصدقه . وانقضت سنتان قبل أن يجرؤ دوق برجنديا على الكتابة لمعلمه الأسبق . ثم لانت قناة الملك ، وسمح له بأن يزور فنيولون فى كامبرى .

وعاش رئيس الأساقفة يعلى نفسه بأن تلميذ هذه سيرث العرش عما قليل ،
وعندها يدعو له ليكون وزيره كما كان ريشايو وزيراً للويس الثالث عشر .
ولكن الحفيدات قبل أن يموت الجدي بثلاث سنين ، ثم سبق فنيلون
نفسه لويس إلى القبر بقسمة أشهر (٧ يناير ١٧١٥) .

أما بوسويه فكان قد سبقهما بزمان . لقد كان تمسا في أخريات أيامه ،
حقاً إنه انتصر على فنيلون ، وعلى دعاة الساطة البابوية المطلقة ، وعلى المتصوفة ،
ورأى الكنيسة منتصرة على الهيجونوت ، ولكن هذه الانتصارات كلها
لم تيسر له قذف الحصى من منابته . وقد برح به الألم تبريحاً جعل من العسير
عليه أن يحتل الجلوس في المكان الذي أوقع بالجلوس فيه في احتفالات
السلطان ، وتساءل الساخرون القساسة ، لم لا يستطيع أن يذهب إلى مو
ويموت في هدوء . وقد رأى من حوله ظهور الارتيازية ، ونقد الكتاب
للقدس ، والجدليات البروتستنتية العنيفة التي صوبت في غير تقوى إلى
رأسه . فها هو على سبيل المثال ذلك الهيجونوتي المنفي جوريو يخبر العالم
بأنه هو ، بوسويه ، أسقف الأساقفة ، والصورة المجسمة للفضيلة والاستقامة ،
كذاب أشريعاشر المحظيات (١٧٢٣) . وقد بدأ تأليف كتب جديدة ترد
على هؤلاء الخصوم السفهاء ، ولكن الحياة كانت تنحسر عنه وهو يكتب ،
وفي ١٢ أبريل ١٧٠٤ وضع الموت حداً لآلامه .

ويبدو لأول وهلة أن بوسويه يعين أوج الكاثوليكية في فرنسا
الحديثة . فقد لاح أن المذهب القديم قد استرد كل الأرض التي استولى
عليها لوثر وكالفن . وكان رجال الاكايروس يصلحون من أخلاقهم ،
وراسين يخصص مسرحياته الأخيرة للدين . وكان بسكال قد أدار دوائر
الارتيازية على المرتبة بين ، والدولة جعلت نفسها وكيلاً مطيعاً للكنيسة ،
والملك أوشك أن يكون يسوعياً .

ومع ذلك لم يكن الموقف بالغ السكالم . فاليسوعيون لم ينقشع من

فوق رؤسهم بعد ذلك الغبار الذي أثارته عليهم رسائل إسكال الاقليمية ،
والجانسنية مازالت بخير ، واللاجئون الهيجونوت يؤلبون نصف أوربا على
الملك الورع ، والناس يقرأون مونتيني أكثر مما يقرأون إسكال ، وهويز
وسبينوزا وبيل يكيلون اللطعات الهائلة لصرح الإيمان . يقول القديس
فانسان دبول (١٦٤٨) ، « يشكو عدة رعاة من أن عدد من يتناولون
القربان قد تقلص ، ففي سان - سوليس نقص العدد ٣٠٠٠ ، ووجد راعي
سان - نيكولا - دو - شاردونيه أن ١٥٠٠ من رعايا أبرشيته تخلفوا
عن قربان القيامة (١٢٤) » . وقال بيل في ١٦٨٦ « إن العصر الذي نعيش
فيه يحنل بأحرار الفكر والربوبيين ، ويدهش الناس لسكثرة عددهم (١٢٥) »
« ويسود عدم المبالاة الرهيب بالدين في كل مكان (١٢٦) » وقد عزا هذا
إلى حروب العالم المسيحي وجدلياته . وقال نيسكول : ليكن معلوما أن
الهرطقة الكبرى في العالم ليست السكالقنية ولا اللوثرية ، بل الإلحاد (١٢٧) .
وقالت الأميرة بالاتين في ١٦٩٩ « قل أن يجرد المرء الآن شابا لا يشتهي أن
يكون ملحداً (١٢٨) » وروى لايبنتز أن في باريس (١٧٠٣) « تفشت
بدعة من يسمونهم العقول القوية ، ويسخر الناس هناك من التقوى . . .
وتحت حكم ملك تقي صارم مطلق السلطة ، تجاوزت فوضى الدين كل الحدود
التي شهدناها من قبل في العالم المسيحي (١٢٩) » . وبين ذوى العقول القوية
— وهي قوية إلى درجة تكفي للشكك في كل شيء تقريباً — نجد سان
إفريمون ، وينيون دلائسكو ، وبرنييه ، ماخص ناسفة جاسندي ، ودوق
نيفير وبوبون . وأصبح « التاميل » الذي كان يوماً مقراً لفرسان المعبد
(الداوية) في باريس ، مركزاً لجماعة صغيرة من أحرار الفكر — شولبييه
وسيرفيان ، ولافار ، الخ — الذين أسلموا تمسكهم بالدين إلى عهد الوصاية .
أما فونتنيل ، الذي قارب المائة ونسبى الفناء وأفسح له في الأجل حتى
تبادل النسكت مع الموسوعيين ، فسكان في ١٦٨٧ يأنشر كتابه (تاريخ
النبؤات) ويقوض في خبث أساس المسيحية المعجز . وهكذا عهد لويس
في نشوة تقواه وورعه الطريق لفولتير .

الفصل الثالث

الملك والفنون

١٦٤٣ - ١٧١٥

١ - تنظيم الفنون

لم يشهد التاريخ من قبل ولا من بعد ، ربما باستثناء عهد بركليس ، حكومة شجعت الفن ، أو غذته ، أو هيمنت عليه ، كما فعلت حكومة لويس الرابع عشر .

كان ذوق ريشليو الرفيع ومشترياته المختارة بحكمة قد أطاعت انتمى الفرنسى على أن يفتيق من الحروب الدينية . وفى عهد وصاية آن النمساوية كان جماعو التحف الأهليون - من الأشراف ورجال المال - قد بدأوا يتنافسون فى جمع آثار الفن . فافتنى ببير كروزا المصرى مائة صورة بريشة تيشان . ومائة أخرى بريشة فيرنونوزى ، ومائتين بريشة روبز ، وأكثر من مائة بريشة فانديك . أما فوكيه فقد جمع فى قصر فوكا رأيناصورا وتماثيل ، وتحفا فنية أقل شأنا ، وكان فى جمعه من التميز أكثر مما كان فيه من الحكمة والحذر . وورث لويس مقتنياته بعد أن أجهز عليه ، وما لبث العديد من المجموعات الخاصة الأخرى أن جمع فى اللوفر أو فرساي . وكان مازاران قد آثر وضع شطر من ثروته فى الفن دون النقود تجنبيا لهبوط قيمة العملة . وقد أسهم ذوقه الإيطالى الرفيع فى تكوين انحياز الملك إلى الفن الكلاسيكى . وأغلب الظن انه هو الذى علم لويس الرابع عشر أن بما يبرز مجد الحاكم أن يجمع الفن ويعرضه ويحتضنه . وقد هيأت هذه المجموعات المثل الحافزة والقواعد الموطدة لتعليم الفن وتطويره فى فرنسا .

وكات الخطورة التالية هي تنظيم الفنانين ، وهنا أيضا كان مازاران سباقاً .
ففي ١٦٤٨ أسس أكاديمية التصوير والنحت ، وفي ١٦٥٥ أصدر الملك
مرسوما بهذه الأكاديمية فأصبحت الأولى في سلسلة من الأكاديميات التي
قصد بها تدريب الفنانين وتوجيههم إلى خدمة الدولة وتجميلها ، والتقط
كولبير المحيط حيث تركه مازاران ، وبلغ بهذه المركزية للفن الفرنسي القمة .
وكان يتطلع إلى « جعل الفنون تزدهر في فرنسا أكثر من ازدهارها في أي
بلد آخر (١) » رغم أنه لم يدع لنفسه ملكة الحكم في أمور الفن ، وبدأ بأن
اشترى للملك مصنع جوبلان للنسيج المرسوم (١٦٦٢) وفي ١٦٦٤ حصل
على منصب المشرف على العمائر ، فأتاح له هذا المنصب هيمنة على المعمار
والفنون الملاحقة به . وفي ذلك العام أعاد تنظيم أكاديمية التصوير والنحت ،
وسماها الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة . وكان هنري الرابع قد أسكن
الوفر طائفة من مهرة الصناع ليزينوا القصور الملكية . فجعل كولبير من
هؤلاء الرجال نواة للمصنع الملكي لأثاث التاج (١٦٦٧) . وفي ١٦٧١
أنشأ الأكاديمية الملكية للعمارة ، حيث أغرى الفنانون بالبناء والزخرفة
بـ « الذوق الرفيع » الذي يحبذه الملك . وفي هذه الجماعات كلها وضع مهرة
الصناع تحت إشراف الفنانين ، وهؤلاء تحمت إرشاد سياسة وطرز موحدتين .
ورغبة في دعم الاتجاه الكلاسيكي الذي تلقاه الفن الفرنسي إبان عهد
فرنسوا الأول ، وتنقيته من التأثيرات الغلمنكية ، أنشأ كولبير وشارل
لبرون أكاديمية فرنسا الملكية في روما (١٦٦٦) . وكان الطلاب الحائزون
على جائزة روما في أكاديميه باريس يبعثون إلى إيطاليا ويعالون خمس سنين
على حساب الحكومة الفرنسية ، وفرض عليهم أن يستيقظوا في الخامسة صباحا
ويعضروا إلى الفراش في العاشرة مساء . وقد دربوا على نسخ النماذج الكلاسيكية
ونماذج النهضة ومحاكاتها ، وكان ينتظر من كل منهم أن ينتج « رائعة » (يا لمعني
المصطلح عليه في نظام الطوائف) مرة كل ثلاثة أشهر ، فإذا طادوا إلى فرنسا
كان للدولة الحق المقدم في خدماتهم .

وكانت ثمرة هذه الرعاية والتأميم للفن إنتاجاً رائعاً ضحماً للقصور ،
والكمائس ، والتماثيل ، والصور ، وقطع السبج المرسوم ، والخزف ،
واللداليات ، والمحفورات ، والنقود ، وكلها مطبوع بكبرياء « الملك
الشمس » وذوقه ، وبقسمات وجهه أحياناً كثيرة . ولم يكن هذا إخضاع الفن
الفرنسى لروما كما شكك البعض ، بل إخضاع فن روما لوليس الرابع عشر .
وقد استهدف الأسلوب أن يكون كلاسيكياً ، لأن ذلك الأسلوب يتفق
وعظمة الدول وجلال الملوك . وتدفقت الأموال الفرنسية إلى إيطاليا بأمر
كولبير لشراء آثار الفن الكلاسيكى أو فن النهضة ، وبذل كل شيء لنقل
مجد الأباطرة الرومان إلى ملك فرنسا وعاصمتها ، وكانت النتيجة مذهلة للعالم .
وأصبح لويس الرابع عشر أعظم رعاة الفن الذين عرفهم التاريخ . فقد
« بذل للفنون من التشجيع قدر أعظم من جميع نظرائه من الملوك مجتمعين »
(فى رأى فولتير) (٢) . وكان بالطبع أسخى جماعى الفنون ، فزاد عدد
الصور فى قاعاته من مائتين إلى ألفين وخمسمائة ، وكان كثير منها من إنتاج
فنانين فرنسيين كلهم الملك يرسمها . واشترى الكثير جداً من المنحوتات
الكلاسيكية وتماثيل عصر النهضة ، حتى لقد خشيت إيطاليا أن تنزح آثارها
الفنية ، وحظر البابا المزيد من تصدير هذه الآثار . واستخدم لويس رجالاته
موهوبين مثل جيراردون أو كوازيكوكس لنقل نسخ من التماثيل التى لم يستطع
شراءها ، وقل أن نافست نسخ أصولها كما نافستها هذه النسخ . ومثلت
قصور باريس وفرساي ومارلى وحدائقها وبساتينها بالتماثيل ، وكان أوثق
سبيل إلى قلب الملك إهدائه أثرآ ذا جمال غير منازع أو ثمرة راسخة .
ومثال ذلك أن مدينة آرل أهدهته تمثالها الشهير « فينوس » فى ١٦١٣ . ولم
يكن لويس بالرجل الشحيح . وقد قدر فولتير أنه كان يشتري فى كل عام
من آثار الفنانين الفرنسيين ما قيمته ٨٠٠.٠٠٠ جنيه ويهدبها للبلدان
والمؤسسات والأصدقاء (٣) بهدف مساعدة الفنانين وبث ماسكة الجمال
والإحساس الفنى فى الوقت نفسه . وكان ذوق الملك سليماً أسدى إلى الفن

الفرنسي أيادي بيضاء ، ولكنه كان كلاسيكياً إلى حد ضيق . فحين أروده بدخ
الصور التي رسمها تلميذه الابن قال آمراً « ابعثوا عني هذه الأشياء البشعة » (٤)
وقد ارتقى الفنانون بفضل رعايته كثيراً ، سواء في أربابهم أو - كما تبين
الاجتماعية . وقد ضرب المثل بتسكريمه إياهم شخصياً ، وحين شكوا البعض
من ألقاب الشرف التي خلعتها على المصور لبرون والمعاري جول - آردوان
- مانسار أجاب في شيء من الحدة « في وسعي أن أصنع عشرين دوقة أو
نبيلة في ربع ساعة ، ولكن صنع فنان كمانسار يقضي قروناً » (٥) . وبلغ
راتب مانسار ٨٠٠٠٠ جنيه في العام ، أما لبرون فكان يتقارب في نعيم
قصوره بباريس وفرساي ومونمورنسي . وتقاضى لارجدير وريمبو ستمائة
جنيه أجزاً عن كل لوحة . « ولم يترك فنان كفاء في عوز » (٦) .

وقللت الأقاليم العاصمة في تكريم الفن وإثابته ، واقتدى النبلاء
بمليكمهم . فطورت المدن مدارس فنية خاصة بها - في روان ، وبوفيه ،
وبلوا ، وأورليان ، وتور ، وليون ، وإكس - أن - بروفاس ، وتولوز ،
وبوردو - وواصل النبلاء دورهم رعاة للفن وإن تقاض لأن الدولة استوعبت
المواهب المتاحة ، وأسهم الذوق المدرب الذي نشئت عليه أرقى أرسقراطية
في أوروبا في توطيد الطراز الرفيع الذي اتسمت به منتجات الفن في عهد لويس
الرابع عشر . واكتسب الرجال والنساء الذين ولدوا في نعيم الامتيازات
والثراء وشبوا على العادات المهذبة وسط محيط جميل وأشياء بديعة - تقول
إنهم اكتسبوا معايير وأذواقاً من يكبرونهم سنناً كما اكتسبوا من بيتهم ،
وكان على الفنانين أن يلبوا مطالب تلك المعايير ويشبهوا تلك الأذواق .
ولما كان الاعتدال ، وضبط النفس ، والتعبير الأنيق ، والحركة الرشيقه ،
والشكل المصقول ، لما كانت هذه كلها مثل الارستقراطية الفرنسية في هذا
العهد ، فقد تطلبت هذه الصفات في الفن ، وحبذ النظام الاجتماعي الطراز
الكلاسيكي . وأفاد الفن من هذه اللواتر والهيمنات ، ولكنه دفع
ثمناً . ذلك أنه فقد اتصاله بأفراد الشعب ، ولم يستطع أن يعبر عنهم كما

استطاع الفن الهولندي والفلمني أن يعبر عن الأراضي المنخفضة ، وأصبح الفن صوت طبقة ، وصوت الدولة والملك ، لا صوت الأمة . فأنت لا تجد في فن هذه الحقبة الكثير من دفء الوجدان أو عمقه ، ولا تجد ألوان روبرت الغنية وأجساده المكتنزة ، ولا تجد الظلال العميقة التي تلف حاخامات رمبرانت وقديسيه ومالييه ، ولا ترى فلاحين ولا عمالا ، ولا متسولين ، بل السعادة الجميلة ترتع فيها صفوة البشر .

وأبهج كولبير وهولاه أن يجسدا في شارل لبرون رجلا يستطيع أن يكون في وقت واحد خادما غيورا للحكومة وقاضيا متسلطا في هذا الطراز الكلاسيكي ففي ١٦٦٦ عين لبرون بتوصية كولبير كبيرا لمعجوري الملك ومديرا لأكاديمية الفنون الجميلة ، وبعد عام عهد إليه بصنع جوبلان ، ووكل بالإشراف على تعليم الفنانين وأشغيلهم لينبى في أعمالهم تناسقا في الأسلوب ميمزا للعهد وممثالا ، وبمعاونة مساعدين على شكاكته في التفكير أنشأ لبرون في الأكاديمية نظام « المحاضرات » (١٦٦٧) التي غرست بنظامها أصول الأسلوب الكلاسيكي بتعاليم وأمثله وساطان ، واخزير وقايل من بين الفنانين الإيطاليين ، وبوسان من بين الفنانين الفرنسيين ، نموذجين مفضلين على غيرهما ، وكانت كل لوحة يحكم عليها بمعايير مستمدة من فنهما . وقد صاغ لبرون وسباستيان بوردون هذه القواعد ، فرفعا الخط فوق اللون ، والانضباط فوق الأصالة ، والنظام فوق الحرية ، ولم تعد مهمة الفنان أن ينقل الطبيعة بل أن يجعلها ، ولا أن يعكس فوضاها وعيوبها وبشاهاتها كما يعكس جمالها العارض ، بل أن يلتقى من بين ملماتها تلك التي تتيح للنفس الإنسانية الإفصاح عن أعرق مشاعرها وأرفع مثاها . وكان على للمماربين والمصورين والنحاتين والحرفيين وصناع المشغولات الخشبية وللمديية والزاجية والنقاشين ، أن ينطقوا في صوت متناسق واحد بتطلعات فرنسا وبمظمة الملك .

٢ - العمارة

على أن هؤلاء الفنانيين الفرنسيين « المنطليين » كانوا قد عادوا من روما وقد اكتسبوا طلاء « باروكياً » على غير وعى منهم . وقد وصفنا من قبل ذلك الطراز « طراز الباروك - الذى عم الآن وانتشر . وخلصته أنه يحمل محل البساطة الهادئة التى تميزت بها الأشكال الكلاسيكية إسرافاً فى الوجدان والزخرف ، وبينما نرى المثل الكلاسيكى - وعلى الأخص الهلنستى - قد حوكنى فى نحت هذا « القرن العظيم » وتصويره وأذبه ، نجد العمارة والزخرفة قد أخذتا عن الطرز الأنيقة المنمقة التى عقد لها لواء النصر فى إيطاليا بعد وفاة ميكلانجولو (١٥٦٤) . فلقد استهدف بناء الملك الطراز الكلاسيكى ، ولكنهم حققوا الباروكى - الباروكى الكامل فى فرساي ، ومزيجاً موفقاً من الباروكى والكلاسيكى فى واجهات اللوفر .

أما أول الروائع المعمارية فى هذا العهد فهى كنيسة فال - دجراس بباريس . وكانت آن التماوية قد نذرت نذراً ببناء معبد جميل إذا وهبها الله ولويس الثالث عشر فلاماً . فلما أتاح لها وصايتها على العرش المال كلفت فرنسوا مانسار بوضع تصميمات الكنيسة . وأرسى لويس الرابع عشر الحجر الأول فى ١٦٤٥ وكان يومها فى السابعة . ونفذ تصميم مانسار على يد لومرسييه بالطراز الكلاسيكى ، وتوج بقبة مازالت محط إعجاب للمعماريين . وشيد لبرال برويان كنيسة سان - لوى - ديزا نفاليد (١٦٧٠) لقدامى المحاريين الذين يأويهم الأوتيل ديزنفاليد . وفى ١٦٧٦ كاف لوفوا المعماري جول اردوان مانسار (حفيد أخى فرنسوا مانسار) بأن يكمل الكنيسة بخورس وقبة . والقبة فى جمالها الرشيق رائعة العهد المعمارية . وقد حقق أردوان مانسار انتصاراً آخر فى تصميم الكنيسة للملحمة يفرساي (١٦٩٩) . وقد أكمل عمله هنا وفى الانفاليد صهره روييردكوت .

بخرقة مترفة ، وهو الذى أقام كذلك الأوتيل دفيل فى ليون ، ودبر سان دنى ، وواجهة سان - روش .

وحات العمارة الملكية محل العمارة الكنسية حين تفوقت الدولة على الكنيسة ثراءً ومكانة ، فأصبحت المشكلة الآن هى التعبير عن القوة لا عن الورع . وكان للوفر فى تلبية هذه الحاجة ميزة تميز بها على غيره من المآثر ، هى ما أحاط به من تقاليد موروثه . فقد شهدت نموه أجيال كثيرة ، وترك ملوك كثيرون بصماتهم على تاريخه . فشيده لومرسييه الواجهة الغربية للجناح الرئيسى بتكليف من مازاران ، وبدأ الجناح الشمالى على طول شارع ريفولى الحالى . وأتم هذا الجناح خلفه لوفو ، وأطاد بناء واجهة الجناح الجنوى (المواجه لنهر السين) ، وأرسى أساسات الجناح الشرقى . فى هذه الفترة الهامة أصبح كولبير المشرف على المآثر . وإذ رفض تصميمات فو للجناح الشرقى ، فقد فسكرو فى مشروع مد للوفر غرباً ليلتقى بالتويلرى فى قصر واحد . فأذاع على معمارىي فرنسا وإيطاليا مسابقة فى تصميم واجهة جديدة . ورغبه منه فى الحصول على أفضل التصميمات ، أقنع الملك بأن يرسل دعوة خاصة إلى جوفانى لورنتزو برينى (١٦٦٥) وهو يومها أمير الفنانين الأوربيين غير منازع ، ليأتى إلى باريس على نفقة الملك ويقدم تصميمه . وأتى برينى بأبهته الكبرى ، وأغضب الفنانين الفرنسيين باحتقاره لعملم ، ووضع تصميماً ضخماً باهظ التكلفة يقتضى هدم كل الوفر القائم تقريباً . ووجد كولبير فى التصميم عيوباً تتصل بأنايب المياه وغيرها من مرافق المعيشة ، واستشاط برينى غضباً وقال إن « المسيو كولبير يعاملى كأننى غلام صغير ، بكل لغوه عن المراحيض والقنوات السفلية (٧) » وأمكن الوصول إلى حل وسط . فقد وضع الملك الحجر الأساسى لتصميم برينى ، وبعد أن أقام الفنان ستة أشهر فى باريس رد إلى إيطاليا محملاً بالمال وأسباب التشريف ، وقد حاول أن يرد على هذا بتمثال نصفى للويس الرابع عشر يقوم الآن بفرساي ، وبتمثال للويس راجبا جواده فى « جاليريا

بورجيزى» بروما أما تصميمه للوفر فتخلى عنه ، واحتفظ بالمبنى القائم وكوفى شارل بيرو بتسكينه بيناه الواجبة الشرقية . وارتفع صف أعمدة اللوفر الشهير ، الذى أثار عيوبه الواضحة سيلا من النقد (٨) ، ولكننا نتقبله الآن على أنه من أعظم واجهات المعاصر فى العالم .

وكان كولبير يؤمل أن ينتقل الملك من مسكنه الضيق فى سان — جرمان إلى اللوفر بمد تجديده . ولكن لويس لم ينس كيف أكره هو وأمه على الفرار من الجماهير الباريسية خلال حرب الفروند . وكان رأيه فى صوت الشعب أنه صوت العنف ، فلم يشأ أن يعرض نفسه لمثل هذه الكواجح لحكمه المطلق . وعليه قرر أن يبني فرساي ، وروع القرار كولبير .

وكان لويس الثالث عشر قد شيد هناك استراحة متواضعة للصيد فى ١٦٢٤ . ورأى أندريه لنوتر فى منحدر هذا الموضع الذى كان يرتفع فى رفق ، وفى أحراج الغنية ، فرصة مغرية للتفنن فى تنسيق الحدائق . فى ١٦٦٢ قدم لويس الرابع عشر تصميما عاما للمنطقة ، وإذا كانت المباني اليوم منخفضة عن المروج والبحيرة ، وعن الازهار والشجيرات ومختلف الأشجار ، فلعل هذا هو الموضع الذى تصورها عليه لنوتر . فهو لم يقصد بالقصر أن يكون آية من آيات المعمار بقدر ما يكون دعوة إلى الحياة خارجه بين أحضان طبيعة روضها الفن وجلها ، دهوة لتنشق عبر الزهر والشجر ، ولإشباع العين واللمسة المتخيلة من الأجساد الكلاسيكية النحت ، ولطردة الفرائس والنساء فى الغابات ، وللرقص وتناول الطعام على العشب ، ولركوب الزوارق على القناة والبحيرة ، والاستماع إلى لولى ومولير تحت القبة الزرقاء . فها هنا جنة من جنات الآلهة ، بنيت بدرامم عشرين مليوناً من الفرنك بين أن يروها إلا لماما ، ولكنهم يعززون بعز مليكهم . وبما يسر أن نعرف أن بستان فرساي كان مفتوحا للشعب إلا فى المناسبات الملكية .

وكان فن إنشاء الحدائق المنسقة البهية وافدا من إيطاليا ككثير غيره

من الفنون ، وقد جلب معه عشرات الحيل والمفاجآت ، كالتمارين ،
والشعريات ، والمغارات ، والكهوف ، والأشكال الغريبة (الجروتسك) ،
والأحجار الملونة ، وبيوت الطير ، والتمائيل ، والزهريات ، والغدران ،
والنوافير ، والميازيب ، وحتى الأراغن تعزف إلى جوار الماء الجارى . وكان
لنوتر قد صمم من قبل حدائق فو لفوكيه ، وبعد قليل سيصمم حدائق
التويلرى للمملكة ، وحدائق سان كلو لمدام هنرييتا ، وحدائق شاتيل
لكونديه الكبير . وأطلق لويس يده فى فرساي من ١٦٦٢ فصاعداً ،
وروعت كولبير التكاليف التى أنفقت على تحويل بركة شعناء إلى فراديس غناء .
وتعلق قلب الملك بلنوتر الذى لم يأبه للمال بل للجمال فقط ، والذى كان
فناناً صادقاً لاغش فيه (٩) . لقد كان بمثابة « بوالو » الحدائق ، المصمم على
أن يغير « فوضى » الطبيعة إلى نظام وتناسق وشكل معقول مفهوم . ولله
كان مسرفاً فى إصراره على الكلاسيكية ، ولكن الحدائق التى أبدعها
مازالت بعد ثلاثمائة سنة كعبة يؤمها البشر فيما يؤمون .

كان لويس لا يزال يحسد فوكيه ، فأبى بلوفو معمارى قصر فو ليوسع
استراحة الصيد ويجعل منها قصرًا ملكياً . وتسلم جول أردوان ماسار
إدارة المشروع فى ١٦٧٠ . وبدأ تشييد غرف السكن والتماعات وغرف
الاستقبال وصلات الرفص وحجرات الحراسة والمكاتب الإدارية — كل
هذه الأبنية الشاسعة التى نشهدنا اليوم فى فرساي . وما وافى عام ١٦٨٥
حتى كان يكسح فى المشروع ٣٦٠٠٠ رجل و ٦٠٠٠ حصان فى هوبات
بالليل والنهار . وكان كولبير منذ زمن طويل قد حذر الملك من أن معماراً
كهنذا ، مضافاً إلى الحرب يخوضها بعد الحرب ، سينتهى بإفلاس الخزانة ،
ولكن فى ١٦٧٩ بنى لويس قصرًا آخر فى مارلى ، ملاذاً يلجأ إليه من
زحام فرساي ، وفى ١٦٨٧ أضاف الجران ترياون ليكون خلوة لمدام
دماقتون . وأمر جيشاً من الرجال فيهم الكثير من الجنود النظاميين
بتحويل نهر أور ونقل مياهه خلال تسعين ميلاً من « قناة مانتون »

وطاش لويس في فرساي على نحو متقطع منذ ١٦٧١ ، وأنفق بعض وقته في مارلى ، وسان - جرمان ، وفونتنبلو ، وبعد ١٦٨٢ أصبح فرساي مقره الدائم . ولسكنا نطلعه إذا ظننا أن فرساي كان مسكنه وملهه ، فهو لم يشغل سوى جزء متواضع من المبنى ، أما الباقي فقد سكنته زوجته ، وأبناؤه ، وأحفاده ، وخليلاته ، والمفوضيات الأجنبية وكبار الإداريين ، وأفراد الحاشية ، وكل الخدم والحشم الذين تطلبهم البيت المالك . ولا ريب في أن بعض هذا البهائم كان له هدف سياسي — هو إدخال الرهبة في قلوب السفراء الذين توقع منهم لويس أن يحكموا من هذا البذخ على موارد الدولة وسطوتها . وقد وقع هذا من نفوسهم ونفوس غيرهم من الزوار فأذاعوا في أرجاء أوروبا من الأنباء عن بهائم فرساي ما جعله البلاط المحسود ، والمثل الذي يمتد به الكثير من البلاطات والقصور في القارة الأوروبية بأسرها . أما في عقايل هذا العهد فقد بدت هذه الكتلة الضخمة من المباني رمزا وقحا للاستبداد وتحديا مستهترا من كبرياء الإنسان لمصير الإنسان غير المتغير .

٣ — الزخرفة

لم تعرف فنون الزخرفة قط ، حتى على عهد بابوات النهضة ، مثل هذا التشجيع والعرض . فقد كانت الأرضيات المسكوة بالبسط السمكية ، والأعمدة الزينية ، والموائد ورفوف المستوقدات الزخرفية الضخمة ، والزهريات من الخزف الصيني ، والشعدانات الفضية والثريات البلورية ، والساعات الجدارية الرخامية المطعمه بالأحجار الكريمة ، والجدران ذات الحشوات الخشبية أو الرسوم الجصية أو الصور أو قطع النسيج المرسوم ، والكرانيش المصبوبه صبا أنيقا ، والأسقف ذات الزخارف المنائرة أو الصور ، هذه كلها وكثير غيرها من ألوان الفن في فرساي وفونتنبلو ومارلى واللوفر ،

وحتى في قصور الأمانى ، جعلت من كل حجرة تقريبا متحفا لأشياء تظلب العيون والألباب بسر الكمال الخفى . وعن رفايل ومساعديه — جوليو رومانو ، وبيرينو ديل فاجا ، وجوفانى دا أوربيني — وعن قاعات الفاتيكان ، نقل لبرون ومساعدوه مجموعة الأرباب والربات والكويبيدات وتذكارات النصر والشعارات والنقوش العربية ، وأكاليل الزهر وورق الشجر ، والحلييات القرنية لثمار الأرض ، يزينون بها سجل انتصارات الملك على النساء والدول .

وكان الأثاث بطراز لويس الرابع عشر مترفا فأخرا ؛ هنا أذعن البساطة الكلاسيكية للزخرفة الباروكية . فالتقاعد مسرفة في النقش والتنجيد والتدبب إسرافا أبعد عنها الأعجاز خشية إلا أرقها . أما الموائد فكانت تجذب بينها الثقيل المتين إلى حد يبدو معه غير قابل للحركة . وكانت مناخذ الكتابة والمسكاتب المزودة برفوف للكتب فاية في الأناقة بحيث تغرى القلم بالكتابة في إيجاز لاروشنفوكو المحكم أو في حيوية مدام دسفينييه المتدفقة . وكثيرا ما كانت الصناديق وخزانات النفائس تنقش بعناية فائقة أو تطعم برسوم من معدن أو أحجار كريمة . وقد أعطى أندريه شارل بول اسمه (buhlwork) لعنه الخالص ، فن تطعيم الأثاث ، لاسيما الأبنوسى ، بالمعدن المحفور ، وصدف السلاحف ، واللؤلؤ إلخ ، مضيفاً حلييات درجية تمثل النبات أو الحيوان ذات رسوم فاية في الرشاقة ، وكان يقيم في اللوفر (١٦٧٢) بوصفه نجار الأثاث الأثير لدى لويس الرابع عشر . ولقد بيعت إحدى خزاناته المطعمة بمبلغ ٣٠٠٠ جنيه إنجليزي في ١٨٨٢ ، وربما كان هذا المبلغ يعادل ٥٠٠٠٠ دولار في ١٩٦٠ (١١) . ولكن بول مات في فقر مدقع بعد أن بلغ التسعين في ١٧٣٢ . وقد يكون أوفق لأذواقنا تلك الأكشاك المنقوشة التي أقيمت في هذه الفترة في كاتدرائية نوتردام دبارى .

وأصبح النسيج المرسوم الآن فنا اختص به الملك . ولم يقنع كولبير

ياخضع معنى جوبلان وأوبوسون لإشراف الملك ، فأقنعه بأن يتسلم أيضا مصنع النسيج المرسوم في بوفيه . وكانت هذه القطع للرسومة لاتزال الحلية المفضلة لجدران القصور وسجفها في المدن والريف ، والمهرجانات ، والباريات ، والاحتفالات الرسمية ، والأعياد الدينية . وقد صمم للمصور الفنلنكى آدم فان درمور في بوفيه سلسلة رائعة من الرسوم مماهاها «فتح لويس العظيم» ، وأعد الفنان لها نفسه بأن تبع لويس إلى حروبه ورسم بالقلم أو صور بالألوان على الطبيعة للمواقع والحصون والقرى التي كانت مسرحا لحملاته الحربية . وكان مصنع جوبلان يستخدم ٨٠٠ من مهرة الصناع الذين لم يكتبوا بصنع قطع النسيج المرسوم ، بل للنسوجات الرفيعة وأشغال الخشب والفضة والمعادن والتطعيم بالرخام . وهناك نسجت تحت إشراف لبرون قطع النسيج المرسوم العظيمة نقلًا عن الرسوم التخطيطية التي حفلت بها صور رفايل الجصية الضخمة في قاعات الفاتيكان . وليس أقل من هذه شهرة السلاسل العديدة التي صممها لبرون ذاته ؛ فصور قوى الطبيعة ، والفصول ، وتاريخ الإسكندر ، ومساكن الملك ، وتاريخ الملك والمجموعة الأخيرة كانت تمتد سبع عشرة قطعة ، واستغرق الفنان في صنعها عشر سنين ، وما زال نموذج رائع منها معروضاً في حجرات عرض قطع الجوبلان — فيها ترى الأجسام متميزة إلى حد مذهل ، والتفاصيل متخيلة تخيلاً كاملاً ، حتى صورة المنظر الطبيعي التي على الجدار ، وكل هذا بخيوط ملونة نسجتها في صبر وأناة أيد صناع تحت عيون مجهدة . وندر أن كرس مثل هذا الجهد البشرى الضخم للزنى لرجل واحد . وقد اعتذر لويس عن هذا بأن زعم لـكولبير أن أسباب التمجيد هذه تتيح العمالة والدخل للصباعين والنساجين ، وتوفو هدايا ذات وقع جميل في عملية « تشحيم » الدبلوماسية .

وتعرعت كل الفنون الصغيرة تحت اليد الملكية السخية . فصنعت الأبسة الفاخرة في لاسافونيرى قرب باريس . وأنتج القاشانى البديع في

روان وموستييه ، والحزف الإيطالي (الليوليق) الجيد في نيفير ، والعيشي اللين المعينة في روان وسان كلو . وفي أخريات القرن السابع عشر تعلم الصناع الفرنسيون بتحريض كولبير أسرار البنادق في صب بللور المرايا الكبيرة وتسويته وصلقه ، وهكذا صنعت مرايا « قاعة المرايا » الرائعة (١٢) . ونظم كولبير ولبرون الصباغة أمثال جوليان دفونتين وفانسان بتي وأسكنام في اللوفر ، فصنعوا للملك وللأغنياء مئات التحف من الفضة أو الذهب — إلى أن صهر لويس والأغنياء هذه الحلى لتمويل الحرب . وقطعت الأحجار السكرية والمداليات : وضربت العملة ، ونقشت بتصميمات كانت المثل الذي تحتذيه أوروبا كلها فيما عدا إيطاليا . ولم يصل فن صنع المداليات منذ عصر النهضة إلى مثل هذا الابداع الذي حققه الآن على يد انطوان بنوا وجان موجيه . أما كولبير ، الذي لم يترك حجرا دون نقش ، فقد أسس في ١٦٦٢ أكاديمية المداليات والنقوش ، ليخضع أعمال الملك ٠٠٠ بمداليات تضرب تكريما له (١٣) » وذلك كان أسلوب الوزير الكبير في تجنيد الغرور الذي يملك المال في خدمة الفن العالي النفقة . وفي ١٦٦٧ أنشئت مدرسة للصور المنقورة في اللوفر ، ورسمت مناقش رويير نانتوى وسبستيان لكبير ورويير بونار وجان لبوتر في رهافة بالغة التدقيق شخصيات العهد وأحداثه . وحتى رسم المنمنمات ظل على قيد الحياة — وأن هبط عن سابق مقامه في العصر الوسيط — في كتاب « ساعات الصلاة » الذي أهداه إلى الملك متقاعدوه في الأنفاليد . إن الفنون المصغره . دون سائر الفنون ، هي التي تظهر ذوق « القرن العظيم » وبراعته الفنية .

٤ - التصوير

إن نجمين من نجوم التصوير ذوى المرتبة الثانية يقعان في الفلك الخارجى لهذا العصر ، وهما فيليب دشامبين ، وأوستاش لوسويير . أما فيليب فقد وفد

من بروكسل وهو في التاسعة عشرة (١٦٢١) ، وشارك في زخرفة قصر
الكسمبورج ، ولم يكتب يرسم صورة ريشليو بقامته الكاملة ، وهي
المحفوطة في اللوفر ، بل صنع أيضا تمثالا نصفيا للكردينال ، وصورة صورا
جانبية محفوطة بمتحف الفنون القومي بلندن . وقد أتاه ميله المتعاطف لتصوير
الأشخاص بزائن من نصف زعماء فرنسا في الجيل الذي تلا ريشليو ،
كما زاران وتورين وكولبير ولرسييه . . . وكان قبل قدومه إلى فرنسا
قد صور جانسن واعتنق الجانسنية ، وأحب البور - رويال ورسم صوراً
للأم انجليك وروبير آرنو وسان - سيران . ورسم للبور - رويال أروع
صوره « الراهبات » باللوفر ، وترى فيها الأم آنييس مكتئبة ولكنها لطيفة ،
ومعها سوزان ابنة المصور الراهبة . وكان مجال شامبين محدودا ، ولكن
فنه يدق قلوبنا بما فيه من وجدان واخلاق .

أما أوستاش لوسويير فكان متدينا كصاحبه ولكنه أكثر سنية في
إيمانه ، مما جعله قلقا في جيل سيطر على التصوير فيه منافسه لبرون ،
وتسلطت على هذا الفن فيه أساطير وثنية كرسست لتأليه ملك لم يكن قد ناب
إلى تقواه بعد . وقد درس المصوران (لوسيير ولبرون) مما على فويه ،
ورمما مما في قبو واحد ، واستخدما نفس النموذج ، وأثنى عليهما على
السواء بوسان في زيارته لباريس . وتبع لبرون بوسان إلى روما وتشرب
الروح الكلاسيكية . أما لوسويير فلزم باريس مربوطا بزوجة مخصبة ولم
يستطع الفكك من الفقر إلا نادرا . وحوالى ١٦٤٤ رسم خمس صور تصف
حوادث في حياة إله الحب لسقف « حجرة الحب » في قصرولى نعمته لامبير
دتوريني ، وفي حجرة أخرى من حجرات قصر لامبير هذا نفذ رسمها جصيا
كبيرا يسمى « فيتون يطلب أن يقود مركبة الشمس » . وفي ١٦٤٥ تورط
لوسويير في مبارزة قتل فيها خصمه ثم الختبا في دير للكارتوزيين ، وهناك
رسم اثنتين وعشرين صورة من حياة القديس يرونو مؤسس الطريقة

الكارتوزية ، وفي هذه الصور بلغ الفنان أوجهه . وفي ١٧٧٦ اشترت هذه السلسلة من الرهبان الكارتوريين بمبلغ ١٣٢٠٠٠ جنيه فرنسي ، وهي لليوم تشغل غرفة خاصة باللوفر . ولما عاد لبرون من إيطاليا (١٦٤٧) اكتسح أمامه كل شيء ، وانتكس لوسوير إلى فقره ، ثم مات في ١٦٥٥ ولما يجاوز الثامنة والثلاثين .

أما شارل لبرون فقد تسلط على الفنون في باريس وفرساي ، لأنه أوتي قدرة التنسيق والإدارة كما أوتي قدرة التصور والتنفيذ . وإذا كان ابن نحات له أصدقاء من المصورين ، فقد شب في بيئة تعلم فيها الرسم كما يتعلم غيره من الأطفال الكتابة . ورسم في الخامسة عشرة . وعينه لا تغفل عن ترقب فرصته الكبرى . صورة رمزية لحياة ريشليو ونجاحه ، والتقط الوزير الطعم ، فكلفه برسم موضوعات أسطورية لقصر الكردينال . وحين أخذه بوسان إلى روما أغرق نفسه في أساطير وزخارف رفايل ، وجوليو رومانو ، وبينيرو دا كورتونا . فلما عاد إلى باريس كان أسلوب الزخرفة المترفة المنمقة الذي انتهجه قد اكتمل نضجه . وهنا أيضا كان فوكيه أسبق من لويس في استخدامه لبرون ليصور في قصره بنوه . وقد استهوت مازاران وكولبير والملك براعة ما أتيح من صور جسمية ، وذلك الجمال الشهواني الذي اتسمت به أجساد النساء والتفاصيل الغنية من كرايش ومصبوبات . ولم يأت عام ١٦٦٠ حتى كان لبرون يرسم صوراً جسمية من حياة الأسكندر للقصر الملكي بنفونتنبلو . وقد أهبج لويس أن يتبين ملامحه تحت خوذة الأسكندر ، فكان يأتي كل يوم ليراقب الفنان وهو يرسم معركة أربل ، وأسرة دارا عند قدمي الأسكندر . وكلتا الصورتين في اللوفر . وكافأه الملك بلوحة ملكية مرصعة بالماس ، وجعله مصوره الأول ، وأجرى عليه معاشا بلغ ١٢٠٠٠ جنيه في العام .

ولم تفتقر لبرون همة . ففي ١٦٦١ دمرت النيران قاعة اللوفر الوسطى ، فصمم ترميمها ، وصور السقف والكرائيش بمنظر من أساطير أبولو ،

ومن هنا الاسم الذي اطلق عليها « قاعة أبولو ». وخلال ذلك درس الفنان الطموح العمارة والنحت وأشغال المعادن والخشب ورسم النسيج ومختلف الفنون التي جندت الآن لتزيين قصور العظماء . وانصهرت هذه الفنون جميعها في مهاراته المنوعة حتى لقد بدا أن الحظ أعده ليجمع فناني فرنسا في جهد موحد لينتجوا طراز لويس الرابع عشر .

وقد أطلق لويس يده ومنحه ما شاء من مال ليزين فرساي ، حتى قبل أن يعينه مديراً لأكاديمية الفنون الجميلة . وهناك عمل بجد طوال سبعة عشر عاماً (١٦٦٤ - ٨١) فنسق الأعمال الفنية ، وصمم « سلم السفير » ، ورسم بنفسه في قاعات الحرب والسلام ، وفي القاعة الكبرى ، سبماً وعشرين صورة جسمية تصف أمجاد الملك منذ صلح البرانس (١٦٥٩) حتى معاهدة نيميجن (١٦٧٩) . وقد أظهر لويس في الحرب والسلام وسط حشد من الأرباب والربات ، والسحب والأنهار ، والتحليل والمركبات ، يقذف الصواعق ، ويعبر الرين ، ويحاصر غنت ، ولكنه إلى ذلك يجرى المدالة ويصرف شؤون المال ، يطعم الفقراء في المجاعة ، وينشئ المستشفيات ، ويشجع الفن . ولو أننا أخذنا هذه الصور فرادى لما عدناها من الروائع ، فأساسها الكلاسيكي طغى عليه سيل من الزخارف الباروكية ، ولكننا إذا أخذناها في حمتها وجدناها تؤلف أروع عمل قام به الرسامون الفرنسيون في هذا العصر . ويفيظنا تمجيده للملك لأنه يكشف فيه عن داء الغرور ، ولكن تعلق الأمراء والملوك على هذا النحو كان سنة العصر . لا عجب إذن أن يقول لويس لمصوره وهو يرى بعض صوره بجوار أخرى رسمها فيرونييري وبوسان « ان أعمالك تثبت للمقارنة بأعمال كبار الفنانين ، ولا ينقصها إلا موت صاحبها لكي يقدرها الناس أكثر مما يقدرونها الآن ، ولكننا نرجو ألا نتاح لها هذه الميزة سريعاً (١٤) » وقد ساند الملك خلال جميع المسكائد التي أحدثت به من حساده بمد قليل ، كما ساند موليير الذي ضايقه خصومه . ولم يكن غريباً

على طبع لويس - إذ نعى إليه أثناء حضوره إجتماعاً أدارياً أن لبرون نجاء ليريه آخر صوره « رفع الصليب » (١٥) - أن يستأذن الحاضرين ليذهب ويرى الصورة ويعرب عن سروره، ثم يدعو كل المجتمعين ليأتوا ويشاركوه في مشاهدتها (١٦). وهكذا سارت الحكومة والفن في هذا العهد جنباً إلى جنب، وشارك الفنانون القواد العسكريين مكافآتهم ومدائحهم.

كانت صنعة لبرون شيئاً جديداً وإن انبثقت من الزخرفة الإيطالية. لقد كانت مزيجاً زخرفياً جمع فنونا عديدة ليؤلف منها كلا جاليا واحداً. فلما حاول أن يجرب تصوير لوحات فردية انزلق إلى مرتبة وسطى. وإذا استحال انتصارات الملك إلى هزائم، وأخلت محظياته مكانهن للكهان، تغير مزاج العهد ولم يمسد زخارف لبرون البهيجة محل. ولما خلف لوفوا كولبير مشرفاً على العمائر فقد لبرون دوره زعيماً للفنون، وإن ظل رئيساً للأكاديمية. ومات في ١٦٩٠ رمزاً لمجد ولّى.

واغتبط فنانون كثيرون بتحررهم من سيطرته، ومن هؤلاء على الأخص بيير منيار الذي ساءته هذه السيطرة. وإذا كان يكبر لبرون بتسع سنوات فقد سبقه في الحجج إلى روما بلوحة الوان، وتعلق قلبه بالمدينة الخالدة كما تعلق بها بوسان، حتى لقد استقر رأيه على العيش فيها طوال حياته. وقد طاش فيها فعلاً اثنتين وعشرين سنة (١٦٣٥ - ٥٧) واغتبط زبائنه باللوحات التي رسمها لهم اغتباطاً حمل في النهاية البابا أنوسنت العاشر، الذي ربما ساءه الوجه الذي خلعه عليه فيلاسكوز من قبل، على أن يجلس إلى منيار الذي أضفى عليه طلمة أطف. وفي ١٦٤٦، حين بلغ منيار الرابعة والثلاثين، تزوج حسناً إيطالية، ولكنه ما إن سكن إلى الأبوة الشرعية حتى تلقى دعوة من فرنسا ليذهب ويخدم الملك، فذهب على مضض. وفي باريس تمرد على قبول التوجيهات من لبرون، ورفض الانضمام إلى الأكاديمية، وحز في نفسه أن يرى زميله الأصغر يحسد الأنواط والأموال. وأوصى

مولير كولبيره ، ولكن لعل الوزير أنصف في ايثاره لبرون ، فإ كان منيار ليرضى أن يرتفع إلى مستوى الفخامة المتكلفة التي تطلبها القرن العظيم . على أية حال ، كان لويس الذي بلغ العشرين آتئذ في حاجة إلى صورة فاتمة له يغوى بها عروسا من أسبانيا . وارتضى منيار أن يرسمها ، وافقتن لويس وماريا تريزا بها ، وغدا منيار أنجح رسام الأشخاص في هذا العهد . فرسم لوحات لمعاصريه الواحد تلو الآخر : مازاران ، وكولبير ، ورتز ، وديكارت ، ولافونتين ، ومولير ، وراسين ، وبوسويه ، وتورين ، ونيون دلانكلو ، ولويز دلافالير ، والسيدات مونتسبان ، ومانتنون ، ولافايت ، وسفينييه ، وقد أنصف يدي آن المساوية اللتين عددهما الناس أجهل الأيدي في العالم ، فكافأته بمهمة تزيين قبو القبة في كنيسة فال — دجراس ، وكان هذا الرسم الجصى رائعته الكبرى التي أشاد بها مولير في إحدى قصائده . وقد صور الملك غير مرة ، وأشهر صورته المروضة في فرساي والتي يرى فيها راكبا جواده ، ولكننا نجد هناك على أروعه في اللوحة البديعة المسماة « دوقة مين في طفولتها » . وبعد موت كولبير انتصر منيار في النهاية على لبرون ، خلف غريمه مصورا للقصر في ١٦٩٠ ، وعين عضوا في الأكاديمية بمرسوم ملكي ، وبعد خمس سنوات مات في الخامسة والثمانين وهو لا يفتأ يرسم ويناضل .

وجاهد رهط من المصورين غير من ذكرنا في خدمة الملك الذي استوعب الفنانين جميعا . فشارل دوفرينوا ، وسبستيان بوردون ، ونويل كوايل وابنه أنطوان ، وجان فرانسوا دتروا ، وجان جوفنيه ، وجان باتيست ساتير ، والكساندر فرانسوا ديبورت — هؤلاء كلهم يلتمسون أن يسلكوا في زمرة الحاضرين هذه الوليمة للملكية . وهناك فنانون آخرون يبرزان بقوة في نهاية العهد — وأولهما نيكولا دلارجلير الذي خلف منيار مصورا أثيرا للأرستقراطية لا في فرنسا وحدها بل في انجلترا أيضا بعض الوقت

(١٧٧٤ - ٧٨) . وقد اكتسب حب لبرون باللوحة الرائعة التي رسمها له والمعروضة الآن في اللوفر . وألوانه الرمزية ولمسته الخفيفة تبين الانتقال من اضمحلال لويس الرابع عشر المعتم إلى عصر آخر مرح ، هو عصر الوصاية والفنان فاتو .

أما الثانى وهو ياسينت ريجو ، فكان أصلب عودا . وقد كسب هو أيضا قوته برسم الأشخاص (أنظر صورته البديعة لبوسويه فى اللوفر) ، ولكنه لم يسكبه بالتملق . ومع أن صورته التي اظهر فيها لويس الرابع شائحا مسيطرا ، والتي ترتفع فى مؤخرة قاعة اللوفر الكبرى ، تبدو من بعيد وكأنها إشادة بالملك ، فإننا نلاحظ إذا تأملناها عن كثب ملامح الملك جامدة منتفخة ، وهو واقف على قمة سلطته وعلى حافة قدره (١٧٠١) . وكانت أعلى صور العصر نمنا كما أنها أفضلها عرضا ، فقد نقد لويس ريجو فيها ٤٠٠٠٠ فرنك (١٠٠٠٠٠ دولار ؟) - وربما كان هذا الأجر معادلا لما دفعه لويس نمنا للثياب الرائعة التي زينته هنا المحللة .

٥ - النحت

كان المثالون أقل حظوة وثوبا فى هذا العهد من المصورين . ومع ذلك فالمنحوتات المرمرية القديمة هى التي اشتهى لبرون أن تصاغ على غرارها جميع الفنون . وقد أنفقت الأموال الطائلة وسخرت اللواهب الكثيرة فى شراء أو نسخ التماثيل التي بقيت على قيد الحياة بعد انهيار العالم القديم . ولم يقنع لويس بالنسخ طبعا . وإذ كان يذكر حدائق سالوست وهادريان الرومانية ، فقد استخدم لفيفا من المثالين الأكفاء لينفخوا بتماثيلهم الحياة فى بستان فرساي . وأقيمت الزهريات الضخمة كزهريّة الحرب التي صنعها كوازييفوكس فى حوض ببتيون ، وعلى شرفة القصر ، ونحت الشقيقتان جاسبار وبلتازار دمارسى « حوض باخوس » العظيم ، وأبرز جان باتست

من البحيرة تمثاله الرائع « مركبة أبولو » والإله الشمس فيه يرمز للملك ، ونحت فرنسا جيراردون في الحجر من « الحوريات المستحبات » ما لم يكن يراكستليس ذاته ليأنف من نسبه إليه .

وتطلع جيراردون قرناً إلى الخلف ليري كيف صور بريئاتشو وجوجون جسد الأثني في صورة كاملة . وعاد إليه ذلك الحسن الانسيابي الذي اتسم به الفن الهيليني ، ربما في إصراف ، ومهما بحثنا وفتشنا فإننا لم نجد إلى الآن إنائاً كاملات الأجساد كأوائك اللاتي نجدهن في تمثالي « اغتصاب بروزيرين (١٧) » . ولكنه كان قادراً على التعبير عن حالات نفسية أقوى من هذه . وقد صنع لميدان فاندوم تمثالاً للويس الرابع عشر محفوظاً الآن في اللوفر ، ونحت لكنيسة السوربون مقبرة نعمة لريشليو . وقد أحبه لبرون لأنه تجاوب في لطف مع ذوق الأكاديمية وأهدافها . وخلف لبرون كبيراً لمثالي الملك ، ورأس الأكاديمية بعد وفاة منيار . ومع أنه ولد قبل لويس بعشرة أعوام إلا أنه عمر بعده شهوراً ، ومات في ١٧١٥ وهو في السابعة والثمانين .

أما أنطوان كوازيغوكس فكان إنساناً أرق من اسمه ، محبباً إلى الناس كتمثاله « دوقة برجندية » . ولد بليون ، وكان ينحت لنفسه مكاناً بين المثاليين حين دعاه لبرون ليساعد في زخرفة فرساي . وقد بدأ بصنع نسخ أو مقتبسات رائعة من التماثيل القديمة . فنحت عن تمثال رخامي قديم في فيللا بورجيزي « حورية المحارة » ، وعن تمثال في قصر مديتشي بفلورنسة نقل « فينوس الجامعة » وكلا التماثيل محفوظ في مستودع الفن المحفوظ الذي نسميه اللوفر . وما زال في مكانه بفرساي تمثاله « كاستور وبولكس » الذي نقله عن مجموعة مجذائق لودوفيزي بروما . وما لبث أن أنتج أعمالاً أصيلة فيها قوة لا يستهان بها . فنحت لبستان فرساي تمثال كبيراً تمثل نهري الجارون والدوردون ، ولساحة قصر مارلي رمزين شبيهين بهذين لنهري السين وللمارن .

وفي حدائق التويلزي اليوم أربعة تماثيل رخامية نحتها لمارلي ، وهي فلورا (ربة الزهر) — والشهرة ، وهورية الغابات ، وعطارد راكبا بيجاسوس . وقد خرج من تحت إزميله الكثير من الزخارف المنحوتة في حجرات فرساي الكبرى .

وظل يسكدح في فرساي ثمانية أعوام ، وقضى خمسة وخمسين عاما في خدمة الملك . فنحت له اثني عشر تمثالا ، أشهرها تمثاله النصفي في فرساي ، وأصبح في النحت ما كان منيارا في التصوير — أحب نحاتي الوجوه إلى الناس في فرنسا . وبدلا من أن يتشاجر مع منافسيه نحتهم في الرخام أو صلبهم في البرونز ، فوفر عليهم غروهم وتقودم . وحين تلقى ١٥٠٠ جنيهه أجرا لتمثال النصفي الذي صنمه لسكولير ، رأى الأجر مغالى فيه فرد منه سبعمائة جنيهه (١٨) . وقد ترك لنا تماثيل كاملة الشبه بلبرون ، ولنوتر ، وآرنو ، وفوبان ، ومازارن ، وبوسويه ، وترك لنفسه ترجمة بسيطة لوجه أمين أشعث مضطرب (١٩) ، ولكونديه العظيم تمثالين نصفيين أحدهما في اللوفر ، والآخر في شانتي ، يتميزان بصدق وفحولة لامراء فيهما . ثم نحت بأسلوب مختلف تماما تمثالا رشيقا لدوقة برجندية في صورة ديانا (٢٠) ، والتمثال النصفي الجميل لنفس الأميرة في فرساي . وصمم مقابر رائعة لمازاران (٢١) وكولبير ، وفوبان ، ولبرون . ولأعماله ملمس الروح الباروكية في طاقفيتها للمسرحية ومبالغتها العارضة ، ولسكنها في أحسن صورها تعبيرا حسنا عن المثل الكلاسيكي الذي استهدفه الملك والبلاط ، فهي راسين متمثلا في الرخام والبرونز .

وحوله وحول جيراردون تجمع سباعي من المثالين ، فرنسوا انجيه ، وأخوه ميشيل ، وفليب كوفيه وابنه فرانسوا ، ومارتان ديجاردان ، وبيير لجرو ، وجيوم كوستو ، الذي مازالت « خيل مارلي » التي نحتها تثب في الهواء بميدان الكونسكورد .

وفضلا عن هؤلاء المثالين جميعا ، وعلى مبعدة منهم ، وفي تحد لمثالية النحت الرسمي الناعمة ، أنطق بيير بوجيه إزميله بفضب فرنسا وبؤسها . وقد ولد في مارسيليا (١٦٢٢) وبدأ حياته الفنية حفارا في الخشب ، ولكن نفسه تافت كما تافت نفس مبيوده ميكلانجلو من قبل لأن يصبح في وقت واحد مصورا ومثالا ومعاريا وقد أحس أن الفنان العظيم ينبغي أن يسيطر على هذه الفنون جميعا . وإذا كان يحلم بأفذاذ الفنانين الإيطاليين فقد سار من مرسيليا إلى جنوة إلى فلورنسة إلى روما . وتلمذ في حماسة لببيترودا كورتونا في زخرفة قصر بارباريني ، وتشرب كل صدى وأثر لبوناروتى ، وحسد بريني على شهرته المتعددة الجوانب . فلما طاد إلى جنوة نحت تماثال القديس سبستيان الذى أذاع اسمه لأول مرة ، فسكفه فوكيه ، الذى سبق لويس الرابع عشر في تبين مواهب هذا الفنان أيضا ، بأن ينحت تماثال « هرقول (٢٢) » لقصر فو ، ولكن فوكيه سقط ، فهرع بيير إلى الجنوب ليتمسك في فقره ويحتر همومه . ولما كلف بنحت مجموعة « أطلانطيس » — وهى تماثيل رخامية لأطلس ، ليحمل بها شرفة « الأوتيل دفييل » ، صاغ التماثيل على غرار الجمالين السكادحين في أرسفة الشحن ، وكان ينطق عضلاتهم للكدودة ووجوههم التى شوهها الألم بصرخة الثورة — ثورة الملحونين الذين يحملون العالم على أكتافهم . ولكن فنا كهذا ما كان ليمجب فرساي .

ومع ذلك فان كولبير الذى فتح ذراعيه للمواهب طلب إليه أن ينحت تماثيل يؤثر أن تسكون ذات مسحة أسطورية بريئة . فأرسل إليه بوجيه ثلاث قطع محفوظه الآن بالوفر : نحتا قليل الغور لطيفا يمثل الإسكندر وديوجين ، وتمثالا فيه جهد وإسراف لبيرسيوس وأندروميديا ، وتمثالا عنيفاميلو كورتونا — ذلك النباى الجبار يحاول الخلاص من فكى أسد عنيد ومخالبه .

وفي ١٦٨٨ زار بوجيه باريس ، ولكنه وجد طبعه المتكبر وإزميله الغضوب يتنافران مع ظرف البلاط وفنه ، فقفل راجعا إلى مرسيليا ، وهناك صمم تثنالي « البرة » و « سوق السمك » - ولا عجب ففي فرنسا حتى سوق السمك يمكن أن يكون عملا فنيا . ولعل أعظم تماثله قصد به أن يكون تمليقا على مغامرات الملك الحربية ، وهو تثنال للإسكندر راكبا يبدو فيه وسيا مشرقا ، يحمل خنجره في يده ، ويدوس ضحايا الحرب (٢٣) في غير أكثرات تحت سنابك جواده . وقد أفلت بوجيه من رسمية لبرون وفرساي ، ولكنه أفلت أيضا من انضباطهما . وافضى به طموحه لمنافسة برايني ، وحتى ميكلانجلو ، إلى مبالغات في تصوير عضلات الجسد وتعبيرات الوجه ، ومن ذلك « رأس ميدوزا » الرهيب المحفوظ بالوفور . ولكنه كان على الجملة أقوى نحات في وطنه وفي جيله .

وإذ قارب المهسد العظيم نهايته ، وجرت الهزائم فرنسا إلى حال من اليأس الشديد ، انصرفت كيرياه الملك إلى التقوى ، وانتقل الفن من خرور فرساي إلى التواضع الذي يطالعا في تثنال كوازفوكس لويس الرابع عشر راكما في النوتردام - هنا نرى الملك وقد بلغ السابعة والسبعين ، مزهوا إلى الآن بأثوابه الملكية ، ولكنه يضع تاجه في تواضع عند قدمي العذراء . في هذه السنوات الأخيرة تقلص الإنفاق على فرساي ومارلي ، ولكن خورس النوتردام رمم ووجل . أما عبادة الفن القديم فقد فسدت نتيجة لشططها ، وبدأ الطبيعي يجور على الكلاسيكي ، وقضى على دفعة الفن الوثنية إلغاء مرسوم نانت . وتسلط مدام دمانتون ونابيه على الملك . وشددت للموضوعات الزخرفية الجديدة على الدين لا على المجد ، فلقد عرف لويس ربه أخيرا .

إن تاريخ الفن ابان حكم الملك العظيم يعذبنا بأسئلة عويصة . فهل كان تأميم الفنون نعمة أو نقمة ؟ وهل حول تأثير كولبير ولبرون والملك تطور

فرنسا من الاتجاه الأصيل والطبيعي ، إلى محاكاة موهنة لفن هلنستي حل به الضعف ، محاكاة شوشها إسراف باروكي في الزخرفة ؟ وهل تثبت هذه السنوات الأربعون من « طراز لويس الرابع عشر » أن الفن يزداد ازدهارا في ظل ملكية ترعاه بالثروة المركزة ، وتوجه المواهب في وحدة متسقة ؟ — أم في ظل ارسطراطية تصون ، وتوصل ، وتعديل في حذر ، معايير الجودة والذوق ، وأصول النظام والانضباط ؟ — أم في ظل ديمقراطية تفتح الطريق أمام كل موهبة وتطلق الكفايات من ربة التقاليد ، وتلزم الفن بأن يعرض إنتاجه على الشعب ويكيفه وفق رأيه ؟ وهل كان ممكنا أن تغدو إيطاليا وفرنسا الوطنين المحظوظين للفن والجمال اليوم لولا أنهما جملتا بأموال وأذواق السكنيسة والنبلاء والملوك ؟ وهل كان ممكنا أن يوجد فن عظيم دون تركيز الثروة ؟

إن الجواب المتواضع المفيد عن هذه الأسئلة يقتضى حكمة طالمية ، وأي جواب من هذا القبيل لابد أن يجعله التفريقات والشكوك جوابا ضامضا غير حاسم . ولعل الفن فقد شيئا في طبيعته ومبادرته ونشاطه نتيجة لما بسطته عليه القوة المركزية من حماية وتوجيه وهيمنة . صحيح أن فن لويس الرابع عشر كان فنا منظما ، أكاديميا ، جليلا بهائه المنسق ، لا يفوقه فن في صقله الفني ، ولكن السلطة عطلت قدرته على الابتكار ، وقد قصر دون ذلك الالتحام بالشعب الذي أضى الهدف والعمق على الفن القوطي . لقد كان آساق القنون في عهد لويس راعيا ، ولكن كثيرا ما كان يعزف على نفس الوتر ، حتى لقد أصبح في النهاية تعبيرا لاعن جيل وأمة ، بل عن ذات وبلاط . صحيح أن الثروة لاغنى عنها للفن العظيم ، ولكن الثروة تكون عارا ، والفن يكون بغيضا ، إذا ازدهرا على حساب فقر شامل واعتقاد بالخرافات مندل ، فالجيل لا يمكن فصله طويلا عن الخبر . وقد تكون الارستقراطية حارسا وناقلا مفيدا للمعادن والمعايير والأذواق

إذا تيسرت الأسباب ففتحها أمام المواهب الجديدة، ولمنهما من أن تكون أداة للامتياز الطبقي وللترف الكاذب . كذلك تستطيع الديمقراطيات أن تجمع الثروة وتضفي عليها الكرامة بتغذيتها للمعرفة والأدب والبر والفن ، ومشكلات الديمقراطيات في معاداة الحرية غير الناضجة للنظام والانضباط ، وفي نمو الذوق نموا بطيئاً في المجتمعات الناشئة ، وفي ميل الكفاليات غير المحكومة لأن تبدد نفسها في تجارب شاذة تخطيء الابتكار فتحسبه عبقرية ، والطرافة فتحسبها جمالا .

على أية حال كان رأى استقرائيات أوروبا في صف الفن الفرنسى دون ما تردد . فانتشر معمار القصور والنحت الكلاسيكى والأسلوب الأدبى والزخرفة الباروكية اللآثا والثياب - انتشر هذا كله من فرنسا إلى كل طبقة حاكمة تقريباً في غرب أوروبا حتى إلى إيطاليا وأسبانيا . وتطلعت قصور لندن وبروكسل وكولون ومينستر ودرسدن وبرلين وكاسل وهيدلبرج وتورين ومدريد إلى فرساي مثلاً تحذيه في السلوك والفن . وكلف المعمارىون الفرنسيون بتصميم القصور حتى مورافيا شرقاً ، وصمم لنوتر الحداثى في وندزور وكاسل ، ووفد رن وغيره من المعمارىين الأجانب على باريس أينما واهتت عنها الأفكار ، وابتث النحاتون الفرنسيون في جميع أرجاء أوروبا ، حتى أصبح لكل أمير تقريباً تمثال راكب كتمثال ملك فرنسا . وظهرت قصص لبرون الرمزية الأسطورية في السويد ، والدانمرك ، وأسبانيا ، وهامتن كورت . والتمس الملوك الأجانب أن يجلسوا إلى ريجو ليصورهم فإن لم يتيسر فإلى أحد تلاميذه . وأوصى حاكم سويدي بقطع من نسيج بوفيه المرسوم تخليداً لانتصاراته . إن التاريخ لم يشهد منذ انتشار الثقافة اللاتينية القديمة في غرب أوروبا غزواً ثقافياً أنجز بمثل هذه السرعة وهذا السجال .

الفصل الرابع

موليير

١٦٢٢ - ٧٣

١ - المسرح الفرنسي

بقى الآن أن نخضع المسرحية والشعر الفرنسيان أوربا لسلطانهما .

ولقد شاء هوى التاريخ أن ينصرف الأدب الفرنسي في هذا العصر إلى المسرح ، وأن يشجع الكردينال ريشليو المسرحية التي غلت الكنيسة تحرمها طويلا ، وأن يستورد الكردينال مازارن الملهة الإيطالية إلى فرنسا ، وأن يرث لويس الرابع عشر حب المسرح من هذين الكاهنين اللذين مهدا لسلطته أو حفظاها .

كانت المسرحية الحديثة قد بلغت الشكل الأدبي في إيطاليا برعاية بابوات النهضة الرفيعة الثقافة ، وكان ليو العاشر يحضر التمثيليات دون أن يطالب بأن تكون صالحة للمدارى . ولكن الإصلاح البروتستنتى وجمع تروت المترتب عليه وضعا حدا لهذا التساهل السكمنى . وقال بنديكت الرابع عشر إن المسرحية لم يستمر السماح بها في إيطاليا إلا درءا اشورر أفدح ، وفي أسبانيا إلا لأنها تخدم الكنيسة . وأما في فرنسا فإن رجال الأكيروس ، اللذين صدمتهم الحرية الجنسية التي تتمتع بها المسرح الهزلى ، نددوا بالمسرح عدواً للأداب العامة . وقضت سلسلة طويلة من الأساقفة واللاهوتيين بأن الممثلين محرومون بحكم طبيعة الحالة ، أى بحكم مهنتهم ذاتها ، وأنكر عليهم قساوسة باريس ، اللذين عبر عنهم صوت بوسويه الأمر ، حق تناول الأسرار أو الدفن في أرض مكرسة إلا إذا تابوا وأقلعوا عن مهنتهم . وإذ حرروا من مراسم

سر الزواج يقوم بها كاهن ، فقد كان عليهم أن يقنعوا بزيجات عرفية بالغة القلق وعدم الاستقرار ، كذلك وسم القانون الفرنسي الممثلين وأقصامهم عن كل وظيفة شريفة ، وحظر على القضاة حضور الحفلات التمثيلية .

ومن ملامح التاريخ الحديث البارزة أن المسرح استطاع التغلب على هذه المقاومة . ذلك أن المطلب الشعبي للتظاهر والادماء تخففاً وثأراً من الواقع ألحجب المدد العديد من الهزليات والملاهي ، وكان للآلام التي فرضها على الرجال الاقتصار على زوجة واحدة الفضل في إقبال جمهور سخى العطاء على مسرحيات الحب الحلال أو الحرام . ويلوح أن ريشليو وافق ليو العاشر على أن أيسر سبيل للهيمنة على المسرح هو رعاية أفضل المسرحيات لا رفضها كلها ، وبهذه الطريقة قد يتيح القدوة للذوق العام ، والعيش للفرق المسرحية المهذبة . وليلاحظ القارئ تقرير فولتير الآتي : « منذ أدخل الكردينال ريشليو الأداء المنتظم للتمثليات في البلاط ، الأمر الذي جعل باريس الآن منافسة لأثينا ، لم يقتصر الأمر على تخصيص مقعد يجلس عليه رجال الأكاديمية التي تضم نفران المساوسة ، بل خصص مقعد آخر للأساقفة (١) . وفي ١٦٤١ ، ربما بناء على طلب الكردينال ، بسط لويس الثالث عشر رعايته على فريق من الممثلين عرفوا بعدها بالفرقة الملكية أو الكوميديين الملكيين ، وأجرى عليهم معاشا قدره ألف ومائتا جنيه في العام ، وأصدر مرسوماً يعترف بالمسرح لوناً مباحاً من ألوان الترفيه ، وأعرب عن رغبة الملك في ألا تعتبر مهنة الممثل بعدها ضارة بمركزه في المجتمع (٢) . وأقامت الفرقة مسرحها في « الأوتيل دبورجون » ، وحظيت برعاية لويس الرابع عشر الرسمية ، واحتفظت طوال حكمه بتفوقها في أخراج المآسي .

ورغبة في رفع مستوى الملهاة الفرنسية ، دعا مازاران نفران من الممثلين الإيطاليين إلى باريس ، ومنهم تيبيريو فيوريللي ، الذي أصبح أثيراً لدى باريس والبلاط بأدائه دور المهرج الفشار « سكاراموتشا » . ولعله هو

وزملاؤه شاركوا في بعث حمى المسرح في أوصال جان بوكلان الرابع ،
وفي تعليمه فنون المسرح الهزلي (٣) . فلما عاد «سكاراموش» إلى إيطاليا —
(١٦٥٩) أصبح جان بوكلان . الذي عرفه المسرح والعالم باسم موليير ،
الممثل الهزلي الأول للملك ، وبمدها بقليل — في رأى بوالو المولع به —
أكبر كتاب العصر .

٢ - تلمذته

على المبنى رقم ٩٦ بشارع سانت — أونوريه كتابة بحروف من ذهب
هذا نصها : —

شيد هذا البيت فوق موضع البيت الذى ولد فيه موليير

في ١٥ يناير ، ١٦٢٢

وكان البيت بيت جان باتست بوكلان الثالث — منجد الأثاث والمزخرف .
وكانت زوجته ماري كريسيه قد أتته بمهر قدره ٢٢٠٠ جنيه ، وأنجبت له
سنة أطفال ، ثم ماتت بعد زواجهم بمشرف سنين ، ولم يكن طفلها الأول —
جان باتست بوكلان الرابع — يتذكرها في وضوح ، ولم يذكرها قط في
تمثيلياته . وتزوج الأب ثانياً (١٦٣٣) ولكن زوجة الأب ماتت في ١٦٣٧ ،
فكان على الأب أن يحمل عبء عبقرية ولده ، وبوجه تعليمه ، ويفكر في
تشكيل مجرى حياته . وفي ١٦٣١ أصبح جان بوكلان الثالث «المشرف
على تنجيد أثاث حجرة الملك» ومنح امتياز إعداد السرير الملصق والسكنى
في البيت الملصق ، لقاء راتب سنوى قدره ثلثمائة جنيه ، وهو مبلغ متواضع ،
ولكنه لم يلزم الحضور في أى عام أكثر من ثلاثة أشهر . وكان الأب قد
اشترى الوظيفة من أخيه ، وأراد أن يورثها ابنه . وفي ١٦٣٧ أقر لويس

الرابع عشر حق جان بوكلان الرابع في وراثة الوظيفة ؛ ولو أن تطلعات الأدب
تحققت لعرف التاريخ موليير — إن عرفه إطلاقاً — بأنه الرجل الذي كان
يعد سرير الملك . على أن جداً للصبي أولع بالمرح ، فكان يصطحبه إلى
حفلات التمثيل بين الحين والحين .

وأعداداً لجان الرابع لتهيئة سرير الملك ، أرسل إلى كلية اليسوعيين في
كليرمون ، وكانت الأم الحانية على المهرطقين . وهناك تعلم الكثير من
اللاتينية ، وقرأ تيرنس وأفاد منه ، ولا شك أنه اهتم ، وربما شارك ، في
المسرحيات التي عرضها اليسوعيون أداة لتعليم تلاميذهم اللاتينية والأدب
والسكلام ويقول فولتير إن جان تلقى كذلك تعليماً عن الفيلسوف جاسندي
الذي كان قد عين معلماً خاصاً لزميل في فصل جان . على أية حال تعلم جان
الكثير عن أبيقور ، وترجم شرطاً كبيراً من ملحمة لوكريتيوس الأبيقورية
De rerum natura (وبعض سطور مسرحيته « مبغض البشر »^(٤) . تسكاد
تكون ترجمة لفقرة في لوكريتيوس^(٥) . والراجع أن جان فقد إيمانه
قبل أن يختتم صباه^(٦) .

وبعد أن قضى خمس سنين في الكلية درس القانون ، ويبدو أنه مارسه
حقبة قصيرة في المحاكم . ثم اتخذ مهنة أبيه بضعة أشهر (١٦٤٢) . وفي
ذلك العام التقى بمادلين بيجار ، وكانت وقتها سيدة مرحة في الرابعة والعشرين .
وقبل ذلك بخمس سنين كانت خليعة للكونت دمودين ، الذي اعترف في
سماحة بالطفل الذي ولدته له ، وأذن لابنه في أن يقف عراباً له عند صماده .
وفتنت مادلين جان — وكان قد بلغ العشرين — وسحرته بجمالها وطبعها
البشوش اللطيف . وأغلب الظن أنها قبلته عشيقاً . وقد حمله عشقها للمسرح ،
مع عوامل أخرى ، على اتخاذ قرار بأن يولى لتنجيد الأثاث ظهره ، وأن
ينزل عن حقه في أن يخلف أباه مشرفاً على تنجيد حجرة الملك لقاء ٦٣٠ جنيتها ،
وأن يلتقي بنفسه في خضم التمثيل (١٦٤٣) . وذهب ليقم في بيت مادلين

بيجار^(٧). ثم دخل معها ومع أخويها وآخرين في تماقد رسمي أنشأوا بمقتضاه « للمسرح الشهير » (٣٠ يونية ١٦٤٣). ويعتبر الكوميدي فرانسيز ذلك العقد بداية لتاريخه الطويل الممتاز . واتخذ جان الآن اسماً مسرحياً جرياً على عادة الممثلين ، فأصبح يسمى موليير .

واستأجرت الفرقة الجديدة ملعباً للتنس مسرحاً لها ، وقدمت مختلف التمثيليات ، ثم أفلست ؛ وفي ١٦٤٥ قبض على موليير ثلاث مرات بسبب الدين ودفع أبوه عنه ديونه وحصل على أمر بالإفراج عنه معللاً نفسه بأن الفتى قد برىء من همى المسرح . ولكن موليير أعاد تأليف « للمسرح الشهير » وانطلق في جولة بالأقاليم . ومنح الدوق ديبيرون حاكم جيين الفرقة تأييده . وتقلت الفرقة في سلسلة مضنيه من النجاح والفشل بين ناربون ، وتولوز ، وألبى ، وكاركاسون ، ونانت ، وآجن ، وجرينوبل ، وليون ، ومونبلييه ، وبوردو ، وبزييه ، وديجون ، وأفنيون ، وروان . وارتقى موليير حتى أصبح مديراً لها (١٦٥٠) ، ووفق بمشرات الحيل في أن يحفظ للفرقة قدرتها على إبقاء ديونها ويكفل لها طعامها . وفي ١٦٥٣ أعار الأمير ديكوتى ، زويه المدرسى القديم ، اسمه للفرقة وقدم لها المعونة ، ربما لإعجاب سكرتيره بالمشكلة الأنسة دوبارك . ولكن الأمير أصابته نوبة شلل دبنى في ١٦٥٥ ، فأخبر الفرقة بأن ضميره يمنعه من الاتصال بالمسرح ، ومالبت بعد ذلك أن تدع علانية بالمسرح ، وبموليير بصفة خاصة ، مفسداً للشباب وعدوا للفضيلة والمسيحية .

ووسط هذه التقلبات نهضت الفرقة شيئاً فشيئاً بكفايتها ودخلها وذخيرتها من المسرحيات . وتعلم موليير فن المسرح وحيله . فوافى عام ١٦٥٥ حتى كان يكتب التمثيليات كما يمثلها . وفي ١٦٥٨ آس في نفسه من القوة ما يكفي لتحصدي فرقتين احتلتا المسرح الباريسى ، فرقة ممثلى الملك فى الأوتيل دبورجون ، وفرقة خاصة تمثل فى مسرح ماريه . وحضر هو ومادلين بيجار

من روان إلى باريس ليمهدا الطريق لفرقتها • وزار أباه ، وظفر بمنعوا عن ذنوبه ومهنته . ثم أقنع فيليب الأول دوق أورليان بأن ييسر حمايته على الفرقة وأن يحصل لها على إذن بإقامة حفلة تمثيلية بالبلاط .

وفي أكتوبر ١٦٥٨ مثلت « فرقة المسيو » هذه أمام الملك في قاعة الحرس باللوفر مأساة كورنى « نيكوميديا » ، ومثل موليير الدور الرئيسى دون توفيق كبير ، لأنه كما يقول فولتير كان يعانى « من ضرب من الفواق لا يلائم البتة الأدوار الجادة ، ولكنه يعين على جعل تمثيله فى الملهاة أكثر إمتاعا » (٨) . وقد أنقذ الحفلة بأن أتبع المأساة بملهاة فقدت الآن معالمها ، ومثل بحبوية ومرح ، وحاجب مرئوع وفم مثرثر جعل الجمهور يتساءل لم يمثل المأساة إطلاقا • وكان فى الملك من الصبى ماجعله يستمتع بهذا الهزل ، ومن الرجولة ماجعله يقدر شجاعة موليير • فأصدر تعليماته بأن تشارك فرقة المسيو فرقة سكاراموش الإيطالية فى قاعة البتى بوروبون، وهناك أيضا أخفق الممثلون الوافدون حين حاولوا تمثيل المأسى التى قصروا فى أدائها دون ممثلى الملك فى الأوتيل دبورجون ، ووفقوا فى التمثيليات الهزلية ، لاسيما التى ألفها موليير • ومع ذلك واصلوا إخراج المأسى • ذلك ان كبار الممثلات كن يشعرن بأنهن يتألقن أكثر فى الدراما الجادة ، ولم يكن • وليير نفسه راضيا قط بأن يكون كوميديا ، لأن صراعات الحياة وسخاقتها أورثته مسحة من الحزن ، وقد وجده أمرا فاجماله أن يكون على الدوام مضحكا • يضاف إلى هذا أنه ستم هزليات المسكائد الغرامية والشخصيات المبتذلة وكباش الفداء المألوفة ؛ وأكثرها أصداء لإيطاليا • وتلفت حوله فى باريس فرأى فيها أشياء لا تغفل إضحكا عن بوليشينيل وسكاراموش • وروى عنه قوله « لم يعد فى حاجة إلى اتخاذ بلوتس وتيرنس أساتذة لغنى أو إلى السطو على ميناندر • فما على إلا أن أدرس هذه الدنيا » (٩) •

٣ - مولير ونساء المجتمع

مثال ذلك « الأوتيل د- امبويه » حيث كان الرجال والنساء يجدون الآداب الرقيقة والحديث المعطر . فكتب مولير تمثيلية « المتحذلقات المضحكات » . وكان إخراجها (١٨ نوفمبر ١٦٥٩) فاتحة لمهارة العادات الفرنسية وبداية لحظ مولير وشهرته . وكانت المهارة من القصر بحيث لم يستغرق تمثيلها أكثر من ساعة ، وفيها من الحدة ما خلف لذعة طويلة الأيلام . استمع إلى ابنتي العم ، مادلون وكاتوس ، اللتين تلفهما سبعة أفنعة من التطرف ، تحتجان على تلف الكبار ، الواقعيين ، المفلسين ، على تزويجها .

جرجيوس : أى عيب تريان فيهما ؟

مادلون : ياله من كياسة رائعة منها حقاً ماذا ، أبدأ فوراً بالزواج . . . لو كان الناس جميعاً مثلك لفضى للتو على الرومانس . . . إن الزواج ينبغي ألا يتم أبداً إلا بعد مغامرات أخرى . فعلى العاشق إن أراد قبولاً أن يفهم كيف يعبر عن العواطف المهذبة ، وكيف يتأوه بالحديث الناعم ، الرقيق ، المشبوب ، ويجب أن يكون حديثه مطابقاً للقواعد . فعليه بأذى ذى بدء أن يرى فى الكنيسة أو فى الحديقة العامة أو فى حفل تام تلك التى يشغف بها احبا ، وإلا وجب تقديمه إليها التقديم المحتوم بواسطة قريب أو صديق ، ثم عليه أن ينصرف عنها مكتئباً متأملاً . ثم يخفى عاطفته حيناً عن موضع حبه ، ولكنه يزورها مرات ، لا يعدم فيها طرح بعض الحديث عن مغازلة النساء على البساط تدريباً لمقول الجماعة كلها . . . ثم يأتى اليوم الذى يبوح فيه بحبه ، وينبئ أن يتم هذا عادة فى ممشى حديقة بينما الجماعة على بعد منها . وهذا التصريح تقابله طادة بالاستياء ، الذى يبدو فى احمرار وجوهنا ، والذى يقص العاشق عنا زمناً ، ثم يجد الوسيلة لمصالحتنا بمد حين ، ولتعويدنا أن نسمع حديث غرامه دون أن نقلم ، واستلال ذلك الاعتراف الذى يسبب لنا حرجاً شديداً .

ثم تتلو ذلك للغامرات : المزاحمون الذين يحبطون ميلا رسخ ، واضطهادات الآباء ، والغيرة للنبيثة من المظاهر الكاذبة ، والشكاوى ، واليأس ، والهروب مع الحبيب ، وما يسفر عنه من عواقب . هكذا ينبغي أن تجرى الأمور بأسلوب جميل ، وتلك هي القواعد التي لاغنى عنها للتودد المهذب الأنيق . أما الاندفاع رأسا إلى الرباط الزوجي ، وأما عدم مطارحة الغرام إلا بعقد الزواج ، والإمسك بالمغامرة الرومانسية من ذيلها — فرة أخرى أقول لك يا أبا العزير إنه ما من شيء أكثر آلية من تصرف كهذا ، وبمجرد التفكير فيه يشعري بالغثيان .

كانوس : أما أنا يا عمه فكل ما أستطيع أن أقوله هو إنني أرى الزواج شيئا مروعا جدا . فكيف أطيق فكرة الرقاد مع رجل عريان حقا (١٠) ؟

ويستعير خادما الخطيبين ملابس سيديهما ويتنكران كـ كركيز و جنرال ، ويتوددان إلى السيدتين بكل ما يصاحب التودد من تطرف ومزاح . ويفاجئهما السيدان ، ويجردانها من ملابسها المزيفة ، ويتركان الشابتين أمام الحقيقة العارية تقريبا . وفي هذه الملهة ، كما في جميع ملاهي مولير الجنسية ، عبارات نابية وبعض المزاح الرخيص ، ولكن فيها هجوا لاذعا للحماقات الاجتماعية ، بلغ من حدته أن تأثيره أصبح حدنا في تاريخ حادات المجتمع . وقد نسبت رواية غير مؤكدة لامرأة من النظارة أنها وقفت وسط الجمهور وصاحت « تشجع ! تشجع ! هذه ملهة حسنة يا مولير » (١١) . وروى أن واحدا من رواد صالون مدام درامبويه قال بمد خروجه من التمثيلية « بالأمس أعجبنا بكل السخافات التي تقدمت نقدا رقيقا معقولا جدا ، ولكن علينا الآن — كما قال القديس ريمي اسكلوفيس — إن نخرج ماعبدنا ، ونعبد ما أحرقنا (١٢) . » وقابلت المركيزة درامبويه الهجوم بمهقرية ، إذ اتفقت مع مولير على إحياء حفلة يخصص إرادها لصالونها ، وقد رد على مجاملتها بمقدمة زعم فيها أنه لم ينجح صالونها بل مقلديه . على أية

حاله انتهى ملك « المتحدقات ». وقد أشار بوالو في هجائيته العاشرة إلى تلك « العقول الجميلة التي كانت بالأمس ذائعة الصيت ، والتي فرغها موليير بضربة واحدة من فنه » .

وقد نجحت المسرحية نجاحا ضوعف معه أجر مشاهدتها عقب حفلة الافتتاح . وقد مثلت في طامها الأول أربعاً وأربعين مرة ، وأمر الملك بإحياء ثلاث حفلات للبلاط ، حضرها جميعا ، ونفخ الفرقة بثلاثة آلاف جنيه . وما وافى فبراير ١٦٦٠ حتى كانت الفرقة الشاكرة قد دفعت ٩٩٩ جنيتها جمالة للمؤلف . ولكنه كان قد ارتكب غلطة إذ ضمن المسرحية إشارة هجاءها ممثلي المسرح الملكي « ثامن إنسان قادر على أن يشهر شيئا لإلام ، أما غيرهم فقوم جهلاء يمثلون أدوارهم كأتهم يتحدثون . هؤلاء لا يفقهون كيف يجعلون أبيات الشعر تملجلج ، أو كيف يقفون عند فقرة جميلة . فكيف تعرف الأبيات الرائعة إذا لم يقف الممثل عندها ويحرك بهذه الطريقة أن تصفق استحسانا (١٣) » .

وأعربت فرقة الأوتيل دبوربون عن احتقارها للسافر لموليير لعجزه عن إخراج المسأسة ، ولقدرته على الملهاة الرخيصة دون غيرها . وعزز موليير حججهم بتأليفه وعرضه مسلاة « فارص » متوسطة الجودة سماها « الديوث بالوم » ، ولو أن الملك سر بأن يشهدها تسع مرات .

وكانت التغييرات تجري خلال ذلك في مبنى اللوفر القديم ، فهدمت صالة البتي بوربون في استهتار ، ولاح حيناً أن « فرقة المسيو » التي يرأسها موليير لن تجد لها مسرحا . ولكن الملك المعطوف دائما بادر إلى إنقاذه بأن خصص له في الباليه — رويال « الصالة » التي خصصها ريشليو لعرض التمثيليات . وهناك ظلت فرقة موليير حتى مماته وكأنها جزء من جسم البلاط . وكان أول عرض له في هذا المأوى الجديد آخر محاولاته في المسأسة ، وهي « دون جراسي » . وكان رأيه — وله فيه بعض العذر —

أن أسلوب المأساة الخطابى الفخيم كما طوره كورنبي ، ومثلته فرقة الأوتيل-دبورجون ، أسلوب غير طبيعي ، وكان يتطلع إلى أسلوب أبسط وأكثر طبيعية . ولو سمح له تسلط النزعة الكلاسيكية على المسرح (وفواقه) لجاز أن ينتج مزيجاً موفقاً من المأساة والمهابة كما فعل شيكسبير ، فإن في أعظم ملامه والحق يقال مسحة من المأساة . ولكن « دون جراسى » سقطت ، برغم جهود الملك لدعمها بحضور ثلاث حفلات ، لقد كان قدر موليير أن يكابد للمأساة لا أن يمثلها .

وعليه فقد عاد إلى المهابة . ولقيت « مدرسة الأزواج » نجاحاً طيب خاطره إذ عرضت يومياً من ٢٤ يونيو إلى ١١ سبتمبر ١٦٦١ . وقد أذنت بزواج موليير الوشيك ، وكان وقتها في التاسعة والثلاثين ، من أرماند بيجار ، ذات الثمانية عشر ربيعاً ، ومشكلة المسرحية هي : كيف ينبغي أن يروض الشابة على أن تكون زوجة صالحة أمينة ؟ فالشقيقان أريست وسجاناريل محظوظان لكونهما الوصيين على الفتاتين اللتين ينويان الزواج منهما أما أريست ، البالغ من العمر ستين عاماً ، فيما مل فتاته القاصر ليونور ، ذات الثمانية عشرة ، بغاية اللين :

« لم أنظر إلى تجاوزاتها الصغرة على أنها جرائم . ولقد لبيت على الدوام رغباتها الشابة ، ولست والله الحمد آسفاً على ذلك . فقد أذنت لها بأن تخالط الأصحاب الطيبين ، وتشهد الملاهى ، والتمثيليات ، والمراقص ، فهذه أشياء أراها على الدوام صالحة لتربية عقول الشباب ، وما الدنيا إلا مدرسة أحسبها تعلم طريقة العيش خيراً من أى كتاب . إنها تحب أن تنفق المال على الثياب ، والقمصان ، والأزياء الجديدة . . وأنا أحاول أن أشبع رغباتها ، فهذه لذات ينبغي أن نتيحها للشابات متى استطعنا توفيرها لهن (١٤) » .

وأما الأخ الأصغر سجاناريل فيحترق أريست لأنه إنسان أحمق ضلته أحدث الأوهام . وهو بأسف على زوال الفضائل القديمة وعلى انحلال الأخلاق

الجديدة ، وعلى وقاحة الشباب المتحرر . وهو بنوى أن يأخذ فتاته القاصر
إيزابيل بنظام صارم ليروضها على أن تكون زوجه مطيعة :

« لا بد أن ترتدى الملابس اللائقة ٠٠٠ فإذا لثمت بيئها كما تلزمه للمرأة
العاقة انصرفت بجمعها إلى شئون الزوجية ، فترفو الثياب في ساعات فراغها
أو تحبك الجوارب لتتسلى بها . ولن تخطو خطوة خارج البيت إلا إذا قام
عليها رقيب ٠٠٠ إنني لن ألبس قروناً إذا استطعت إلى ذلك سبيلاً » .

وبعد دسيسة بعيدة الاحتمال (منقولة عن ملهاة أسبائية) تهرب إيزابيل
مع عاشق ذكي ، في حين تزوج ليونور من أريست وتظل وفية له إلى
آخر التمثيلية .

وواضح أن موليير كان يحاور نفسه . ففي ٢٠ فبراير ١٦٦٢ ، وهو في
الأربعين ، تزوج بأمرأة تصغره بنصف عمره . أضيف إلى ذلك أن عروسه
هذه — أرماند بيجار — كانت ابنة مادلين بيجار ، التي كان موليير يعاشرها
قبل عشرين عاماً . وقد اتهمه خصومه بالزواج من ابنته غير الشرعية . وكتب
مونتفوري ، رئيس فرقة الأوتيل دبورجون للنافسة ، إلى لويس ينبئه بهذا
في ١٦٦٣ ، وكان جواب لويس أن جعل نفسه عراقياً لأول طفل ولدته أرماند
لموليير . أما مادلين ، حين لقيها موليير ، فكانت أشد احتفالا بشخصها من
أن تتيح لنا أى معرفة يقينية بنسب أرماند . ويبدو أن موليير لم يعتقد أنه
أبو الفتاة ، ولنا أن نفترض أن معلوماته في هذه النقطة كانت أفضل قليلاً مما
يمكن أن تكون عليه معلوماتنا نحن .

كانت أرماند قد شبت كأنها حيوان الفرقة للدال . وكان موليير يراها
كل يوم تقريباً ، وقد أحبها طفلة قبل أن يعرفها امرأة بزم من طويل . وكانت
لأن قد أصبحت ممثلة مكتملة النضج . أما وقد نشأت في هذا الجو فأنها لم
تخلق لتسكون زوجة لرجل واحد ، لاسيما رجل قد أبى روح الشباب .

لقد أحببت لذات الحياة واستغرقت في معايشات فسرها الكثيرون على أنها خيانات للزوج ، وعانى موليير من جراء ذلك ، وكان أصدقاؤه وأعداؤه يلوكون الشائعات عنه . وبعد زواجه بمشرة أشهر حاول أن يهدى جراحه ينقذ غيره الرجال والدفاع عن تحرر النساء . لقد حاول أن يكون أريست ، ولكن أرماند لم تستطع أن تكون ليونور . ولعله أخفق في أن يكون أريست لأنه كان نافذ الصبر شأنه شأن أى مخرج مسرحى . وفى « تمثيلية فرساي المرتجلة » (أكتوبر ١٦٦٣) وصف نفسه إذ يقول لزوجته « اسكتى . أيها الزوجة ، فأنت لإحمارة » . فتعجب « شكراً لك أيها الزوج الطيب . أنظر ما صار إليه أمرنا . أن الزواج بغير الناس تغييراً عجيباً ، فما كنت لتقول هذا قبل سنة ونصف (١٥) » .

وواصل تأملاته فى الغيرة والحرية فى مسرحيته «مدرسة الزوجات» التى عرضت أول مرة فى ١٦ ديسمبر ١٦٦٢ . ومنذ بدايتها تقريباً تراها تضرب على هذا الوتر — الزوج الديوث . فترى آرنولف الذى لعب موليير دوره هنا أيضاً طاغية من الطراز العتيق ، يؤمن بأن المرأة المتحررة امرأة فاسقة ، وأن السبيل الأوحى لضمان وفاء الزوجة هو ترويضها على الخدمة المتواضعة ، وعلى فرض الرقابة الصارمة عليها وإغفال تعليمها . وأشب آنييس ، القاصر التى كان وصيا عليها وعروسه المستقبلية ، فى براءة حلوة ، حتى أنها تسأل آرنولف فى عبارة تردد صداها فى طول فرنسا وعرضها ، « أيلد الأطفال من الأذن (١٦) » ، « ؟ » . ولما كان آرنولف لم يتحدث إليها بشيء عن الحب ، فأنها ترحب فى سرور برى بتودد هوراس الذى يجد طريقة إليها أثناء غيبة قصيرة الموصى . فإذا عاد آرنولف قصت عليه وصفاً موضوعياً لمسلك هوراس :

آرنولف : حسنا ، ولكن ماذا صنع حين انفرد بك ؟
آنييس : قال إنه يحبني حباً حاراً لا نظيره . وقال لى بالطف لغة فى

الدنيا أشياء لا يمكن أن يعد لها شيء . وقد أبهجتني لطف حديثه كلما
استعمت إليه ، وأثار في شيئاً لا أعرفه ، عاطفة سحرتني تماماً .

آرنولف : (جانباً) ياله من تحقيق معذب في سر قتال ، يعانى فيه
المحقق كل الألم ا (بصوت عال .) ولكن علاوة على هذا الحديث كله ،
وهذه الأساليب اللطيفة كلها ، ألم يقبلك بعض القبلات أيضاً ؟

أنيس : أوه إلى هذا الحد لقد تناول يدي وذراعى ولم يتعب
قط من تقبيلها .

آرنولف : ألم يأخذ شيئاً آخر منك يا أنيس ؟ (ملاحظاً حيرتها) ها ؟

أنيس : بلى ، لقد .

آرنولف : ماذا ؟

أنيس : أخذ .

آرنولف : كيف ؟

أنيس : الـ .

آرنولف : ماذا تعنين ؟

أنيس : لا أجرؤ على إخبارك ، لأنك قد تغضب منى .

آرنولف : لا .

أنيس : نعم ، ولكنك ستغضب .

آرنولف : يا للهول ، لن أغضب .

أنيس : احلف إذن .

آرنولف : أحلف .

أنيس : أخذت سيثور غضبك .

آرنولف : لا .

أنيس : نعم .

آرنولف : لا ، لا ، لا ، لا . بحق الشيطان ما هو هذا السر ؟ ماذا أخذ منك ؟

أنيس : أنه -

آرنولف : (جانباً) إنى أقسى عذاب الجحيم .

أنيس : أخذ الوشاح الذى أعطيتنى ، أصدقك القول أننى لم أستطع منعه .

آرنولف : (متمالكاً نفسه) : لا بأس بالوشاح . ولكنى أريد أن أعلم

ألم يفعل شيئاً غير تقبيل يديك ؟

أنيس : أيفعل الناس أشياء أخرى ؟

آرنولف : لا ، لا ، لا . . . ولكنى باختصار لا بد أن أخبرك أن قبول

علب الجواهر والاستماع إلى القصص العاطلة يقصها هؤلاء الغنادير للتبرجون ،

والسماح لهم وأنت مسترخية بتقبيل يديك وفتنة قلبك بهذه الطريقة -

هذا كله خطيئة مميتة ، بل أفضح خطيئة يمكن أن ترتكبها .

أنيس : تقول خطيئة ! والسبب من فضلك ؟

آرنولف : السبب ؟ لأنه مكتوب صراحة أن السماء تغضبها أفعال كهذه .

أنيس : تغضبها ؟ ولكن لم تغضب السماء ؟ وأسفاه ؟ إنه شيء حلو

لذيذ ، تعجبى البهجة التى أجدها فيه ، ولم أعرف من قبل هذه الأشياء .

آرنولف : نعم ، هناك الكثير من اللذة فى هذه المواطف الرقيقة ،

وهذه الأحاديث اللطيفة ، وهذه القبل الحارة ، ولكن ينبغى تذوقها

بطريقة شريفة ، والزواج كفيف بأن يحو عنها الخطيئة .

أنيس : أفلا تمد خطيئة إذا كان الإنسان متزوجاً ؟

آرنولف : نعم .

أنييس : أرجوك إذن أن تتزوجني حالا (١٧) .

وتهرب أنييس إلى هوراس بعد قليل طبعاً . ولكن آرنولف يقتنصها من جديد ويوشك أن يضربها حين يوهن من عزيمته حلاوة صوتها وجمال جسدها ، وربما كان موليير يفكر في أرماند وهو يكتب عبارات آرنولف التالية :

« أن ذلك الحديث وتلك النظرة مجردان غضبي من سلاحه ، ويميدان إلى الحنان الذي يمحو ذنبها كله . فما أعجب أن يحب الإنسان ! وأن يكون الرجال عرضة لمثل هذا الضعف أمام هؤلاء الخائئات افسكننا يعرف نقصن ، فما هن إلا التبذير والحماقة ، وذهنهن شرير وفهمهن ضعيف ، وما من شيء أوهن منهن ، ولا أقل ثباتاً ، ولا أكذب ، ومع ذلك كله فالرجل يصنع كل شيء في الدنيا من أجل هؤلاء الحيوانات (١٨) » .

وفي النهاية تهرب منه وتتزوج هوراس . أما آرنولف فيميزه صديقه كريسالد بفكرة مؤداها أن امتناع الرجل عن الزواج هو الطريقة الأكيدة الوحيدة التي تقيه من أن يطلع له قرنان في رأسه .

وأهيجت التمثيلية جمهورها ، فثلت إحدى وثلاثين مرة في الأسابيع العشرة الأولى ، وكان في الملك من الشباب ما سمح له بالاستمتاع بخلاعتها ، ولكن عناصر البلاط الأشد محافظة انتقدوا اللهاة لما فيها من مجافة للفضيلة ، وكرهت السيدات فكرة الولادة من الأذن ، وندد الأمير كوتني بمنظر الفصل الثاني الذي سقنا حواراً من قبل بين آرنولف وأنييس زاعماً أنه أفضح ما عرض على خشبة المسرح . ولعن بوسويه التمثيلية برمتها ، ودعا بعض القضاة إلى حظرها باعتبارها خطراً على الأخلاق والدين ، وسخرت الفرقة المنافسة من ابتذال الحوار وتناقضات رسم الأشخاص وشطحات الحبكة المتعجلة . وظلت التمثيلية حيناً « حديث كل بيت في باريس (١٩) » .

وكان في موليير من حب النضال مالا يدعه يترك هذا النقد كله دون تعليق منه . ففي تمثيلية ذات فصل واحد مثلت في الباليه رويال في أول يونيو ١٦٦٣ ، واسمها « نقد مدرسة الزوجات » عرض لنا لقاء بين نقاده وتركهم يعربون بعنف عن اعتراضاتهم ، ولم يسكد يرد عليها إلا بأن يدع النقد يضعف ذاته بمبالغته ، وأن يجربيه على السنة شخصيات مثيرة للسخرية . وواصل الأوتيل دبورجون « الحرب السكوميدية » بإخراجه هزلية قصيرة سماها « الناقد المعارض » ، وهجا موليير الفرقة الملكية في « تمثيلية فرساي المرتجلة » (١٧ أكتوبر ١٦٦٣) . وساند الملك موليير في وفاء ، ودعاه إلى العشاء (٢٠) ، ومنحه الآن معاشا سنويا قدره ألف جنيه ، لا بوصفه « ممثلا كوميديا » بل « شاعرا فذا (٢١) » . كذلك نصر الزمن موليير ، فمدرسة الزوجات تعتبر اليوم أول ملهاة عظيمة في المسرح الفرنسي .

٤ - غرام طرطوف

ولكن موليير دفع ثمن حظوته لدى الملك . فلقد أحب لويس ظرفه وشجاعته ، فجعله من كبار للنظمين للملاهى في فرساي وسان - جرمان . وقد ملأ أحد هذه المهرجانات المسمى « مباحج الجزيرة للسجورة » أسبوعا (٧ - ١٣ مايو ١٦٦٤) بألعاب السيف والولائم والموسيقى والباليه والرقص والدراما - وكلها أقيم في حديقة فرساي وقصره تحت أضواء المشاعل والشمعانات التي تحمل أربعة آلاف شمعة . وكوفيء موليير على جهوده في هذا المهرجان بستة آلاف جنيه . وقد أسف بعض الأدباء لإسراف الملك في استغلال عبقرية موليير لكي يوفر هذا اللهو الخفيف في البلاط ، وتصوروا تلك الروائع التي كان من الجائز أن يكتمل نضجها لو أن الشاعر الكامن في الكوميدي أتيح له مزيد من الوقت للتفكير والكتابة . غير أنه كان واقما تحت ضغط من فرقته أيضا ، وما كانت شواغله ومسئوليته ١٢ - قصة الحضارة

مديرا للفرقة وممثلا بها لتسمح له على أية حال بالاعتكاف في أى برج طاجى .
وما أكثر المؤلفين الذين يكتبون تحت ضغط ملح خيرا مما يكتبون في
الفراغ ، فالفراغ يرخى الدهن ، والإلحاح يشحذه . ولقد أخرج موليير
أعظم تمثيلياته أول مرة في ١٢ مايو ١٦٦٤ ، في قصة « مباحج الجزيرة
المسحورة » ، وكانت جزءا من المهرجان .

في هذا العرض الأول لم تكن « طرطوف » بالتمثيلية المناسبة تماما
للمهرجان ، لأنها فضحت في غير رحمة ذلك النفاق الذى يتخفى خلف رداء من
التقوى والفضيلة . وكانت جماعة دينية من الإخوة الملمانيين تدعى « جمعية
السر المقدس » ، وعرفت فيما بعد بـ « عصابة الورعين » قد قطعت المهود على
أعضائها بأن يعملوا على حظر التمثيلية . أما الملك الذى كانت علاقته
الغرامية بلافالير قد أثارت كثيرا من نقده هؤلاء الورعين ، فقد كان مزاجه
يدعوه للاتفاق مع موليير ، ولكنه بعد أن شاهد الملهاة في عرضها الخامس
يفر سائى أوقف الأذن بعرضها على نظارة باريس في الباليه — رويال .
وطيب خاطر موليير بدعوته ليقراً « طرطوف » في فونتنبلو على نخبة
مختارة تضم ممثلا للبابا لم يذكر التاريخ أنه اعترض عليها (٢١ يوليو ١٦٦٤) .
في ذلك الشهر مثلت المسرحية في بيت دوق أورليان ودوقتها (هنرييتا آن) ،
في حضرة الملكة ، والملسكة الأم ، والملك . وبينما كان يجرى التمهيد
لعرضها على الجماهير أذاع كاهن سان — برتلهى ، بيير روليه ، في أغسطس
ثناء على الملك لحظره التمثيلية ، واغتنم هذه الفرصة ليرمى موليير بأنه
« رجل ، بل شيطان متجسد في ثوب رجل ، وأشهر مخلوق فاسق منحل
عاش إلى الآن » . ثم قال الأب روليه إن جزاء موليير على تأليف طرطوف
« أن يحرق على الخازوق ليدوق من الآن نار الجحيم (٢٢) » . ووبخ الملك
روليه ، ولكنه ظل يحبس الإذن بعرض طرطوف علنا . ولكى يظهر
حقيقة موقفه رفع معاش موليير السنوى إلى ستة آلاف جنيه ، وتلقى

عن « المسيو » حماية فرقة موليير ، فأصبحت منذ الآن « فرقة الملك » .
وظل الجدل مضطربا تحت الرماد طامين . ثم قرأ موليير على الملك نسخة
منقحة من التمثيلية ، أضاف إليها سطورا تذكر أن الهجاء ليس موجها ضد
الإيمان الصادق بل ضد الرياء . وأيدت مدام هنرييتا التماس المؤلف الإذن
بعرض المسرحية . ووافق لويس موافقة شفوية ، وبينما كان منطلقا إلى الحرب
في فلاندر عرضت طرطوف لأول مرة على مسرح الباليه — رويال في ١٥ أغسطس
١٦٦٣ بمد مرور ثلاث سنين على أول عرض لها في البلاط . وفي الغد أمر
رئيس باريس ، وكان ينتمي لجماعة السر المقدس ، بغلق المسرح وتمزيق كل
لافتاته . وفي ١١ أغسطس حظر رئيس أساقفة باريس قراءة الملهاة أو سماعها
أو تمثيلها سرا أو علانية ، وإلا كان الحرم جزاء المخالف . وأعلن موليير
أنه سيعتزل المسرح إذا استمر انتصار « الطراطيف » هذا . أما الملك الذي
عاد إلى باريس فقد أمر الكاتب للمسرحى الغاضب بأن يتذرع بالصبر ، ففعل ،
وأثيب في النهاية برفع الحظر الملصكي . وفي ٥ فبراير ١٦٦٩ بدأت التمثيلية
فترة عرض ناجحة اتصلت ثمانية وعشرين مرة . وبلغ من كثرة الراغبين في
دخول المسرح وتهافتهم عليه في أول حفلة علنية أن السكتيين كادوا
يختنقون . لقد كانت « أشهر مسرحية » في حياة موليير المسرحية . وقد
حظيت دون جميع الدرامات الكلاسيكية الفرنسية بأكبر عدد من العروض
— بلغت ٢٦٥٧ (حتى سنة ١٩٦٠) في مسرح الكوميدي —
فرانسيز وحده .

ولكن إلى أي حد تملل محتويات التمثيلية تأجيلها الطويل ، وشعبيتها
المتصلة ؟ أنها تملل التأجيل بهجومها الصريح على التظاهر بالتقوى ؛ وتعلل
الشعبية بقوة هجائها وبراعته . وكل ما في ذلك الهجاء مبالغ فيه بالطبع .
فقلما يكون الرياء مستهترا كاملا كما كان في طرطوف ، وقلما يكون القياء
حفرطا كما كان في أورجون ، وليس هناك خادمة نجحت في وقاحتها كما نجحت

دورين . وحل عقدة التمثيلية لا يصدق ، كما هي الحال عند مولير دائما تقريبا ، ولكن هذا لم يقلقه ، فبعد أن يقدم صورته واتهامه للنفاق ، تمكفى أى حيلة مسرحية — كتدخل الإله أو الملك — لحل العقدة بانتصار الفضيحة وعقاب الرذيلة . وأغلب الظن أن الهجاء قصد به جماعة السر المقدس الذين أخذ أعضاؤه على طاقهم أن يوجهوا ضائر الناس ، حتى ولو كانوا علمانيين ، ويبلغوا الخطايا السرية للسلطات العامة ويتدخلوا فى شئون العائلات لزيادة الولاء والإخلاص للدين . وقد أشارت التمثيلية مرتين إلى « عصابة » (فى السطرين ٣٩٧ و ١٧٠٥) ، وواضح أن هذا تلميح إلى عصابة الورعين . وعقب العرض الأول للتمثيلية حلت جماعة السر المقدس .

أما أورجون ، البورجوازي الغنى ، فيرى طرطوف لأول مرة فى الكنيسة فينبر لمراه .

« آه لو رأيت ٠٠٠ إذن لأحببته كما أحببه . . . كان يأتى كل يوم إلى الكنيسة هادىء الهيئة ثم يركع بجوارى . وقد لفت أنظار المصلين جميعا بجمارة الالبتهالات التى رفعها إلى السماء . كان يتأوه ويئن أيننا شديدا ، وفى كل لحظة يقبل الأرض فى تذل . فإذا شرعت فى الخروج تقدمنى ليقدم إلى المءاء المقدس عند الباب . وإذا أدركت . . . رقة حاله . . . كنت أهديه الهدايا ، ولكنه كان على الدوام يعرض أن يرد إلى بعضها . . . وأخيرا حفزتنى السماء على أن أخذه إلى بيتى ، وبدأ لى منذ تلك اللحظة أن كل شىء يزكو . وأنا أراه يلوم دون تفرقة بين الناس ، وألحظ أنه ، حتى غيما يتصل بزوجتى ، شديد الحرص على عرضى . فهو ينبئنى ضمن يرمقها بنظرات الهيام (٢٣) » .

ولكن طرطوف لا يروع زوجة أورجون وأبناءه كما راعه . ذلك أن شهيته الطيبة ، وولمه بأطياب الطعام ، وكرشه المكور ، ووجهه المتورد

كل أولئك يذهب في نظرم بأثر عظاته . ويرجو كليات زوج أخته
أورجون أن يميز بين الرياء والدين :

« كما أنتى لا أعرف فى الحياة خلقا أعظم ولا أجل من التقوى الصادقة ،
ولا شيئا أنبل ولا أجل من حرارة الورع المخلص ، فإننى لا أرى شيئا أشد
نكراً من طلاء الغيرة الزائفة ، ومن هؤلاء الدجالين ، هؤلاء الاتقياء
مظهرياً . . . الذين يتجرون بالتقوى ، ويريدون أن يشتروا أسباب
التسكريم وحسن الأحدوتة برفع العيون إلى السماء فى رياء ، وبانتشاهات
القداسة المفتعلة » .

ولسكن أورجون يعضى فى تصديق مزاعم طرطوف ، ويخضع لأرشاده ،
ويطلب له المعونة من الله إذا تجشأ ، ويقترح تزويجه من ابنته ماريان التى
تؤثر عليه فالير فى عنف أما بطللة التمثيلية الحقيقية فهى دورين ، خادمة
ماريان ، التى يبدو — كما فى كل الملاحى الكلاسيكية — أنها تثبت أن
العناية الإلهية وزعت العبقرية توزيعاً يتناسب تناسباً عكسياً مع المال .
وما أهبج استقبالتها لطرطوف عند دخوله المسرح أول مرة :

طرطوف : (يسكلم خدمه بصوت عال حين يرى دورين) . يا لورنس ،
اقفل على وشاحى الوبرى وسوطى ، والتمس من السماء أن تنيرك بالنعمة
دائماً . وإذا جاء أحد لزيارتى فقل لى ذهبى إلى السجون لأوزع
صدقاتى .

دورين : (جانباً) أى تصنع وأى لؤم !

طرطوف : ماذا تريدين ؟

دورين : أن أقول لك —

طرطوف : (وهو يسحب منديلاً من جيبه) أوه . ياللاهول . أرجوك
أن تأخذى هذا المنديل منى قبل أن تتسكبنى .

دورين : ولم ؟

طرطوف : غطى ذلك الصدر الذى لا أطيق رؤيته . مثل هذه الأشياء تؤذى النفس وتغرى بالأفكار الآثمة .

دورين : إذن فأنت تذوب ذوبانا أمام التجربة ، ومنظر الجسد يؤثر فى حواسك تأثيراً شديداً ؟ الحق أننى لا أعرف أى حرارة تلهبك ، ولكنى عن نفسى لست عرضة مثلك لهذا التلهف على الجسد . فى وسعى الآن أن أراك طارياً تماماً من رأسك إلى قدمك ، دون أن يغربنى جلدك هذا كله أى أغراء (٢٤) .

والمنظر التالى لب اللهاة . ترى فيه طرطوف يطارح زوجة أورجون - ايلهير - الغرام ، ويستعمل لغة التقى فى توسلاته . وينبأ أورجون بنحيانته ، ولكنه يأتى أن يصدق ، واظهاراً لثقتة بطرطوف ينزل له عن أملاكه كلها . ويستسلم طرطوف لقبولها قائلاً « لتكن مشيئة السماء فى كل شئ » (٢٥) ، وتحمل ايلهير الموقف ، إذ تخفى زوجها تحت مائدة ، وترسل فى طلب طرطوف ، وتلوح له ببارقة تشجيع ، ثم توقعه فى محاولات للاستطلاع الغرامى . وتتظاهر بالرضى ، ولكنها تزعم أنها تحس وخزات الضمير ، فيتناول طرطوف هذا الزعم بفتوى الخبير ، وواضح أن مولير قرأ من قبل رسائل بسكال الريفية واستطابها :

« طرطوف : إذا لم يكن غير السماء عقبة فى طريق رغباتى ، فما أيسر أن أزيح هذه العقبة - صحيح أن السماء تنهى عن لذات معينة ، ولكن هناك طرق لتسوية تلك الأمور . فشد أوتار الضمير وفق مقتضيات الحال ، وتصحيح فساد الفعل بطهارة النية - ذلك علم أى علم (٢٦) » .

ويظهر أورجون من مخشئه ، ويأمر طرطوف فاضباً بأن يخرج من بيته ، ولكن طرطوف يبين له أن البيت أصبح ملسكاً له بحكم العقد الذى وقعه أورجون مؤخراً . ويقطع مولير هذه العقدة ، دون كبير براعة ، بأن يجعل

عمال الملك يكتشفون في اللحظة المناسبة أن طرطوف مجرم تبحث عنه العدالة منذ زمن طويل . ويستعيد أرجون أملاكه ، ويظفر ظالير بمريان ، وتختتم التمثيلية بنشيد شكر شجوى يشيد بمدل الملك وأحسانه .

٥ - الملحد العاشق

ولكن إحسان الملك لا بد قد أرهقته تمثيلية موليير الجريئة التالية . ففي ذروة الحرب المحترمة حول « طرطوف » ، وبينما كانت جماعة الوريين لا يزالون منتصرين في أمر حظر التمثيلية ، عرض موليير في الباليه — رويال (١٥ فبراير ١٦٦٥) مسرحية « وليمة التمثال الحجري » التي قص فيها بنتر يظفر مرحا قصة دون جوان القديمة المكرورة ، وجعل فيها ذلك الزبير المستهتر ملحداً مغروراً . وقد أخذ شكها الظاهر عن تيرسوذي مولينا وغيره ، ولكنه ملاًها بدراسة رائعة لرجل يلتذ الشر لذاته وتحمدياً لله . والمسرحيه صدى مدهش لذلك الجدل الكبير الذي تورط فيه الدين ، مع الفلسفة .

ودون جوان تينوريو مركزيز يسلم بالتزاماته قبل طبقة ، ولكنه فيما عدا ذلك يريد أن يستمتع بما يشتهي من لذات . ويخصى تابعه سجاناريل عدد النساء اللاتي أغواهن مولاة ثم هجرهن فيجدهن ١٠٠٣ ر٠١ يقول جوان « إن الوفاء صفة لا تصلح إلا للحق ٠٠ فليس في وسعي أن أحرم قلبي من أى مخلوقة جميلة أراها (٢٧) » ومثل هذا الخلق يتوق إلى لاهوت يلائمه ، ومن ثم يصبح جوان ملحداً ابتغاء راحته . ويحاول خادمه أن يناقش الأمر معه :

سجاناريل : أمكن أنك لا تؤمن بالجنة ؟

جوان : انس الموضوع .

سجاناريل : أى أنك لا تؤمن . وما رأيك في جهنم ؟

جوان : إه !

سجاناريل : كلامناك بالجنة . وما رأيك في الشيطان من فضلك ؟

جوان : نعم ، نعم .

سجاناريل : قليلاً جداً كذلك . ألا تؤمن بحياة أخرى على الإطلاق ؟

جوان : ها ، ها ، ها .

سجاناريل : هذا رجل سيشق على هدايته . ولكن قل لي ، لا بد أنك

تؤمن بـ « الراهب الفظ » .

جوان : تباً للأحمق .

سجاناريل : أما هذا فلا أطيعه ، لأن ليس هناك كائن وجوده مؤكد

كهذا الراهب الفظ ، وقا تلني الله أن لم يكن وجوده حقيقياً . ولكن المرء يجب أن يؤمن بشئ . فبأى شئ تؤمن ؟ . . .

جوان : أو من بأن اثنين واثنين يساويان أربعة ، وأربعة وأربعة

يساويان ثمانية .

سجاناريل : يا لها من عقيدة جميلة ومواد إيمان رائعة ! إذن فدينك —

على قدر ما أفهمه — هو الحساب ؟ أما أنا يا مولاي . . . فأفهم جيداً أن

هذا العالم ليس شيئاً كالقطر نما في ليلة واحدة . أريد أن أسألك منذ الذي

صنع هذه الأشجار والصخور والأرض والسماء من فوقنا ؟ أهذا كله بنى

نفسه بنفسه ؟ أنظر إلى نفسك مثلاً ، فما أنتذا موجود ، أصنعت نفسك ،

والم يكن لزاماً أن يغشى أبوك أمك ليصنعك ؟ ألتستطيع أن ترى كل

المخترعات التي تتألف منها الآلة البشرية دون أن تعجب كيف يشغل الجزء

منها جزءاً آخر ؟ ومهما قلت ، فإن هناك شيئاً معجزاً في الإنسان لن يستطيع

كل المتنظمين في العلم أن يفسروه . أليس عجباً أن تراني هنا ، وأن في رأسي

(●) شبح مزعوم تخوف به المريبات والأمهات الأطفال .

شيئا يفكر في مائة شيء مختلف في لحظة ويأمر بدنى بأن يصنع ما أريد ؟
أريد أن أصفق بيدي ، وأرفع ذراعي ، وأنظر بعيني إلى السماء ، واخفص
رأسي ، وأحرك قدمي ، وأمشي يمينا ، ويساراً ، وأماماً ، وخلفاً ، وأدور
(يقع على الأرض وهو يدور) .

جوان : هذا حسن ! أن لحجتك أنفاً مكسوراً (٢٨) .

وفي المشهد التالي تتخذ الخصومة بين جوان والدين صورة أخرى . فهو
يلتقي بشحاذ يزعم له أنه يصلي كل يوم من أجل المحسنين إليه ، فيقول جوان :
« أن رجلاً يصلي كل يوم لا بد أن يكون غنياً جداً » . ويجيب الشحاذ إن
الأمر على العكس من ذلك « ففي أكثر الأحيان لا أجد حتى كسرة خبز »
ويعرض عليه جوان جنيتها ذهبياً « شريطة أن يجدف ، ولكن الشحاذ
يرفض « إنى أفضل الموت جوعاً » ويذهل جوان قليلاً لهذه الصلابة فيعطيه
قطعة النقود وهو يقول « حبا في الإنسانية (٢٩) » . ويعرف كل رواد
الأوبرات نهاية القصة ، إذ يصادف جوان تمثالا للقائد الذي أغوى ابنته
وأودى بحياته . فيدعوه التمثال إلى العشاء ، فيحضر ، ويتناول به ، فيقوده
إلى الجحيم . ويظهر الجهاز الشيطاني للمهود في المسرح الوسيط ، « فينتفض
الرعد والبرق بضوضاء عظيمة على دون جوان ، وتنفجر الأرض فها وتبتلعها ،
وتندلع نار هائلة من المكان الذي سقط فيه » .

وقد صدم الجمهور في أول ليلة لما رأى من فضيح وليير لكفر جوان .
ولعل هذا الجمهور لم يكن يرى بأساً بأن يفضح سفالة جوان وافتقاره إلى
إلى اللاهوت ، وبأنه أمارت اللثام عنه وحشاً لا ضمير له ولا نحو ، ينشر
الخداع والحزن أينما ذهب ، ولعله لاحظ أن المؤلف عرض ضحايا الوغد
بشكل ما فيه من عطف ، ولكنه لاحظ أن الرد على الكفر جاء على لسان
أحمق يؤمن بالعقاريت إيماناً أرسخ من إيمانه بالله ، ولم يخفف من وقع هذا
الكفر القاه جوان في الجحيم أخيراً ، لأن الجمهور رآه يهبط إلى الجحيم

دون كلمة ندم أو خوف . وبعد المرض الأول خفف موليير من حدة أكثر الفقرات ابناء ، ولكن هذا لم يهدىء نائرة الرأي العام . ففي ١٨ أبريل ١٦٦٥ نشر سيد روشمون ، المحامي في البرلمان ، « ملاحظات حول مسرحية لموليير » فيها وليمة التمثال الحجري بأنها « شيطانية حقا . . لم يظهر قط أفسق منها حتى في اليهود الوثنية » ثم أهاب بالملك أن يحظر التمثيلية :

« فبينما يحرص هذا الملك النبيل الحرص كله على صون الدين ، نرى موليير يعمل على هدمه . . فليس في وسع انسان مهما قل علمه بتعاليم الدين أن يؤكد بعد رؤية التمثيلية أن موليير أهل للمشاركة في تناول الاسرار للقدسة مادام سادرا في عرضها ، أو يستحق أن تقبل توبته دون عقاب على (٣٠) . »

ولكن لويس واصل رضاه عن موليير . ومثلت « وليمة التمثال الحجري » ثلاثة أيام كل أسبوع من ١٥ فبراير إلى أحد السعف . ثم سحبت ، ولم تعد إلى خشبة المسرح إلا بعد موت مؤلفها بأربع سنوات ، ولم تعد إلا على صورة اقتباس شعري بقلم توما كورابي الذي حذف المشهد الغاضح الذي نقلناه . أما النسخة الأصلية فقد اختفت ، ثم اكتشفت ثانية في ١٨١٣ طبعة مسروقة نشرت بأمر دمام في ١٦٨٠ . وظلت نسخة كورابي تحتكر للمسرح حتى ١٨٤١ ، وهي لا تزال تحتل مكان الأصل في بعض طبعات أعمال موليير (٣١) .

٦ - موليير في أوجه

وكان موليير لم يكفه ما أثار عليه من خصوم ، فراح يهاجم مهنة الطب . وكان قد صور دون جوان بأنه « فاجر في الطب » ورأى أن الطب « من أكبر كبائر الإنسانية (٣٢) » وكان قد خبر بنفسه ما في أطباء القرن السابع عشر من قصور وغرور . وخيل إليه أن الأطباء قتلوا ابنه حين وصفوا له حجر الكحل (الأتيمون) ، ورآهم يقفون موقف العاجز من تدرسه

الذى يسير بخطى حثيثة (٣٣) . كذلك كان الملك ساخطا على ما يعطونه من مسهلات وما يفصدون من دمه كل أسبوع . ويقول مولير إن لويس هو الذى أغراه بوضع الأطباء على السفود . وعليه فقد كتب فى خمسة أيام تمثيلية « الحب خير طبيب » مستعيرا من الملاحى القديمة فى هذا الموضوع القديم . وقد أخرجت بفرساي فى ١٥ سبتمبر ١٦٦٥ فى حضرة الملك الذى « ضحك لها من قلبه » ولقيت الترحيب الحار حين مثلت بعد أسبوع فى الباليه — رويال . وهى تحكى قصة مريضة يدعى لفحصها أربعة أطباء . فيختلون للمداولة ، ولسكنهم لا يناقشون إلا شئونهم الخاصة . فإذا أصر والد للمريضة على قرار وعلاج ، وصف أحدهم لها حقنة شرعية ، وأقسم الآخر أن الحقنة ستقتلها لا محالة . ثم تتعافى المريضة بغير دواء ، الأمر الذى يثير سخط الأطباء ، فيصيح الدكتور بايز « خير لها أن تموت طبقاً للقواعد من أن تشفى مخالفة لها (٣٤) » .

وفى ٦ أغسطس ١٦٦٦ عرض مولير مسرحية قصيرة أخرى هى « الطبيب برغم أنه » مقدمة مسرحية لمسرحيته « مبعض البشر » قصد بها أن يخفف من كآبة هذه التمثيلية التى تتغنى بالتشاؤم . وهى لا تجزى جهد قارئها اليوم لأن مولير لم يقصد أن تؤخذ هجائياته للطب مأخذ الجد . ويلاحظ أنه فاعل على علاقات طيبة جداً مع طبيبه الخاص ، المسيو دموفلان ، وأنه توسط لدى الملك ليجد وظيفة شرفية لابن هذا الطبيب (١٦٦٩) وقد شرح مرة كيف كان هو ومولان منسجمين تمام الانسجام فقال « إننا نناقش الأمر ، ويصف هو العقاقير ، وأنا أغفل تعاطيها ، ثم أشفى (٣٥) » .

وبينما كان مولير لا يزال فى وطيس المعركة حول طرفوف ، قدم فى ٤ يونيو ١٦٦٦ هجائية أخرى لم يقصد بها أن يسر الجمهور ولا الحاشية . وإذا كانت الحركة روح المسرحية ، فإن هذه المسرحية « مبعض البشر » أقرب إلى الحوار الفلسفى منها إلى التمثيلية . وتكفى جملة واحدة لتلخيص القصة ؛ فالسيست ، الذى يطالب نفسه وغيره بالفضيلة الصارمة والصراحة

التكاملة يحب سيليمين التي تؤثره ، ولكن يطيب لها أن ترى العدد العديد من الخطاب وتسمع الكثير من المديح . ويجد مولير في هذا مجرد ذريعة لدراسة الفضيلة . فهل من واجبنا أن نقول الصدق دائماً ، أم نحمل المجاملة محل الصدق لكي نتقدم في هذه الدنيا ؟ أما السيست فيرفض أنصاف الحلول التي يتراضى بها المجتمع مع الصدق ، ويندد برياء البلاط ، حيث يتظاهر كل إنسان بأسمى العواطف و « أحر التحيات » في حين يكيّد كل تغيره سرّاً تحقيقاً لمصلحته الشخصية ، ويغتابهم جميعاً ، ويستمين بالتملق على نيل الخطوة أو السلطة . والسيست يحقر هذا كله ، ويريد أن يكون صادقاً ولو أفضى به الصدق إلى الانتحار . ويصر شويعر من رجال البلاط يدعى أوروبت على قراءة أشعاره على ألسنت ، ويطلب إليه أن ينقدها نقداً مخلصاً ؛ وينال ما طلب ، فهدد ويتوعد بالانتقام . وتغازل سيليمين الرجال ، فيوبخها ألسنت ، فتصفه بأنه إنسان متزمت مغرور ، ونكاد نسمع مولير يوبخ زوجته المرحلة ، والواقع انه هو الذي لعب دور ألسنت ، وهي التي مثلت سيليمين :

ألسنت : سيدتي ، أسمحين لي أن أكون صريحاً معك ؟ إنني لشديد الاستياء من تصرفاتك . . أنا لا أشاجر معك ، ولكن مسلكتك ياسيدتي يفتح لأول وافد أرحب سبيل إلى قلبك . إن لك عدداً هائلاً من العشاق الذين نراهم يحاصرونك ، ونفسي لا تستطيع الرضى بهذا .

سيليمين : أتلوهني لأنني أجدب العشاق ؟ أهو دني أن الناس يجدونني جديرة بالحب ؟ وإذا بذلوا المحاولات اللطيفة لرؤيتي أفاخذ عصا وأطردهم خارجاً ؟ .

ألسنت : لا ، ليست العصا هي ما يجب أن تستعمليه ، بل روحاً أقل استسلاماً وذوباناً أمام عهودهم . أعرف أن جمالك يتبعك في كل مكان ولكن ترحيبك يزيد من تجتذبه عينك تملقا بك ، وتطلقك مع جميع من يستسلمون لك يكمل في قلوبهم فعل مقاتلك (٣٦) .

والنقيض الفلسفى لألسيست هو صديقه فيلانت ، الذى ينصحه بأن يلائم فى لطف بين نفسه وبين ما فى البشر من نقائص فطرية وأن يعترف باللطف ميسراً للحياة . وسحر للمسرحية فى قسمة موليير عواطفه بين السيست وفيلانت . فألسيست هو موليير الزوج الذى يخشى أن يكون ديوتنا ، ومنجد حجرة الملك الذى عليه - لكى يعدسرى الملك - أن يتصدى لمائة نبيل يفاخرون بنسبهم مفاخرته بمبقرته . وفيلانت هو موليير الفيلسوف ، الذى يأمر نفسه بأن يسكون معقولا متسامحا فى الحكم على البشر . يقول فيلانت - موليير لموليير - ألسيست فى فقرة لنا أن نعتبرها نموذجاً من موليير الشاعر :

« رباہ : فلنقل من ضيقنا بعادات العصر ، ولتسامح قليلا مع الطبيعة البشرية ، ولا نخصمها بصرامة شديدة ، بل ننظر إلى عيوبها بشئ من التساهل . فالحياة فى هذه الدنيا تتطلب فضيلة مرنة طيبة ، وقد يخطئ المرء بغاوه فى الحكمة ، فالعقل الكامل يتجنب كل تطرف ، ويريدنا أن نكون حكما فى اعتدال . إن التزمت الشديد فى فضائل انقضاء يصدى كثيراً عصرنا والعرف السائد بيننا : فهو يشهد فى البشر كالأ مفرطاً ، علينا أن نلين للزمن دون تصلب ، والحماسة كل الحماسة فى أن نورط أنفسنا فى تقويم أخطائنا العالم . إني الحظ كما تلحظ كل يوم عشرات الأشياء التى كان يمكن أن تكون خيراً مما هى لو أنها سلسكت طريقاً غير طريقها ، ولكن مهما تكشف لى فى كل خطوة ، فإن الناس لا يرونى ساخطاً مثلك . أنتى أتعبل الناس على علائهم فى هدوء كثير ، وأروض نفسى على التجاوز مما يفعلون ، وأعتقد أن فى برودة طبعى من الفلسفة قدر ما فى مرارة طبعك ، سواء كنت فى البلاط أو فى المدينة » (٣٧).

وفى رأى نابليون أن حجة فيلانت هى الأرجح ، أما جان جاك روسو فرأيه أن فيلانت كذاب ، وهو يحمد فضيلة السيست الصارمة (٣٨) . وفى النهاية يهجر السيست العالم كما هجره جان جاك ويعتكف فى عزلة معقمة .

ولم تحقق التمثيلية من النجاح إلا قدرأ معتدلاً . فالحاشية لم تسع هجو .
تظرفها ، وجمهور الصالة لم يتحمسوا لرجل كألسيست يحقتر كل شيء .
صراحة إلا نفسه . ولكن النقاد — الذين لأم من جمهور الصالة ولا من
الحاشية — صفقوا للمسرحية استحساناً ، وقالوا إنها محاولة جريئة لتأليف
مسرحية الأفكار ، أما النقاد المحدثون فيرونها أكمل عمل كتبه مولير .
وبعضى الزمن ، وبعد أن مات جيلها الذى شهرت به ، لقيت قبولا طاماً ،
ففيما بين عام ١٦٨٠ و ١٩٥٤ مثلت ١٥٧١ مرة فى السكوميدي فرانسيز —
ولم يفتها فى حفلات تمثيلها سوى طرطوف والبخيل .

ولما عجز مولير عن للعيش فى سلام مع زوجة شابة بدا لها الاقتصار
على زوج واحد ، والجمال ، أمرين متناقضين ، هجرها (أغسطس ١٦٦٧)
وذهب ليعيش مع صديقه شابلان فى أونوى بالطرف الغربى لباريس . وقد
استخف به شابلان فى رفق لأنه يأخذ الحب مأخذ الجد إلى هذا الحد ،
ولكن مولير كان شاعراً أكثر منه فيلسوفاً . وقد اعترف بهذا (إذا
صدقنا شاعراً يروى عن آخر) :

« لقد صممت على أن أعيش معها كأنها ليست زوجتى ، ولكن
لو علمت ما أكابد لأشفقت على . فلقد بلغ بى الغرام بها مبلغاً يجعله
يتغلغل بمطف فى كل اهتماماتها . وحين أتأمل استحالة تغلبى على ما أحس
به نحوها ، أقول لنفسى إنها ربما تكابد نفس المشقة فى التغلب على ميلها
لأن تكون لعوبا ، وعندها أجد نفسى أميل للشفقة عليها منى للومها .
ستقول لى ولا ريب إن الرجل لا بد أن يكون شاعراً لكي يحس بهذا ،
ولكنى شخصياً أحس أنه ليس هناك سوى نوع واحد من الحب ، وأن
أولئك الذين لم يحسوا بهذه الخلجات لم يحبوا حباً صادقاً قط . فكل الأشياء
فى الدنيا مرتبطة بها فى قلبى وحين أراها يجرذنى من كل قدرة على
التفكير ضرب من الانفعال ، بل نشوات تحس ولا تروى ، فلا تعود لى عينان

تبصران سوءاتها، ولا أرى غير كل جميل محبب فيها . أليس هذا منتهى
الجنون (٢٩) ؟

وقد حاول أن يسلوها باغراق نفسه في عمله . ففي ١٦٦٧ شغل نفسه
بتنظيم حفلات الترفيه للملك في سان — جرمان . وأحيت ملهاته
« أمفيثيون » (١٣ يناير ١٦٦٨) من جديد غراميات جوبيتر الذى يغوى
السكران زوجة أمفيثيون . وحين قال لها جوبيتر « إن مقاسمة المرأة جوبيتر
فراشه ليس فيها أى غض من شرفها » فسر كثير من السامعين العبارة بأنها
تصفح عن غرام الملك بدمام دمونتسبان ، فإذا كان هذا التفسير صحيحاً فهو
تعلق غاية في السخاء ، لأن موليير لم يسكن مزاجه آنذاك يسمح له بالتعاطف
مع من يغوون الزوجات . لقد كان كسكل إنسان آخر يدهن الملك بعبارات
الزنى كما فعل في خاتمة طرطوف . وفي ملهاة أخرى مثلت أمام البلاط
في ١٥ يوليو ، واسمها « جورج داندان ، أو الزوج المبلبل » تطالعنا
مرة أخرى قصة الزوج المبلبل ، الذى يتهم زوجته بالزنا ولكنه لا يستطيع
أثبات التهمة فياً كل قلبه بالشك والغيرة ؛ لقد كان موليير يسكب الملح
في جراحه .

وكان عاماً حافلاً بالعمل ، فبعد بضعة أشهر لا أكثر (٩ سبتمبر)
أخرج واحدة من أشهر تمثيلياته وهى « البخيل » . وقد اتخذت موضوعها
وجزءاً من حبسكتها من مسرحية بلوتوس « أولولاريا » ولكن بلوتوس
كان قد نقل مسرحيته عن « لللهاة الجديدة » عند اليونان . وأغلب الظن
أن البخيل وهجوه قديمان قدم للمال ، ولكن أحداً لم يتناول هذا الموضوع
بحيوية وقوة أكثر من موليير . فترى آرباجون يتعلق بماله تعلقاً يحمله على
ترك خيله تتضور جوعاً وتسير بغير حوافر ، وهو يسكره العطاء كراهية
تجمله لا « يعطيك » نهاراً سميداً (أى يقرئك التحية) بل « يقرضك نهاراً
سميداً » . وحين يرى شبعتين موقدتين استعدداً للعشاء يطفىء أحدهما .

وهو يرفض أن يمنح ابنته مهرأ ، ويثق أن ابنه وابنته سيموتان قبله (٤٠).
والهجو هنا ، كما هو في موليير عادة ، يقرب من السكاريكاتور . ولم يسغ
الجمهور السورة ، وبعد أن مثلت المسرحية ثمانى مرات سحبت ، ولكن نشاء
والوال عليها أعان على نفخ الحياة فيها ، فعرضت سبعاً وأربعين مرة في سنواتها
الأربع الأولى ، ولا يفوقها في عدد عروضها غير طرطوف .

أما مسرحية « البورجوازي مدعى النبل » فكانت أقل جودة وأكثر
توفيقاً . وقصتها أنه في ديسمبر ١٦٦٩ قدم إلى فرنسا سفير تركي . واتخذ
البلاط كل أبهته ليقع من نفس السفير ، ولكن السفير استجاب في حمود
وصلف . وبعد رحيله دعا لويس موليير ولولى إلى تأليف كوميديا تجمع بين
البالية والمهابة وتحاكى الأتراك محاكاة ساخرة . ووسع موليير الخطبة
جعلها هجائية تدمر العسود المتعاضم من فرنسيى الطبقة الوسطى الذين
يجهلون للباس والحديث كما يلبس ويتحدث الأرسقراطيون بالمولد . ومثلت
المهابة أول مرة أمام الملك والبلاط بشامبور في ١٤ أكتوبر ١٦٧٠ . ولما
عرضت بالبالية — رويال في نوفمبر ، عوضت الخسارة للمالية التي الحقها بالفرة
عروض « البخيل » . ومثل موليير دور مسيو جوردان ، ومثل لولى دور
المفتى . ورغبة في خلع النبالة على مظهره ، يستأجر مسيو جوردان معلماً
للموسيقى ، وآخر للرقص ، وثالثاً للمبارزة . ورابعاً للفلسفة . ويتمارك
هؤلاء ويتضاربون على أهمية فنونهم — فأبها أهم ، تحقيق التناغم ، أم الخطو
الموقع ، أم القدرة على القتل المحكم ، أم الحديث بالفرنسية الرشيدة أو نلاحظ
في مزاعم معلم الموسيقى غمزة خبيثة قصد بها لولى المتفاخر المتسلق . ويعرف
نصف العالم ذلك المشهد الذى يتعلم فيه جوردان أن اللغة كلها إما نثر
وإما شعر :

مسيو جوردان : ماذا ؟ إذا قلت « إبتنى نخنى يا نيكول » ، و « ناولنى
طاقيتى » أيكون هذا نثراً ؟ .

معلم الفلسفة : نعم يا سيدى .

مسيو جوردان : يمينا ، لقد ظللت أربعين سنة أتسكلم النثر وأنا لا أدري . إنني والحق مدين لك جداً يا نبأني بهذا (٤١) .

على أن بعض رجال الحاشية الذين كانوا غير بعيدى العهد بالتخرج من التجارة إلى النبالة أحسوا أنهم المقصودون بهذا الهجاء ، فسخروا بالتمثيلية زاعمين أنها لغو فارغ ، ولكن الملك قال لموليير ، «كدا » أنك لم تكتب في حياتك شيئاً أمتعنى كهذا » . يقول جيزو « إن البلاط تملكته نوبة من الأعجاب بمجرد سماعه هذا الثناء (٤٢) » .

وتعاون موليير ولولى ثايسية ومثلاً أمام البلاط (يناير ١٦٧١) « بسيشيه » ، وهى مزيج من الباليه وللأساة ، شارك بيير كورني وكنو بأكثر أبياتها . وكان لولى يسكسب المعركة ضد موليير ، فاللهاهة تخلى مكانها للأوبرا ، والحوار للآلات ، وكان لزاماً إزال الأرباب والرباب من السماء أو رفعهم من الجحيم واقتضى الأمر إعادة بناء المسرح فى الباليه - رويال لهذه التمثيلية ، وكلف هذا ١٩٨٩ راجنيهاً . ولكن الأخراج حقق نجاحاً مالياً .

بيد أن الرومانس لم تكن أقوى جوانب موليير ، وكان أكثر اطلاقاً ويسراً حين يهزأ بسخافات جيله . وقد خيل إليه أن المرأة للمتعملة شذوذ متمعب وعقبة فى طريق الزواج . ولقد سمع هؤلاء النسوة يشذبن الألفاظ ، ويناقشن دقائق النحو ، ويقتبسن من الآداب القديية ، ويتكلمن فى الفلسفة ، ووقر هذا فى إذن موليير كأنه انحراف جنسى ، أضف إلى ذلك أن رجليز - هما الأب كوتان والشاعر ميناج - كانا يهاجمان بعنف مسرحيات موليير ، فهاهى ذى الفرصه قد لاحت لوخزهما . وعليه فى ١١ مارس ١٦٧٢ قدم مسرحية « النساء العالمات » . ففيلامنت تطرد خادمة لا استعمالها لفظاً رفضه المجتمع اللغوى ، وابتها أرماند ترفض الزواج لأنه اتصال مقزز بين الأجساد لا امتزاج بين العقول ! ويقراً تريسوتان شعره الكريه على هاتين

١٣ - قصة الحضارة

للرأتين المتكافئتين المعجبتين . ويملاً فاديوس الشعر بالألغاز والمعميات ، ويقرأ المزيد من شعره وشعر تريسوتان . ويدافع موليير عن هنرييت ضد هؤلاء جميعاً ، لأنها تستهجن أبيات الشعر (السداسية) وتريد زوجاً يمنحها الأبناء لا الإيجرامات . ترى هل أصبحت أرماند بيجار إحدى المتحدقات ؟ أم أن موليير كان يعرض عصره ؟

٧ - ستار

إنه لم يجاوز الخمسين الآن ، ولكن حياته المحمومة ، وتدرنه ، وزواجه ، وأحزانه لفقد أحبائه ، استنزفت حيويته . إن ميناررسمه في ريعان شبابه : أف كبير وشفتان شهوانيتان وحاجبان مرفوعان بشكل مضحك ، ولكن له إلى جانب هذا جبهة متجمدة وعينين حزينتين . ذلك أن انهماكه في دوامة المسرح من بلد إلى بلد ، يوماً بعد يوم ، وتعامله مع الممثلات الأوليات المتوترات الأعصاب ، ومع زوجة منعمة بالحياة ، ومع ملك حساس ، ورؤيته اثنين من أطفاله الثلاثة يموتان — كل هذا لم يكن طريقاً مفروضاً بالراحين إلى التفاؤل ، بل طريقاً عريضاً لسوء الهضم والموت المبكر . لا عجب إذن أن يصبح موليير « بركانا يلبثهم ذاته (٤٣) » ، إنسانا مكتئباً ، حاد الطمع ، نقاداً في غير مجاملة ، ولكنه رغم ذلك كريم النفس عطوف . وقد فهمته فرقة وأخلصت له الود ، موقنة أنه يقضى نفسه ليوفر لها القوت ويسكفل لها النجاح . وكان أصدقاؤه على استعداد دائم لخوض المعركة دفاعاً عنه — لا سيما بوالو ، ولا فونتتين ، اللذين كتباً مع موليير ، بمشاركة راسين أحياناً ، « الأصدقاء الأربعة » المشهورة . ولقد وجدوا فيه التعاميم الحسن والاطلاع الواسع ، وعرفوه ذكياً ظريفاً وإن قن مرحه ؛ لقد كان المهرج الساخر على خشبة المسرح ، ولكنه في حياته الخاصة أشد حزناً من جاك (في مسرحية شكسبير « كما تشاء ») .

ويعد أن انفصل عن زوجته أربع سنوات ونصفاً عاد إليها (١٦٧١) .
ومات الطفل الذي أثمره هذا التصالح بعد شهر من ولادته . وكان يعيش في
أوتوى قبل ذلك على اللبن كما أوصاه طبيبه ، فعاد الآن إلى شرب النبيذ على
طادته ، وحضر سهرات العشاء المتأخر ارضاء لأرماند . وقرآن يمثل الدور
الأول برغم تقادم سعاله ، دور أرجان ، في آخر تمثيلياته « المريض بالوهم »
(١٠ فبراير ١٦٧٣) .

وأرجان هذا يتوهم أنه مصاب بالعديد من الأمراض ، وينفق نصف
ثروته على الأطباء والعقاقير . ويحتقره أخوه بيرالد :
« أرجان : فما الذى يجب أن تصنعه حين نمرض ؟

بيرالد : لا شيء يا أخى . . . علينا أن نحفظ بهدوئنا لا أكثر .
والطبيمة ذاتها إذا تركناها وشأنها ، كقيلة بأن تخلص نفسها بلطف من
الخلل الذى وقعت فيه . إن الذى يفسد كل شيء هو سكراننا لصنيعها ونفاد
صبرنا ، وكل الناس تقريبا يموتون بالدواء لا بالداء (٤٤) » .

ولزيد من السخرية بمهنة الطب يقال لأرجان إن فى استطاعته هو نفسه
أن يصبح طبيبا بإجراء مختصر ، وأن يجتاز بسهولة الامتحان للحصول على
الأجازة الطبية . ويلى ذلك الامتحان المزيف الذى تسأل فيه اللجنة
أرجان (*) .

وكاد موت موليير أن يسكون جزءا من هذه التمثيلية . ففي ١٧ فبراير

(*) يحاول بيرالد فى هذا الفصل الأخير من الملهة أن يسلى الأسرة ، فيكلف أصحابه
المشايخ بقاصل يمثل قبول أرجان طبيبا فى الفيزياء على أنغام الموسيقى والرقص ، ويقترح
اشترك الجميع فى المهزلة ، وأن يمثل أرجان الدور الرئيسى فيها . ويدخل موكب الصيادة
والجراحين والأطباء ، ويجلس أرجان عند قدمى الرئيس الذى يخاطب لجنة الامتحان
بمخيلط لنوى هازل طالبا لمليهم أن يوجهوا استلتهم لأرجان . فيسألونه عن العقاقير
والأمراض وهلاجها ، وهتب كل جواب يبدى الخورس استحسنه وجدارة أرجان
بالمهنة ، فيحلفه الرئيس ويحيزه ، ويهتب الخورس بحياته داعيا له بطول العمر . (المترجم)

١٦٧٣ طلبت إليه أرماند وغيرها ، حين رأوا اعياءه ، أن يفلق للسرح أياما حتى يتمالك صحته . فسألهم ، ولكن كيف أصنع هذا ؟ إن هنا خمسين ماملا فقيرا ينقدون أجرهم يوما بيوم ، فإذا هم فاعلون إذا توقعنا من التمثيل ؟ انني لألوم نفسى على انى أهملت توفير القوت لهم يوما واحدا مادام فى طاقتى أن أمثل (٤٥) . وفى الفصل الأخير من التمثيلية ، وبينما كان موليير ، فى دور أرجان (الذى تظاهر بالموت مرتين) يلفظ بكلمة *Juro* (أحلف) وهو يقسم يمين للمهنة ، أخذته نوبة سعال مقترنة بتقلصات . فدارها بضحكة كاذبة وأنهى التمثيلية . وهرعت به زوجته والممثل الشاب ميشيل بارون إلى بيته . وطلب كاهنا ، ولكن أحدا لم يحضر . واشتد سعاله ، وانفجر فيه عرق ، فاختنق بالدم فى حلقة ومات .

وقضى آرلى دشانفالون رئيس أساقفة باريس بأنه يستحيل دفن موليير فى أرض مسيحية مادام لم يتب توبته النهائية ويتلقى غفران الكنيسة . أما أرماند ، التى كانت تحبه على الدوام حتى وهى تخدعه ، فذهبت إلى فرساي ، وارتمت عند قدمى الملك ، وقالت فى غير حكمة ، ولكن فى شجاعة وصدق « إذا كان زوجى مجرما ، فان جلالتكم باركتكم جرائمه بشخصكم (٤٦) » . وبعث لويس بكلمة إلى رئيس الأساقفة سرا ، ولان آرلى ، وأمر بالأى يؤخذ جنمائه إلى كنيسة لإجراء الشعائر المسيحية ، ولكنه سمح بدفنه فى هدوء بعد القروب فى ركن قصى من جبانة سان - جوزيف فى شارع مونمارتر .

ومازال موليير بإجماع الناس علما من أعظم أعلام الأدب انفرنسى ، لا بكمال تكنيكة المسرحى ولا بأى روعة تميز بها شعره . فأكثر حبكاته مستعارة ، ومعظم نهاياتها منتملة وغير معقولة ، وجل شخصوه صفات مجسدة ، والعديد منها كأرباجون مبالغ فيه إلى حد الكاريكاتور ، وكثيرا ما تهبط ملاهيه إلى درك الفارص (الهزلية الصاخبة للمهرجة) .

وقد قيل إن الحاشية والجمهور أحبوه أكثر ما أحبوه حين يفرق في هذا الغارص ، ولم يستطيعوا أهاجيه اللاذعة للمثالب التي يشارك فيها الناس صوما . وأغلب الظن أنه كان مفضلا هذا اللون من الهزلية لولا شعوره بأنه مضطر إلى الحفاظ على قدرته فردته على الوفاء بديوثها .

وكما أسف شيكسبير على اضطراره أن يجعل من نفسه مهرجا للناظرين كتب موليير يقول : « أرى أن سن العقوبة الفادحة في الفنون الحرة أن يعلن الفنان عن نفسه للحمقى وأن نعرض ثمرات أقلامنا للحكم الهمجى الذى يحكم به عليها الأغبياء (٤٧) » . وقد حز في نفسه أن يطالب على الدوام بياضحالك الناس ، فهذا كما قال أحد شخصوصه « مطلب غريب (٤٨) » . وكان يتطلع لكتابة المسأى ، ومع أنه قصر دون هذا الهدف ، فإنه وفق في أن يضىفى على أعظم ملاهيه مغزى وعمقا مأساويين .

إذن فالفلسفة التي تنطوى عليها تمثلياته ، وفكاهتها وهجوها اللاذع - هذه هي التي تجعل كل قارىء فرنسى تقريبا يقرأ موليير (٤٩) . وهى فى صميمها فلسفة عقلانية ، أبهجت قلوب « فلاسفة » القرن الثامن عشر . « فليس فى موليير أثر لمسيحية الخوارق » و « الدين الذى عرضه لسان حاله كليات (فى طرفوف) يمكن أن يصدق عليه فولتير (٥٠) » . إنه لم يهاجم قط العقيدة المسيحية ، وقد سلم بفضل الدين فى حياة الكثيرين جداً ، واحترم التقوى الصادقة المخلصة ، ولكنه احتقر الورع السطحي الذى يخفى أنانية أيام ستة وراء نقاق اليوم السابع (يوم الأحد) .

وكانت فلسفته الأخلاقية وثنية بمعنى أنها أبحاث اللذة ولم يكن فيها إحساس بالخطيئة . كان فيها راحة أبيقور وسنيكالا القديس بولس أو أوغسطين ، وقد انسجمت مع تحمل الملك أكثر من انسجامها مع زهد البور - رويال . وكان يستنكر الغلو حتى فى الفضيلة . كان يعجب بـ « الرجل الفاضل » ، رجل الدنيا المعقول الذى يسلك باعتدال طاق

وسط السخافات المتعارضة ، ويوائم في غسير ضجة بين نفسه وبين
نقائص البشر .

ولم يبلغ موليير ذاته ذلك المستوى من الاعتدال . فقد أكرهته مهنته
مسرحيا هازلا على الهجوم ، وعلى المبالغة أحيانا كثيرة . وقد عنف على
النساء المتعلمات ، وغلا في هجومه على الأطباء دون تفريق ، ولعله كان
يخلق به أن يبدي احتراما أكثر للحقن الشرجية . ولكن الغلو كائن في دم
الهجو ، وقل أن تبلغ المسرحيات هدفها بدونه ، ولعل موليير يكون أجل
وأعظم قدرا لو أنه وجد سبيلا لهجو الشر الأساسى الذى لوث ذلك العهد -
ونعنى ذلك الجشع الحربى والاستبداد المدمر الذى ابتلى به لويس الرابع
عشر ؛ ولكن هذا المستبد المنعم هو الذى حماه من أعدائه ويسر له أن
يشن الحرب على التعصب . وما أسعده لأنه مات قبل أن يصبح سيده
أشد هؤلاء المتعصبين كلهم تدميرا !

إن فرنسا تحب موليير ، وما زالت تمثل مسرحياته ، كما تحب انجترا
شيكسبير وتمثل مسرحياته ، ولا تستطيع كما يريد بعض الغالين (الفرنسيين)
المتحمسين أن نسوى بينه وبين شاعر إنجلترا ، فلقد كان جزءا فقط من
شيكسبير ، الذى كان جزءا من الآخرين راسين ومونتيني . كذلك لا نستطيع
كما يفعل الكثيرون أن نضعه على قمة الأدب الفرنسى . لابل إننا لسنا على
يقين من أن بوالو كان على حق حين قال للويس الرابع عشر إن «وايير كان
أعظم شعراء عهده ، حين قال بوالو هذا لم يكن راسين قد كتب « فيندر »
ولا « آتالى » . ولكن فى موليير ، ليس السكائب فقط هو الذى ينتهى
لتاريخ فرنسا ، بل الإنسان : مدير الفرقة المرهق الوفى ، والزوج المخدوع
الصفوح ، والمسرحى الذى يخفى أحزانه بالضحك ، والممثل العليل الذى
يوصل حتى الموت حر به على الفقر ، والتعصب ، والخرافة ، والنفاق .

الفصل الخامس

أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي

١٦٤٣ - ١٧١٥

١ - جو الكلاسيكية

لم يكن أوج الأدب الكلاسيكي الفرنسي مواكباً تماماً لعصر لويس الرابع عشر، بل جاء إبان وزارة مازاران وفي الربيع المشرق لهذا العصر (١٦٦١ - ٦٧)، قبل أن ينحى مارس (إله الحرب) ربات الفنون إلى المؤخرة. أما أول حافز للتفجر الأدبي فقد انبعث من تشجيع ريشليو للدراما والشعر، وجاء الثاني من الانتصارات الحربية التي حققها الفرنسيون في روكروا (١٦٤٣) ولنز (١٦٤٨)، وانساب الثالث من انتصارات فرنسا الدبلوماسية في معاهدتي وستفاليا (١٦٤٨) والبرانس (١٦٥٩)، وأتى الرابع من اختلاط الأدباء بالنبل والمثقفات من النساء في الصالونات، والحافز الأخير فقط هو الرعاية التي حظي بها الأدب من الملك والحاشية. وكثير من روائع ذلك العهد - كرسائل بسكال (١٦٥٦) وخواطره، وطرطوف موليير (١٦٦٤) ومسرحية وليمية التمثال الحجري (١٦٦٥) ومبغض البشر (١٦٦٦)، وأمثال لاروشفوكو (١٦٦٥) وهجائيات بوالو (١٦٦٧) وأندروماك راسين (١٦٦٧) - هذه كلها كتبت قبل ١٦٦٧ بأقلام رجال تموا وترعرعوا أيام ريشليو ومازاران.

ومع ذلك كان لويس أسخى راع للأدب عرفه التاريخ كله. فنامضت سنتان على تسلمه مقاليد الحكم (١٦٦٢ - ٦٣) - أي قبل هذه الآثار

الأدبية كلها باستثناء اثنين منها — حتى طلب إلى كولبير وغيره أن يسكفوا أشخاصاً أكفاء بوضع قائمة بأسماء المؤلفين والأدباء والعلماء من أى بلد ممن يستحقون أن تقدم إليهم يد المعونة . ومن هذه القوائم تلتقى خمسة وأربعون فرنسياً وخمسة عشر أجنبياً معاشات ملكية (١) . وأدهش الأدبيين الهولنديين هاينسيوس وفوسيوس ، والفزيأى الهولندى كرستيان هويجنس ، والرياضى الفلورنسى فيفيانى ، وكثيراً غيرهم من الأجانب ، أن يتلقوا رسائل من كولبير تنبئهم بقرار الملك الفرنسى أن يمنحهم معاشات إذا وافقت حكوماتهم . وبلغ بعض هذه المعاشات ثلاثة آلاف من الجنيهات فى العام . فعاش بوالو صميد الشعر غير الرسمى ، على معاشاته كأنه إقطاعى كبير ، وترك لورنته ٢٨٦.٠٠٠ فرنك نقداً ، وتلقى راسين ١٤٥.٠٠٠ فرنك طوال عشر سنين بوصفه المؤرخ الملكى (٢) . ولعل المعاشات الدولية كان بعض الدافع إليها الرغبة فى كسب أرباب الأقلام خارج فرنسا ، أما الهبات فى الداخل فهدفتها إخضاع الفكر ، كما أخضعت الصناعة والفن للتنسيق والإشراف الحكوميين . وتحقق هذا الهدف ، فأخضع النشر كله لرقابة الدولة ، وأذعن الذهن الفرنسى للإشراف الملكى على تعبيره المطبوع ، باستثناء مقاومة متفرقة ضئيلة . يضاف إلى هذا أن الملك اقتنع بأن هذه الأقلام المأجورة ستتغنى بمدح نثرأ وشعراً وتحالف للتاريخ صورة مشرقة له . وقد بذلوا فى هذا قصاراهم .

ولم يسكتف لويس بصرف المعاشات للأدباء ، بل إنه حماهم واحترمهم ، ورفع مقامهم الاجتماعى ، ورحب بهم فى القصر . قال مرة لبوالو « تذكر أننى سأفرد لك دائماً نصف ساعة من وقتى (٣) » . وربما كان ذوقه الأدبى مسرف الانحياز إلى الخصائص الكلاسيكية ، خصائص النظام ، والوقار ، وجمال الشكل ؛ ولكن هذه الفضائل لم تكن فى رأيه معينة على توطيد الحكم فمحسب بل على إضعاف النبيل على فرنسا . وكان من بعض الوجوه

متقدما على شعبه وبلاطه في أحكامه الأدبية . وقد رأيناه يحكى مولير من غدر النبلاء ورجال الدين ، وسنراه يشجع أشد شطحات راسين .

وعلا باقتراح آخر من كولبير ، وترسما لخطى ريشليو مرة أخرى ، أعلن لويس أنه الراعى الشخصى للأكاديمية الفرنسية ، ورفعها إلى مرتبة المؤسسات الحكومية الكبرى ، ووفر لها الأموال الكافية ، وهياً لها مكاناً فى اللوفر . وأصبح كولبير نفسه عضواً فيها . ولما أمر عضو ، كان إقطاعياً كبيراً فى الوقت ذاته ، بأن يوضع له مقعد وثير فى الأكاديمية ، أرسل كولبير فى طلب تسعة وثلاثين مقعداً على شاكلته حفاظاً على المساواة فى الكرامة قبل الفوارق الطبقيه ، وهكذا أصبحت « المقاعد الأربعون » مرادفاً للأكاديمية الفرنسية ، وفى ١٦٦٣ نظمت أكاديمية فرعية للنقوش والرسائل لتسجل أحداث العهد .

واستوثق كولبير من أن « الخالدين الأربعين » يسكبون روايتهم بالانتظام فى الحضور وبالجهد فى تصنيف القاموس . وكان مشروع هذا القاموس الذى بدأ فى ١٦٣٨ يتقدم فى ببطء شديد ، حتى استطاع بوارويير أن يعبر أبجدياً عن أمنيته فى طول العمر ، « لقد أنفقوا ستة شهور وهم مشغولون بحرف F ، فليت قدرى يمهلى حتى حرف G (٤) » .

كانت خطة القاموس معقدة شديدة التفصيل ، فقد رأت تتبع كل كلمة مسموح بها طوال تاريخ استعمالها وهجاءاتها ، ويشفع هذا بالكثير من الشواهد التوضيحية ، وهكذا انقضت ست وخمسون سنة بين بدء المشروع ، ونشر القاموس لأول مرة (١٦٩٤) . ولقد أسرف فى فحص لغة الشعب ، والمهن ، والفنون ، وشذب رابليه ، وآميو ، ومونتيني ، ورفض مئات التعبيرات التى تعين على الحديث الحى . فذات المنطق ، والدقة ، والوضوح الذى جعل من الهندسة المثل الأعلى لعلم القرن السابع عشر وفلسفته ، وذات السلطان والانضباط اللذان هيمن بهما كولبير على الاقتصاد ولبرون على

الفنون ، وذات الوقار والتألق اللذان سيطرا على بلاط الملك ، وذات التشبث الكلاسيكي بالقواعد الذي شكل أسلوب بوسويه ، وفينيلون ، ولاروشفوكو ، وراسين ، وبوالو — كل أولئك أملى قاموس الأكاديمية . ولقد نقح وأعيد نشره دورياً ، وكافح للاحتفاظ بالنظام في جسم نام حي ، وبماجت قلمته الكلاسيكية المرة بعد المرة ، وكثيراً ما اقتحمتها ، أخطاء الشعب ، ومصطلحات العلوم ، وورطاة الحرفيين ، وعامية الشوارع ، واقماموس ، شأنه شأن التاريخ والحكومة ، مزاج من القوى بين نقل الكثرة وقوة القلة . وقد خسرت اللغة شيئاً من حيث الحيوية ، وكسبت الكثير من حيث النقاء ، والدقة ، والأناقة ، والمسكنة . أنها لم تنجب شيكسبيراً هايجاً مايجاً ، ولكنها أصبحت أعظم لغات أوروبا احتراماً ، وغدت أداة الدبلوماسية ، ولسان الارستقراطيات . وظلت أوروبا قرناً وأكثر تهفو إلى أن تكون فرنسية .

٣ - تذييل لـ كورني : ١٦٤٣ - ٨٤

بلغت اللغة أوجها في السهولة المرنة التي اتسم بها حوار موايير ، وفي بلاغة كورني الطنانة ، وفي تألق راسين الشعبي .

أما كورني فكان يبدو في ربيع أدبه - وهو في السابعة والثلاثين - حين اعتلى لويس العرش ؛ وقد بدأ انهيد بملهاة « الكذاب » التي رفعت نبرة الملهاة الفرنسية كما رفعت « السيد » نبرة المأساة . ثم راح يدفع إلى المسرح بالمأسى كل طام تقريباً بعد ذلك ، رودوجون (١٦٤٤) ، وتيودور (١٦٤٥) ، وهيراقليوس (١٦٤٦) وذن سانشو الأراجوني (١٦٤٩) وأندروميد (١٦٥٠) ويسكوميد (١٦٥١) وبرتاريت (١٦٥٢) . ولقى بعض هذه للتمثيلات استقبالا حسنا ، ولكن حين تعاقبت كل منها سريما خلف سابقتها ، وضع أن كورني يتمجّل الإنتاج ، وأن عصارة

عبقريته آخذة في النضوب . وضاع ولعه بتصوير النبالة وسط بحر من الجدل ، وهزمت بلاغته ذاتها باستمرارها دون توقف . قال موليير « إن لصديقي كورني رقيقاً يلهمه أروع شعر في الدنيا . ولكن يحدث أن يتركه رفيقه ليرعى شئونه ، وعندها يتعثر شر تعثر (٥) . » وقد لقيت « بارتاريت » من سوء الاستقبال ما حمل كورني على أن يعزل المسرح ست سنوات (١٦٥٣ — ٥٩) ، وتناول نقاده في سلسلة من « الفصوص » ، وفي ثلاثة أحاديث عن الشعر المسرحي . وقد دلت هذه الأحاديث على صعود موهبته النقدية بهبوط ملكته الشعرية ، وأصبحت يذبوطن للنقد الأدبي الحديث ، واتخذها درايدن نماذج حين دافع عن شعره المتوسط الجودة في نثر رائع .

وفي ١٦٥٩ ردت كورني إلى خشبة المسرح لفترة تلقاها من فوكيه . وظفرت مسرحيته « أوديب » ببعض الاستحسان عقب ثناء الملك الشاب عليها ، ولكن المسرحيات التي تلتها — سرتوريوس (١٦٦٢) ، وسوفونيسب (١٦٦٣) ، وأوتون (١٦٦٤) ، وأجيسيلاس (١٦٦٦) وأتيلا (١٦٦٧) — هذه كلها كانت قاصرة قصوراً لم يستطع فونتنبيل إزاءه أن يصدق أن كاتبها هو كورني ؛ وقال بوالو في بيت ساخر :

« بعد أجيسيلاس ، وا أسفاه ! ولكن بعد أتيلا ، قف ! » وزادت مدام هنرييتا الطين بلة ، مع أنها كانت طادة آية العطف والرفقة ، حين دعت كلا من كورني وراسين ، بعلم من كل ، إلى أن يكتب تمثيلية في ذات الموضوع — وهو بيرنيس ، الأميرة اليهودية التي وقع في حبها تيطس الإمبراطور القادم . ومثلت بيرنيس التي ألغها راسين في الأوتيل دبورجون في ٢١ نوفمبر ١٦٧٠ بعد خمسة أشهر تقريباً من موت هنرييتا ، ولقيت نجاحاً كاملاً . أما مسرحية كورني « تيطس وبرنيس » فقد مثلتها فرقة موليير بعد ذلك بأسبوع ، ولم تلق غير استقبال فاتر : وحطم فشلها روح كورني . وجرب حظه ثانية بمسرحيته « بولشيري » (١٦٧٢) وسورينا (١٦٧٤) .

ولسكن الفشل كان نصيبهما أيضا . وأنفق كورني بعد ذلك السنين العشر التي بقيت له من أجله في تقوى هادئة مكتتبة .

وكان متلافا ، مات فقيرا برغم ما أجرى عليه لويس الرابع عشر من معاش وما نفحه به من هبات ، وقد قطع معاشه دون قصد أربع سنوات ، فلجأ كورني إلى كولبير ، فأمر برده إليه ، ولسكنه انقطع ثانية بعد موت كولبير . فلما نعى الأمر إلى بوالو أعلم به لويس الرابع عشر ، وعرض أن ينزل عن معاشه لكورني . ولسكن الملك بادر بإرسال مائتي جنيهه للشاعر المعجوز ، الذي مات بعدها بقليل (١٦٨٤) بالغا الثامنة والسبعين ، وأبنه في الأكاديمية الفرنسية مزاحمه الذي كان قد خلفه ، ورفع المسرحية والشعر الفرنسيين إلى ذروة تاريخهما ، والتأبين مازال مذكورا للملاحوى من سماحة وبلاغة .

٣ — راسين : ١٦٣٩ - ٩٩

ولد مثل مولير في أسرة متوسطة . وكان أبوه مراقبا لاحتكار الدولة للملح في لافيرتى — ميلون ، على نحو وخمسين ميلا شمال شرق باريس ، وكانت أمه ابنة محام في فيليه — كوتريه . وقد مات عام ١٦٥١ وجان لم يبلغ الثانية بعد ، وبعد سنة مات أبوه ، فكفل العبى جده لأبيه . وكان في الأسرة نزوع قوى إلى الجانسية ، فقد التحقت جدة وعمة لراسين بأخوات البور — رويال ، وأرسل جان نفسه حين ناهز السادسة عشرة إلى « المدرسة الصغيرة » التي يديرها « المتوحدون » . وقد تلقى عنهم تعليما مركزا في الدين واليونانية — وهما مؤثران قدر لهما أن يسيطرا الواحد بعد الآخر على حياته . واستهوته تمثيلات سوفوكليس ويوربيديس فترجم بعضها بنفسه . ثم تعلم شيئا من الفلسفة ومزيذا من الثقافة الكلاسيكية في كلية آركور بباريس ، واكتشف المقاتن الخفية للأنونة الشابة ، الجديد منها

والمستعمل . وعاش طامير على شاطئ « الجزائر » أوجوستان مع ابن عمه نيكولا فينتار ، الذي كان يتردد بين البور — رويال والمسرح . واستمع راسين إلى عدة تمثيليات ، وكتب تمثيلية ، وعرضها على موليير ، ولم تسكن من الجودة بحيث تستحق الأخراج ، ولكن موليير نفحه بمائة جنيه ذهبي ، وشجعه على أن يعيد الكرة . واستقر رأى راسين على اتخاذ الأدب حرفة له .

وهال هذا الجنون أقرباه ، وراعهم ما نعى إليهم من أبناء غرامياته ، فأرسلوه إلى أوزيس بجنوبي فرنسا (١٦٥٩) مساعداً لهم له كان كاهنا لسكرتد رائية ، فوعده بوظيفة كنسية ذات وقف إن هو درس اللاهوت ورسم قسا . أما الشاعر الشاب ، الذي ما زال باطنه يضطرم بنار باريس ، فقد ظل طاماً يسدل على هذه النار عباءة سوداء ، وقرأ القديس توما الأكويني - وقليلاً من أريوستو ويوربيديس بجانبه . وكتب الآن إلى لافونتين يقول :

« كل النساء رائعات ٠٠٠ لحم غض طرى ، ولكن بما أن أول شيء قيل لي هو أن آخذ حذري ، فليست أريد أن أقول المزيد عنهن . أضف إلى ذلك أنه سيكون امتهاناً لبيت كاهن ذى وقف أعيش فيه أن أخوض في حديث طويل عن هذا الموضوع ، « بيتي بيت الصلاة يدعى » ٠٠٠ لقد قيل لي « كن أعمى » فإذا لم أستطع أن أكون ذلك كلية ، فإنى أستطيع على الأقل أن أكون أبكم ٠٠٠ لأن على المرء أن يسكون راهباً مع الرهبان ، كما كنت ذئباً معك ومع غيرك من ذئاب قطيعك (٦) » .

ولقى الكاهن شدائد وأصبحت الوظيفة الكهنوتية للأعواده أملا بعيداً وتبين راسين أنه لا يملك موهبة القسوسية . فبدل ثوبه ، وطوى كتاب « خلاصة اللاهوت » وطاد إلى باريس (١٦٦٣) .

فلما بلغها نشر نشيداً أتاه بمائة جنيه من جيب الملك . واقترح عليه موليير موضوعاً حوله راسين إلى تمثيلته الثانية « طيبة » (التيبايد) . وأخرجها

موليير في ٢٠ يونيو ١٦٦٤ ، ولكنّه اضطر لسحبها بعد أربعة عروض .
على أنها أحدثت من الضجة ما كفى لساعها في البور - رويال - دوشان .
وأرسلت إليه صمته من هناك رسالة تستحق أن نوردّها باعتبارها جزءاً من
دراما تمعدل في بلاغتها وتأثيرها في النفس أي شيء كتبه راسين :

« حين نعى إلى أنك تنوى الحضور إلينا طلبت إلى أمنا الإذن لي
برؤيتك ولكنني سمعت مؤخراً خبراً أثار في أشجاننا صميقة . واني
أكتب إليك في مرارة قلبي ، وأذرف الدمع الذي أرجوان أسكبه غزيراً
أمام الله لأنال منه خلاصه الذي أتوق إليه أشد بما أتوق لأي شيء آخر في
العالم . فقد علمت بالأسف أنك تخالط أكثر من أي وقت مضى معشراً
اسمهم بحق رجس عند كل من له أي نصيب من تقوى ، ، لأنهم محرومون
من دخول الكنيسة ، أو تناول الأسرار المقدسة . فانظر الآن يا ابن أخي
إلى أي حال صرت ، لأنك لا بد عليم بما أشعر به نحوك من حنان ، وبأنه
لم يكن لي من سؤال إلا أن تتبع الله في وظيفة شريفة . لذلك أتوسل
إليك يا ابن أخي العزيز أن ترحم نفسك ، وتفحص قلبك ، وتتأمل بمجد أي
هوة تردت فيها . أنني لأرجو ألا يكون صحيحاً ما أثبتت به ، ولكن إذا
كان سوء طالعك قد بلغ مبلغاً يحملك على مواصلة تجارة تشينك أمام الله
والناس ، فعليك ألا تفكر في المجد لرؤيتنا ، لأنك تفهم جيداً أنني لن
أستطيع في هذه الحالة أن أكلمك لعلى بأنك في حالة مؤسفة جداً ،
مناقضة كل المناقضة للمسيحية . ولن أكف في الوقت نفسه عن التضرع لله
ليرحمك ، فيرحمني برحمته إياك ، لأن خلاصك عزيز على جداً (٧) » .

فها هنا عالم شديد الاختلاف عن ذلك الذي تسجله صفحاتنا عادة - طام
من الإيمان العميق بالمقيدة المسيحية ، والولاء المحب لدستورها الأخلاقي .
ونحن لا نملك غير التعاطف مع امرأة استطاعت أن تسكتب بمثل هذا
الأخلاص في العاطفة ، ولم تخل من العذر لرأيها في المسرحية الفرنسية كما

كانت في شبابه . ولم تبلغ عبارة نيسكول العلية التالية هذا المبلغ من الرقة والحنو ، وكان قد علم راسين في البور — رويال :

« كل الناس يعرفون أن هذا السيد قد كتب .. تمثيليات للمسرح ... وهذه المهنة في نظر ذوى العقول الراجحة ليست في ذاتها مهنة شريفة جداً ، ولكن إذا نظر إليها في ضوء الدين المسيحي وتعليم المسيح كانت في الحق مهنة رهيبة . فالروائيون نجار مسموم يقتلون نفوس الناس لا أجسادهم (١) » .

واجاب كل من كورني وموليير وراسين على هذا الاتهام على حدة ، وكان في جواب راسين من العنف الغاضب ما جعله يندم عليه اشد الندم في سنوات لاحقة .

وتلا خصامه مع البور ... رويال خصام مع موليير بعد قليل . نفي ديسمبر ١٦٦٥ قدمت فرقة موليير تمثيليه راسين الثالثة « الإسكندر » وكان موليير كريماً كما دته ، فهو عليم بأن راسين لم يعجب به مثلاً تراخيديا ، وان المؤلف الشاب بهيم بأجل ممثلاته وإن لم تسكن اكنها من ، لذلك اخرج نفسه والمرأتين بيجار من شخصيات المسرحية ، واعطى الدور النسائي الأول لترين دبارك ، ولم يرض بمال على الأخراج . وقد لقيت استقبالا حسنا ، ولكن راسين لم يرض عن التمثيل . فرتب حفلة خاصة مثلت الفرقة الملكية فيها المسرحية ، وحمله سروره بهذا التمثيل على سحبها من موليير واعطائها لهذه الفرقة المنافسة . وأقنع الأنسة دبارك التي أصبحت عشيقته بأن تترك فرقة موليير وتنضم إلى الفرقة الأقدم وعرضت المسرحية في مكانها الجديد بالأوتيل دبورجون ثلاثين مرة في أكثر قليلا من شهرين . ولم تسكن من روائع راسين ، ولكنها وطدت مكاتته خلفا لسكورني ، وأكسبته صداقة الناقد بوالو المرشدة . فحين قال له راسين مفاخرأ « انى أنظم شعري في يسر مدهش » أجابه بوالو « أريد أن أعلمك كيف تنظمه في عسر (١) » . ومنذ ذلك الحين علم الناقد العظيم الشاعر قواعد الفن الكلاسيكي .

ولا علم لنا بمدى المعبر الذي نظم به راسين « أندروماك » ، على أية حال بلغ فيها أوج قوته المسرحية وأسس لوبه الشعري . وهو يذكر في إهدائه المسرحية إلى مدام هنرييتا أنه قرأها عليها ، وأنها بسكت . ومع ذلك فهي مسرحية رعب لا مسرحية عاطفة ، وفيها كل السكارنة المحتومة التي تتوقعها في إسخيلوس أو سوفوكليس . والحبكة شبكة معقدة من العلاقات الغرامية . فأوريست يحب هرميون ، التي تحب بيروس ، الذي يحب أندروماك ، التي تحب هكتور ، الذي مات . وقد منح بيروس بن أخيل ثلاث جوائز لما أبلى في انتصار اليونان على طرواده : منح أبيروس ملكة له . وأندروماك (أرملة هكتور) أسيرة له ، وهرميون (ابنة منيلاوس وهيلانة) زوجة له . أما أندروماك فلا تزال شابة جميلة ، وإن لم تكف عن الكآب ، وهي لا تمحيا إلا لتذكر زوجها النبيل ، وتخاف على طفلها أستيانا كس ، الذي ينقذه راسين - بأحرف مسرحي عن القاعدة - من الموت الذي كان يصيبه في يوريبنديس ليستعمله هنا أداة في يد القدر . ويفد أوريست - بن كليتمندترا وقتلها - على إيروس مبعوثا من اليونان ليطلب إلى بيروس تسليم أستيانا كس وموته باعتباره المنتقم المحتمل لطروادة في المستقبل . ويرفض بيروس الاقتراح في فقرة تمنع موسيقاها على الترجمة . يقول ما معناه :

« إنهم يخشون أن تولد طروادة بهكتور من جديد ، وأن ابنه قد ينزع مني الحياة التي حفظتها عليه . سيدي ، إن الأفراط في التدر يجبر أفراطا في الحذر . إنني لا أستطيع أن أبصرنا - تكاره من هذا البعد الكبير . وأنا أفكر فيما كانت عليه هذه المدينة (طروادة) فيما مضى ، جبارة في حصونها ، شديدة الخسوبة في أبطالها ، سيدة على آسيا ، ثم أتأمل في النهاية ما صارت إليه وما انتهى إليه حظها - فلا أرى غير أبراج غطتها الرماد ، ونهر صبغت مياهه الدماء ، وحقول هجرت ، وطفل مقيد بالأغلال ، واست أظن أن طروادة تقوى على الثأر وهي على هذه الحال . آه ، لو كان ابن

هــكتور قدر عليه الموت ، فلم أبقينا عليه طاما كاملا ؟ ألم نكن قادرين على تقديمه قربانا على صدر يريام ؟ كان يجب أن يسحق تحت مئات القتلى في طرواده ؛ يومها كان كل شيء مباحا ، وعبثا كانت تمتج الشيوخ والطفولة بضعفهما في الدفاع عن نفسيهما ، فالنصر والقدرة - وهما أشد مناقسة ، حرضانا على القتل وأفقدانا التمييز في ضرباتنا . إن غضبي على المغلوبين جاوز حد الصرامة ، ولسكن أوجب أن تبقى قسوتي بعد غضبي ؟ أينبغي أن أغتسل متلبثا في دم طفل برغم ما يتمسكني من شفقة عليه ؟ لا ياسيدي ، قلميحت اليونان عن فريسة أخرى ، وليلاحقوا ما بقي من مارودة في غير هذا المكان . لقد بلغت نهاية الشوط في عدائي . ان ابيروس ستنقذ ما أبتت عليه طرودة (١٠) .

هنا مأخذ واحد ، ذلك أن بيروس ، وربما راسين ، لا يدركان مبلغ ما تدين به شفقة الفاتح لغرامه بأمر الطفل — إلى حد عرضه الزواج منها (مع أنه كان يستطيع أن يتخذها جارية له) ، واتخاذها أستياناكس ولدا ووريثا له . ولسكنها ترفضه ، فهي لا تستطيع أن تنسى هكتور ، الذي قتله أبو بيروس . وهو يهدد بأن يسلم الطفل لليونان ، فيروعها تهديده ، وترضى بالزواج منه ، ولسكن هرميون — وهي في تصور راسين لها تضارع الليدي مكبث قوة — ، تشتعل غضبا لأنها ابنت ، فهي تعزم قتل بيروس رغم أنها لانزال تحبه ، وتقبل ما يعرضه أوريست من حب وولاء ، شريطة أن يقتل بيروس . فيوافق كارها . وفي كل خطوة وكل شخص من شخص هذه المسرحية صراع في الدوافع يرقى إلى أدق العقد النفسية المعروفة في الأدب . ويقتمحم الجندي اليونان الهيككل ويقتلون بيروس عند المذبح الذي يتبادل فيه عهود الزواج مع أندروماك . وتحتقر هرميون أوريست ، وتجرى إلى المذبح ، وتعمد مديفة في جسد بيروس الميت ، ثم تطعن نفسها وتموت . هذه أعظم مسرحيات راسين ، وهي خليقة بأن تثبت للمقارنة مع شيكسبير ١٤ — قصة الحصار

أو يوربيديس: حبكة متينة البناء ، وشخصوص كشف عنها في عمق ،
ومشاعر مدروسة في كل تعقيدها وحدثها(*) ، وشعر فيه من الروعة
والتناغم ما لم تسمعه فرنسا منذ رونسا .

واعترف الناس بأندروماك للتو رائحة من روائع الأدب ، فوطدت
مقام راسين خليفة لسكورني وربما متفوقا عليه . ودخل الآن أسعد عقد
في عمره ، منتقلا من نصر إلى نصر ، بل متحديا موليير بملهارة من قلبه .
والملهارة ، واسمها « المتخاصمون » ، وهي تقليد ساخر (برلسك) للمحاميين
الجلسعين ، وشهود الزور ، والقضاة الفاسدين — هذه الملهارة كانت صدى
لتجربة راسين مع القانون . ذلك أنه التمس دهننا على دجل دبر وحصل
عليه ؛ والسكن راهبا نازعه دعواه ، وتلا ذلك دعوى قضائية امتد بها
الأجل حتى ضاق بها راسين ذرعا فتخلى عنها وتأر لنفسه بكتابة المسرحية .
ولم تسر النظارة في أول عرض لها ، ولكن حين مثلت في البلاط ضحكك
لويس الرابع عشر من قلبه على نكتتها ضحكا جعل الجمهور يغير رأيه ، وأدت
هذه الملهارة المتوسطة الجودة دورها في ملء جيب راسين .

على أن نعمة صغيرة قطعت عليه هنا . ذلك أن خليلته دبارك ماتت في
ظروف غامضة — سنفصلها في موضع لاحق — في ١١ ديسمبر سنة ١٦٦٨ .
وبعد أن توقف فترة مناسبة اتخذ ممثلة أخرى تدعى ماري شانسلية . وكان
لها زوج يقظ وصوت ساحر ، وتحاشى راسين الأول واستسلم للآخر .
واتصل هذا الغرام من برينيس حتى فييدر ، وبعد ذلك اتزعا الكونت
دكليرمون — توير من جذورها (déracinée أي من راسين) كما قال
أحد الظرفاء .

ومسرحية راسين « بريتاينيكوس » (١٦٦٩) في رأيه أكثر أعماله
اتقاناً ، وكثيرا ما تفضل على اندروماك ، شأنها شأن « فييدر » و « اتالي » .

(٥) انفجر عرق في مونغاوري وهو يمشي ومات بعد قليل .

هل أن القارئ المصري لن يبتذنها في أغلب الظن مهما كان غارقاً في تاسيتوس
ففيها أجربين السليطة ، وبريتانيكوس الشكاه وبوروس المتخبط ، ونارسيس
القذر ، ونيرون الممتليء شراً — فما من شخص هنا يظهر لنا تعقداً أو تطوراً ،
أو يبدي لنا أثراً من نبل خليق بأن يخفف في موضع ما من أى مأساة
جديرة بقلم شاعر .

وكما أن بريتانيكوس فتشت عن قصتها في « قاعة الفطام » التي ذكرها
تاسيتوس ، فكذلك أخذت برينيس (١٦٧٠) قصة غرام امبراطور عن
سطر موجز لسويتون يقول فيه « فأرسل لتوه كارها برينيس السكرهه من
المدينة (١٢) » وتفصيل المسرحية أن تيطس الذي كان يحاصر أورشليم (٣٧٠)
كان قد أغرم بالأميرة اليهودية . ومع أنها تزوجت من قبل ثلاث مرات ،
إلا أنها اتبعه إلى روما خليعة له ، ولكنه حين برث العرش يدرك أن
الإمبراطورية لن تسمح بملسكة أجنبية ، فيصرفها بعبارات ملكية متدنية
تتميز بالإدراك السليم . وقد حفلت المسرحية بالعاطفة الحارة وحظيت
برضاء الجمهور والملك ، الذي لا يد قد استشف بسرور بلاطه وانتصاراته
في وصف برينيس لعظمة الإمبراطور الشاب :

« أرايت بهاء هذه الليلة ؟ الا تمتليء عيناك بعظمتها وأهبتها ؟ هذه
المشاعل ، وهذا الخطب ، وهذا الليل ذو اللهب المقدس ، وهاتيك النور ،
وتلك الشماعات ، وهذا الجمع من الناس ، وهذا الجيش ، وذلك الحشد من
الملوك ، هؤلاء القناصل ، وهذا السناتو — أولئك الذين قبسوا نورهم
الساطع من حبيبي ، وهذا الأرجوان والذهب الذي يزداد تألقاً بمجده ،
وهذا الغار الذي مازال يقوم شاهداً على انتصاره ، وهذه العميون التي نراها
قادمة من كل فج لتلتقي فيه وحده نظراتها للمهوفة ؛ هذه الطلعة الجميلة ،
وهذه الحضرة الحلوة . وحق السماء ! بأى اجلال وبأى رضى تؤكده كل
القلوب سرائقها به ! تسكلم : أيسطيع إنسان أن يراه دون أن يخطر له

كما يخاطر لى ، أنه لو كان القدر قضي ، بأن يولد مغموراً لتبين فيه العالم سيده
بمجرد النظر إليه (١٣) .

امن العجب إذن ان ترى راسين ، وهو على هذا الحدق فى الرلى ، ينال
الخطوة السريعة عند الملك ؟

ونمر فى احترام ببعض مسرحياته الأقل شأنًا ، وكلها ما يزال يحتل خشبة
المسرح الفرنسى : بايريد (١٦٧٢) ، ومرتدات (١٦٧٣) التى فضلها لويس
على كل مسرحياته ، وإفجيني (١٦٧٤) ، التى وضعها فولتير فى صف واحد
مع أتالى باعتبارها من أروع ما كتب من الشعر (١٤) . وقد عرضت أفجيني
أول مرة فى حدائق فرساي على ضوء الشمعدانات البلورية المعلقة فى أشجار
البرتقال والمان ، وعزف العازفون على الكمان وانعطفت قلوب نصف النخبة
للمتفرجة ، وتقدم راسين ليشكر النظارة على أغلى تصفيق لقيه فى حياته .
وحين أخرجت فى باريس امتد عرضها أربعين مرة فى شهر ثلاثه . وكان قد
انتخب أثناء ذلك عضواً فى الأكاديمية الفرنسية (١٦٧٣) . وبدأ أن سمادته
قد اكتملت .

على أن السعادة لم تكتب إلى الآن للشعراء ، إلا أن يكون الجمال
فرحة لا تنهى ، والثناء لا يقطع صوت ناشز . قال راسين لابنه « لقد طالما
أبهجتى جداً ذلك الاستحسان الذى قوبلت به ، ولكن أقل لوم ناقد . . .
كان يسبب لى دائماً من الضيق قدرا أكبر من كل السرور الذى يدخله على
المدبح (١٥) » . فهو لم يكن شديد الحساسية لحسب ، كما لم يكن بد من أن
يكون ، بل ضيق الخلق ، يرد على كل كلمة نابية . وفى ذروة مجاحه وجد
نصف باريس تنتقده ، لا بل تعمل على إسقاطه . كان كورنبي قد عمر فوق
ما ينبغى ، ولكن مريديه تذكروا ما التهمت به مآسيه الأولى من نبرة
بطولية وموضوعات ملحمية ، وما شاع فى بلاغته من نبل ، وذلك للمستوى
السامى الذى رفع إليه دواعى الشرف والدولة ، فوق أهواء القلب . واتهموا
راسين بتلوين المسأسه بمواطن نصف مجنونة تنفعل بها مخلوقات خسيصة ،

وبادخال مغازلات حب التصور إلى المسرح ، وإغراقه بدموع بطلاته ،
فصموا على إسقاطه .

فلما عرفت أنه يكتب «فيدر» أقنع فريق من خصومه نيكولا برادون
بأن يكتب مسرحية منافسة في الموضوع نفسه . وكان للمسرحيتين نفس
العنوان في الأصل — فيدر وهيبوليت — وابتثقتا من أسطورة رواها
يوربيديس من قبل بما عهد فيه من قصيد كلاسيكي في العاطفة . ففيدر ، زوجة
تيسوس ، تولع ولماً شديداً بهيبوليت بن تيسوس من زوجة سابقة ،
ولكنها تجده بارد العاطفة نحو النساء فتشوق نفسها بعد أن تترك خطاياها تهتمته
فيه بمحاولة الاعتداء على عفافها انتقاماً منه ، ونفى تيسوس ابنه البريء ،
الذي لم يلبث أن قتل وهو يسوق الخيل على شواطئ تروزين . ولكن
راسين غير ترتيب الأحداث ، فجعل فيدر تتجرع السم بعد سماعها بموت
هيبوليت . ومثلت مسرحية راسين في الأوتيل دبورجون في أول يناير سنة
١٦٧٧ ، ومثلت مسرحية برادون بعد يومين على مسرح جينيوجو . ولقيت
التمثليتان نجاحاً متكافئاً إلى حين ، ولكن تمثيلية برادون طواها النسيان ،
في حين تعتبر تمثيلية راسين عادة رائتته الكبرى ، ودور فيدر تصبو إلى
تمثيله كل الممثلات الفرنسيات ، كما يستهوى دور هاملت للممثلين التراجيديين
في المسرح الإنجليزي* . ولقد بارى راسين الرومانسيين مع أنه المثل المحتذى
في الأسلوب الكلاسيكي ، في عاطفية غرام فيدر ، وجعل هيبوليت يتحرق
شوقاً للأميرة أريسيا (وهذا مناقض الأسطورة) . وتعلم فيدر نبأ هذا
الغرام ، ويعطينا راسين في تفصيل منفعل دراسة للمرأة إذا ازدرت . وهو
يخفف من هذه التحليلات الرومانسية بوصف قوى تحليل هيبوليت المذعورة
وهي تجرد حتى يلقي حتفه .

وفي المقدمة التي يصدر بها راسين تمثيلته فيدر (إذ بدأ يشتد فيه

(*) هند آدم ميث أن فيدر « ربما كانت أروع مأساة في أي لغة » (١٦) .

الحافظ الدينى كلما ضعف الحافظ الجنىسى) يلوح بفضن الزبتون للبور —
رويال فيول :

« لست أجروء على أنى أؤكد لنفسى أن هذه . . . خير مأسى . . .
ولسكنى وأثق أنى لم أكتب مأساة عرضت فيها الفضيلة فى ضوء أفضل .
فأثفه الذنوب تعاقب هنا عقاباً صارماً ، ومجرد التفكير فى الجريمة ينظر إليه
هنا نظرة الاستهجان التى ينظر بها إلى الجريمة ذاتها ، وعثرات الحب ينظر
إليها هنا كأنها عثرات حقيقية ، والمواطن المشبوبة لا تعرض على الأنظار
إلا لترى الخلل التى هى السبب فيه ، والرذيلة مصورة فى المسرحية كلها بألوان
تتيح لنا أن نراها ونكره شكلها الشائى . وتلك هى الغاية الصحيحة التى
ينبغي أن يستهدفها كل من يعمل لجمهور الشعب . ولعل هذه أن تكون
وسيلة المصالحة بين الدراما المأساوية ، وكثيرين من الأشخاص المعروفين
بتقواهم وتعاليمهم ، والذين أدانوها مؤخراً ، ولكنهم سيحكمون عليها حكماً
أكثر عطفاً لوعنى المؤلفون بتعليم جمهور النظارة عنايتهم بالترفيه عنهم ،
ولو ترسوموا فى هذا التعليم القصد الصحيح من المأساة (١٧) » .

ورحب آرنو ، المعروف بتقواه وتعاليمه ، بهذه النعمة الجديدة ، وأعلن
رضاه عن فيندر . ولعل راسين وهو يكتب المقدمة ، وقد بلغ الثامنة
والثلاثين ، كان يتطعم إلى حياة من الاستقرار يسكن فيها إلى امرأة واحدة
بدل النساء الكثيرات . فى أول يونيو سنة ١٦٧٧ تزوج زوجة أنه بهر
كبير . وقد اكتشف ما فى الحياة العائلية من أسباب الراحة ، ووجد من
البهجة فى ابنه البكر أكثر مما وجد فى أكثر مسرحياته توفيقاً . وكانت
غيره مزاجيه ودسائسهم قد نقرته من المسرح ، فألقى جانباً الخطوط والمذكرات
التي كان قد أعدها لأربع مسرحيات ، واقتصر طوال اثنى عشر عاماً على
كتابة الشعر والنثر بين الحين والحين . لاسيما تأليف تاريخ للبور — رويال
طابعه التبجيل والولاء البنوى .

ونعص عليه هذا الهدوء المثالى حادث مؤسف أليم . ذلك أن المحكمة

الخاصة التي كانت تحقق عام ١٦٧٩ في تهم التسميم الموجهة ضد كاترين موفوازان استملت منها اتهاما لراسين بأنه سمم خليلته تريز دبارك . وأدات «لأفوازان» بتفاصيل الاتهام ولكن لم يكن هناك ما يعززه . وإذ كانت واثقة من أنه سيحكم عليها بالأعدام ، فأنها لم تكن تخسر شيئا باتهام غيرها زورا ، وقد لوحظ أن إحدى زبائنها وصيديقاتها هي الكونتيسة سواسون ، وكانت عضوا في العصبة التي قاومت راسين في «غرام فيدر (١٨)» . ومع ذلك كتب لوفوا في أول يناير سنة ١٦٨٠ إلى المفوض بازان ديزون يقول «إن الأمر الملكي بالقبض على السيد راسين سيرسل إليك حالما تطلبه» ولكن حين تقدم التحقيق وبدا أنه سيورط مدام دمونتسبان ، أمر الملك بحظر نشر سجن المحاكمة ، ولم يتخذ أى إجراء ضد راسين (١٩) .

وأظهر لويس ثقتة المستمرة في السكاتب المسرحي . ففي سنة ١٦٦٤ رتب له معاشا ، وفي سنة ١٦٧٤ خلع عليه وظيفة شرفية تغل له ٢٤٠٠ جنيه في العام في إدارة المالية ؛ وفي سنة ١٦٧٧ عين راسين وبوالو مؤرخين رسميين للبلاد ؛ وفي سنة ١٦٩٠ أصبح الشاعر موظفا دائما في معية الملك ، فأنته الوظيفة بمورد إضافي قدرة ألفان من الجنيهات . وفي سنة ١٦٩٦ بلغ من الثراء مبلغا أتاح له شراء وظيفة سكرتير الملك .

وقد أطان ادائه النشيط لواجباته مؤرخا ملكيا على مسجده من المسرح . وكان يرافق الملك في حملاته ليسجل الأحداث تسجيلا أدق . وفيما عدا ذلك كان يلزم داره شاغلا نفسه بتربية ولديه وناته الخمس ، وكان يود أحيانا ، وسط صخبهم وضجيجهم ، لو أنه كان راهبا . وما كان ليكتب أى مسرحية أخرى لولا أن مدام دمانتون لجأت إليه في أن يكتب مسرحية دينية بريد ، من كل ما يتصل بالغرام ، تمثلها الفتيات اللاتي جمعتهن في أكاديمية سان سير . وكانت أندروماك قد مثلت هناك من قبل ، ولكن دمانتون القاضلة لاحظت أن الفتيات استمتعن بالفقرات الغرامية الحارة . ورغبة في ردهن إلى التقوى كتب راسين مسرحيته «إستير» .

ولم يسكن قد اقتبس موضوعاً من الكتاب المقدس من قبل ، ولكنه درس الكتاب أربعين سنة ، وأحاط بكل التاريخ المعقد للدون في العهد القديم . وقام هو نفسه بتدريب الفتيات على أدوارهن ، وتبرع الملك بمائة ألف فرنك لتوفير الملابس الفارسية المطلوبة . فلما أخرجت (٢٥ يناير سنة ١٦٨٩) كان لويس أحد الرجال القليلين الذين شهدوها بين النظارة . واشتد الطلب على مشاهدتها ، من الكهنة أولاً ، ثم من الحاشية ، وعرضتها أكاديمية سان - سير اثنتي عشرة مرة أخرى . ولم تصل إستانبر إلى جماهير المتفرجين إلا سنة ١٧٢١ بعد موت الملك بست سنين ؛ وعندها (بعد أن فقد الدين الرطية الملكية) لم تلق إلا نجاحاً متوسطاً .

وفي ٥ يناير سنة ١٦٩١ أخرجت سان - سير أحدث مسرحيات راسين وهي « أتالي » . وأتاليا هي الملكة الشريرة التي ظلت ست سنوات تقود يهوداً كثيرين إلى عبادة البعل الوثنية ، حتى عزلتها ثورة قام بها الكهان (٢٠) وجعل راسين من القصة مسرحية لا يشعر بقوتها غير أولئك الذين يشهدونها وهم على علم بقصة الكتاب المقدس ، يدفيء صدورهم الإيمان اليهودي أو المسيحي الأصيل ، أما غيرهم فسيجدون أحاديثها الطويلة وروحها القائمة مشبهة لهم . وبدا أن التمثيلية صفت لطردها طويلاً وانتصار الكهنوت الكاثوليكي ، ولكنها من جهة أخرى حوت - - في إنذار رئيس الكهنة للملك الشاب جود - تنديداً قوياً بالحكم المطلق :

« إنك وقد نشئت بعيداً عن العرش لم تشعر بفتنته السامة ، إنك لا تعرف الانتشاء بالسلطان المطلق ، وسحر المتملقين الجبناء . مما قليل سيقولون لك إن أقدس القوايين . . . ينبغي أن تطيع الملك ، وأنه لا ضابط للملك غير مشيئته ، وأنه يجب أن يضحي بكل شيء في سبيل مجده الأعلى . . . وأسفاهم لقد ضلوا أحكم الملوك (٢١) » .

وقد ظفرت هذه الأبيات بالأداء تحسان الكثير إبان القرن الثامن عشر ،

ولعلها حدث بفولتير وغيره (٢٢) إلى اعتبار أنلى أعظم الدرامات الفرنسية .
على أن الأبيات التالية لهذه توحى بأن رئيس الكهنة إنما كان يحاج دفاعاً
عن خضوع الملوك للكهنة .

أما لويس ، الذى بز الآن راسين فى تقواه وورعه ، فلم ير بالتمثيلية
بأسا . وواصل استقبال راسين فى انقصر رغم ما عرف عن الشاعر من
تعاطف مع البور — رويال . ولكن فى سنة ١٦٩٨ حجب الملك رضاه .
ذلك أن راسين ، بناء على طلب مدام دمانتون ، وضع بياناً بألوان العذاب
اللى ابتلى بها الشعب الفرنسى فى أواخر الحكم . وفأجأها الملك وهى تقرأ
الوثيقة ، وأخذها منها ، وانزع منها اسم كاتبها ، وأخذته سورة الغضب
وقال « السكونه شاعراً خلا يحسب أنه يعرف كل شىء ؟ لأنه شاعر كبير
يريد أن يكون وزيراً أيضاً ؟ » أما دمانتون فقد أكدت لراسين وهى
تفويض نى الاعتذار له أن الزويعه ستتم سريعاً . ولقد مرت ، وما لبث راسين
أن عاد إلى البلاط واستقبل استقبالاً كريماً ، وإن بدا له أقل حرارة من
ذى قبل (٢٣) * .

أما الذى قتل الشاعر فلم يكن نظرة فاترة من الملك بل خراجاً فى
السكبد . وقد أجريت له جراحة ، وخف ألمه فترة ، ولسكنه لم يكن واحداً
حين قال : لقد أرسل الموت لى كشف حسابه (٢٦) وجاء بوالو ، وهويشكو
المرض ، ليلازم صديقه العليل . وقال راسين « إنى مغتبط لأنه سمح لى أن

(*) يقول ابن راسين : « لقد عاد إلى النصر مبر مرة ، وكان على الدوام ينصرف
بالحدوث إلى -إلابه (٢٤) » أما سان - سيمون فيروى قصة غير هذه : فهو يزعم أن راسين
فقد الحظوة لأنه انتهد ملامه سكارون فى حفرة مدام دمانتون والملك « وهنا اجر
وجه الأرملة المسكينه ، لا لانيلى من سمه الرجل المشاول ، بل لسباعها اسمه ينطق به فى
حفرة خلفه . كذلك ارتبك الملاء ... وانتهى الأمر بأن صرف الملك راسين زاماً أنه
ذاهب إلى عمله ... ولم يكلم الملك لا مدام دمانتون بمداه راسين حتى ولانظرا إليه » .
وهذا التعليل لسخط الملك على راسين مرفوض الآن عمر ما (٢٥) .

أموت قبلك (٢٧) » وكتب وصية بسيطة كان أهم فقرة فيها هذا الرجاء إلى البور - رويال :

« أود أن تحمل جثتي إلى البور - رويال - دي - شان ، وأن تدفن في مقبرته .. إنني بكل تواضع التمس من الأم للرئيسة والراهبات أن يمنحنني هذا الشرف ، وإن كنت عليماً بأنني لا أستحقه ، سواء لما شاب حياتي الماضية من مخاز ، أو لتقصيري في الاستفادة من ذلك التعليم الممتاز الذي تلقيته من قبل في ذلك الدير ، وما رأيت فيه من مثل رائحة في التقوى والتوبة ... ولكن كلما ازدادت إساءة لي الله ازدادت حاجتي لصلوات هذه الجماعة العظيمة الورع (١٨) » .

ومات في ٢١ إبريل سنة ١٦٩٩ وقد بلغ التاسعة والخمسين . وأجرى الملك معاشاً على أرملته وأبنائه حتى مات آخرهم .

وتضع فرنسا راسين في صف أعظم شعرائها ، لأنه هو وكورني يمثلان أرقى ما وصلت إليه الدراما الكلاسيكية الحديثة من تطور . ولقد تقبل - بناء على حض بوالو - تفسيراً دقيقاً للوحدات الثلاث : فبلغ بذلك تركيزاً لا يبارى للوجدان والقوة من خلال ممل واحد يقع في مكان واحد ويكمل في يوم واحد . وقد تجنب تطفل الحبكة الثانوية - وكل مزج بين المأساة والمهارة ، وأخرج العامة من مأسية ، ولم يتناول عادة غير الأمراء والأميرات والملوك والملكات . وقد اتقى لغته من كل الألفاظ التي قد تعد نابية في الصالونات أو البلاط ، أو تسكون محل استنكار في الأكاديمية الفرنسية . وشكا من أنه لا يجزؤ على أن يورد في تمثلياته عملية مبتذلة كعملية تناول الطعام ، وإن حفل بها شعر هو ميروس (٢٩) ، وكان الهدف هو بلوغ أسلوب يعكس في الأدب حديث الأرستقراطية الفرنسية وطاقتها . وقد حدث هذه القيود من مجال راسين . وكانت كل درامة من دراماته قبل إستير ، على شاكلة سابقاتها - وفي كل منها كانت العواطف واحدة .

على أن راسين شارف الرومانسية في طابع المشاعر التي عبر عنها وفي حدتها ، وذلك رغم الفكرة الكلاسيكية ، فكرة العقل يطنى على الحياة . ويضبط العاطفة والحديث . وبينما نجد العاطفة في كورنبي تؤكد على الشرف ، والوطنية ، والنبالة ، نجدها في راسين تتركز إلى حد كبير حول الحب أو العاطفة المشبوبة ، ونحن نحس فيه تأثير رومانسيات دورفيه ، ومدام دسكوديرى ، ومدام دلافايت . وكان سوفوكليس أكثر من يعجب بهم من المسرحيين قاطبة ، ولكنه يذكرنا أكثر بيوربيديس ، الذي تحول فيه قصد سوفوكليس وجلال عبارته بين الحين والحين إلى أفراط في الحماسة والوجدان . وفي هاملت أو مكبث من القصد في الحديث أكثر مما في أندروماك أو فيدر . وقد أعرب راسين صراحة عن رأيه في أن « أول قاعدة » للدراما « هي أن تسر وأن تمس القلب (٣٠) » وقد فعل هذا بتعامله مع القلب ، واختياره شخوصه الرئيسيين من بين أفراد — كانوا عادة من النساء — مرهفي العاطفة ، وتحويله تمثيلياته إلى سيكولوجية العاطفة .

وقد وافق على الحظر الكلاسيكي للحركة العنيفة على المسرح ، ومن ثم أخذ نفسه بالتعبير عن العاطفة بالكلام فقط . وألقى هذا عبئاً ثقيلاً على أسلوبه ، فأصبحت المسرحية سلسلة من الخطب ، وكان استرساله في الأبيات السكمدرية المتتامة — وهي ذات المقاطع الاثني عشر والقوافي المزدوجة — هذا الاسترسال أشرف بشعره على الرتبة المملة ، فنحن نفتقد في راسين وكورنبي ما يظالعهنا في الشعر الإليزابيثي المرسل من مرونة ، وطبيعية ، وتنوع لا آخر له . وياله من جهد عبقرى ذلك الذي اقتضاه رفع هذا الشكل الضيق من تماثله الممل ، بقوة الأسلوب وجماله ، أن راسين وكورنبي ينبغي ألا يقرأ ، بل يجب أن يسمعا ، وحبذا أن يكون ذلك إيلا في فناء الألقايد أو اللوفر .

والمفاضلة بين راسين وكورنبي هواية قديمة لدى الفرنسيين . أما مدام دسفينيه ، فأنها يعد أن شهدت « بايزيد » وقبل أن تمثل — إيجيني

أو فيدر - انحازت إلى كورنبي بحماسة للألوفة . وقد تنبأت في تور ،
ولكن ربما بحق ، بأن :

« راسين لن يستطيع أبدا أن يتجاوز .. أندروماك ... فتمثلياته مكتوبة
للانسة شانمسلية . . وسوف يتضح حين يكبر ، ويكف عن الحب ، هل
اخطأت الحكم أم أصبت . إذن فليمش صديقنا كورنبي طويلا ، واغتفر له
الآبيات الرديئة التي نصادفها في شعره من أجل تلك الفقرات الإلهية التي
كثيراً ما تنتشى بها » . . .

وهذا على العموم رأى كل ذى ذوق سليم (٣١) . ولكن فولتير الذي
اضطلع بنشر أعمال كورنبي والتعليق عليها ، صدم الأكاديمية الفرنسية بنقده
لأخطاء المسرحى الكبير وفجائحاته ولغته الطنانة . كتب يقول « أعترف
أننى بنشرى كورنبي أصبحت من عباد راسين (٣٢) » وقد أقر الزمن بهذه
الأخطاء ، واغتفرها الرجل لم يحفظ بما حظى به راسين من ميزة الجبى . بمد
كورنبي . فالارتقاء بالدراما الفرنسية من مستواها السابق إلى مكانة « السيد »
« وبوليوكت » كان إنجازاً أشق من بلوغ النشوات المشبوبة والجمال المنغوم
الذى نجده فى « أندروماك » « وفيدر . إن كورنبي وراسين هما
الموضوعان الذكر والأنثى فى شعر القرن العظيم - التعبير القوى عن الشرف
والحب . . . وعلينا أن نأخذهما معاً إن أردنا أن نحس باتساع الدراما
الكلاسيكية الفرنسية وقوتها ، تماماً كما يجب ان نأخذ ميكلائيلو ورفائيل
معاً إن أردنا ان نحكم على النهضة الإيطالية ، او بيتهوفن وموتسارت إن
أردنا ان نفهم الموسيقى الألمانية فى ختام القرن الثامن عشر .

قال ديغدهيوم ، وكان اسكتلنديا حكيماً ، ضليعاً فى لغة الفرنسيين
وآدابهم ، « فى المسرح تفوق الفرنسيون حتى على اليونان ، الذين تفوقوا
كثيراً على الإنجليز (٢٣) » وذلك حكم كان خليقاً بأن يدعش راسين ذاته ،
الذى عبده سوفوكليس باعتباره الكمال مجسماً ، وان جرؤ على منافسة

يوربيديس . وفي هذا نجاح ، وهو ما يستحق عليه الثناء حقاً . فلقد احتفظ بالدراما الحديثة على مستوى لم يبلغه سوى شيكسبير وكورني ، ولم بدن منه إنسان بعد ذلك سوى جوته .

٤ - لافونتين : ١٦٢١ - ١٦٩٥

في ذلك العصر ، عصر الخصومات الأدبية الصارخة ، يطيب للمرء أن يسمع بتلك الصداقة المشهورة ، نصف الأسطورية ، بين بوالو ، ومولير ، وراسين ، ولافونتين - « شلة » الأصدقاء الأربعة .

أما جان دلافونتين فكان العضو المغمور بين الجماعة . ولد كأصحبه لأسرة متوسطة ، ولا غرو فالاستقرارية في شغل بفن الحياة عن الفن . وكان مسقط رأسه شاتو - تييرى فى شمبانيا ، وأبوه المدير المحلى للمياه والغابات ، لذلك شب جزءاً حساساً من الطبيعة المحيطة به ، وعشق الحقول ، والغابات ، والأشجار ، والأنهار ، وكل ساكنيها ، وتعلم طادات العشرات من أنواع الحيوان ، وتكهن فى تعاطف بغاياتها ، وهمومها ، وأفكارها ، فكان كل ما عليه أن يفعله وهو يكتب أن يجرى الكلام على السنة هؤلاء الفلاسفة متعددى الأرجل ، وأصبح « إيزوباً » آخر مذاًباً بقصصه الخرافية فى ذاكرة الملايين .

وكانت نية أبويه أن يعداه للكهانة ، ولكن لم يكن به ميل للخوارق . وحاول ان يمارس القانون ، ولكنه وجد الشعر أيسر فهما . وتزوج فتاة غنية (١٦٤٧) وأنجب منها ولداً . ثم اتفق مع زوجته على الانفصال (١٦٥٨) وذهب الى باريس ، وأبجح فوكيه ، وتلقى من ذلك المختلس اللطيف معاشا قدره ألف جنيه ، شريطة ان يتخفف بأشعاره اربع دفعات فى السنة . فلما سقط فوكيه وجه لافونتين الى الملك التماساً شجاطاً يرجوه فية الصفع عن رجل المال . وكانت النتيجة انه لم يصطل قط بعدها فى شمس الملك . فلما جرد من

معاشه ولم يكن لديه اى فكرة عن كسب قوته ، آوته واطعمته الدوقة
دبويون التي التقيناها من قبل في صفوف الفرونديات ، واصدر وهو مستظل
بجناحها (١٦٦٤) أول كتاب في « حكاياته » وهو مجموعه من الأقاصيص
الشعرية ، مكشوفة على الطريقة البوكاشية ، ولكنها مروية في بساطة ساحرة
مالبت ان جعلت نصف فرنسا ، حتى المذارى الخجولات ، يقرأنها (*) .

وبعد قليل أسكنته مارجریت اللورينية ، دوقة أورليان الارملة ، قصر
الكسمبورج بوصفه وصيفاً لها . وهناك كتب مزيداً من حكاياته ، ومن
هناك دفع الى المطبعة بالكتب الستة الاولى من قصصه الخرافية (١٦٦٨) .
وقد زعم انها صياغة جديدة لخرافات إيزوب اوفيدروس ، وكذلك كان
بعضها ، وبعضها اخذ عن قصص الهند الاسطورية Biipi وبعضها من
خرافات فرنسا ، ولكن اكثرها خلق من جديد في ذلك الغدير الذي
يتدفق في ذهن لافونتین وشعره . وكانت اول قصة خرافية تاخيصاً غير
مقصود لحياته الخلية الطروب :

« بعد أن أنفقت الجراداة الصيف كله غناء ، ألفت نفسها حين أقبل الشتاء
مملكة لاتملك ذبابه ضئيلة ولادودة حقيرة ، فضت تشكو جوعها لجارتها
النملة وتساءلها ان تقرضها شيئاً من الحب تقمات به حتى يقبل الموسم الجديد .
وقالت « سأرد لك ديني قبل الحصاد ، واقسم على ذلك بدين الحيوان
ومصلحته ومبدئه . اما النملة فلم تكن ممن يقرضون ، وهذا اقل عيوبها .
لذلك قالت للسائلة « أو ماذا كنت تفعلين في الصيف ؟ » (٥)

(*) خلد مثلاً قصة « صانح الأذان » . قال سير وليم بذهب لتغناء مصالحة في المدينة
وترك زوجته أليكس حبلى . وينذرهما قريتها أندريه بأنه يستنتج من لون وجهها أن
طفها سيولد ناقصاً أذناً . ويمرض عليها أن يكون جراحاً لها ، ويفهمها أن نوبة غرام
كفيلة بترويد الطفل بالأذن النافصة . وتقبل الوصفة ، وتتناول منها عدة جرعات ، حتى
ليخطر لها أن الطفل سيكون له من الأذان أكثر من اثنتين . فاذا ناد وليم صحیح التوازن
الأحلافى باغوائه ، زوجة أندريه (٣٤) .

« كنت أغنى ايل نهار لكل وافد ، فلايسؤك هذا » . « كنت تغنين : بسمدى
أن أسمع هذا . عليك اذن أن ترقصى الآن » .

كان لافونتين أحكم من ديكارت ، الذى ظن أن كل الحيوانات كائنات
آلية لا تفكر ؛ فقد أحبها الشاعر ، وأحس بتفكيرها ، ووجد فيها كلها دروس
الفلسفة العملية . وافتتنت فرنسا بتلقى الحكمة فى جرعات سهلة الهضم كهذه .
وأصبح كاتب هذه الخرافات اكثر المؤلفين قراء فى بلاده . واتفق النقاد مرة
فى حياتهم مع الشعب ، وأثنوا عليه فيمن أثنوا ؛ ذلك أنه برغم بساطته
الخالصة كان عليما بالفرنسية فى لونها الربى ورأحتها الترايبية ، وقد خلع
على شعره من الرشاقة الطيبة ، وطرق التعبير الحلوة ، والصورة الحية المحككة ،
ما جعل كل البورجوازيين مدعى النبى فى فرنسا يغبطون لأن حيواناتهم ،
بل حشراتهم ، تنطق بالشعر طوال الوقت . قال فونتين « إني استخدم الحيوانات
لتعليم الناس (٣٥) » .

وفى ١٦٧٣ ماتت مرجريت اللورينبية وألنى الشاعر نفسه غارقا فى الديون ،
وهو الذى كان يغنى فى غير تدبير للمستقبل ، ولم يحسن التصرف فى الأجور
المتواضعة التى أتت بها ككتبه . على أنه كان اكثر حظا من جرادته ، لأن
مدام دلاسا بليير ، المرأة المثقفة المعطوف ، آوته وأطعمته ورعته بحمدب الأم
الرموم فى بيتها بشارع سانت - أوثرية ، وهناك طاش فى قناعة هادئة الى أن
ماتت فى ١٦٩٣ . يقول إن وقته كان قسمة بين شطرين : اولهما ينام فيه ،
والاخر لا يعمل فيه شيئا . ووصفه لايروبير بأنه رجل يستطيع أن ينطق
الحيوان والشجر والحجر بكلام رشيق أنيق ، ولكنه (٣٦) هو نفسه كان
« متبلدا ، ثقيلا » ، غيبيا فى الحديث (٣٧) . على أن هناك روايات مناقضة زعمت
أن فى وسعه أن يسكون محدثا مرحا إذا وجد آذانا تلتأم مزاجه (٣٨) .
وقد أذاعت شرودذه عشرات النوادر ، الأسطورية الى حد كبير . من
ذلك أنه قال مرة ممتذرا عن وصوله الى العشاء متأخرا « عدت لتوى من جنازة

نعمه ، وقد سرت وراء الموكب حتى المقبرة ، ثم رافقت الأسرة في رجوعها
للبيت . (٣٩) »

وقد قام لويس الرابع عشر بانتخابه عضوا في الأكاديمية بحجة أن حياة
الشاعر وحكاياته لم تكن بالمثل الذي يحتذى ، ثم لانت فئاته في النهاية (١٦٨٤) ،
وقال ان لافونتين وعد بأن يصلح من سلوكه . ولكن الشاعر الهرم لم يعرف
فرقا بين الفضيلة والخطيئة ، انما عرف الفرق بين الطبيعي وغير الطبيعي ، فقد
تعلم أخلاقياته في الغابات . وكان كموليير لا يشعر بأى انجذاب للبور —
رويال ، هؤلاء « المجادلون البارعون » كما وصفهم ، الذين « تبدو لي
دروسهم باعثة على النعم بعض الشيء » (٤٠) ، وانضم حيناً إلى « شلة » أحرار
الفكر في « التامبل » ، ولكن حين أصيب بنقطة كادت توقعه على
الطريق ، لاح له أن قد آن الأوان ليصلح ما بينه وبين الكنيسة ، ومع
ذلك فقد تسامح « أكان القديس أوغسطين حكيما حكمة رابليه (٤١) ؟ »
ومات في ١٦٩٥ وقد بلغ الرابعة والسبعين . وكانت مرضته على ثقة من
خلاصه الأبدي ، لأنه على حد قولها « كان فيه من البساطة ما يجعل الله
يتردد في الحكم عليه بالهلاك » (٤٢) .

٥ ... بو الو : ١٦٣٦ - ١٧١١

في اللقاءات التي جمعت الأصدقاء الأربعة في شارع فيرو كولومبييه كان
نيقولاً بوالو المسيطر عادة على الحديث ، وهو الذي وضع قواعد الأدب
والأخلاق بكل سلطان الدكتور جونسون وثقته في حانة « رأس التركي »
بجي سوهو . وكان كجونسون محدثاً أهم منه مؤلفاً ؛ وخير أعماله شعر
وسط ، ولكن أحكامه كان لها في ميدان الأدب أثر أبقي بما كان لأحكام
لويس الرابع عشر في السياسة . وقد أعانت صداقته وتقريره الناقد لموليير
وراسين على التغلب على مكائد الجماعات المعادية لهما .

كان الطفل الرابع عشر لكاتب في برلمان باريس . وإذ كان منذور
للكهانة فقد درس اللاهوت في السوربون . ولكنه تمرد ، ودرس القانون
وكان على وشك الاشتغال بالمحاماة حين مات أبوه (١٦٥٧) ، خلفا
ميراثا يكفيه وهو يقرض الشعر . وأنفق عشر سنين يشحذ قلمه ، ثم راح
يصدر أحكامه على زملائه في اثنتي عشرة اهجية (١٦٦٦ وما بعدها) . ذلك
أن هذا الحشد الرهيب من النظامين الجياع (٤٣) روعه ، فهاجمه كأنه جيش من
الجراد ، وسمى بعضهم بأسمائهم ، خلق له أعداء بقوافيه . وجر على رأسه
أيضا سخط النساء بسخريته من القصص الرومانسية التي كانت السيدتان
سكوديري ولافايت تضيغان بها ورق فرنسا ووقتها . وقد امتدح القدامى ،
وامتدح من بين المحدثين ماليرب وراكان ، ومولير وراسين . قال « أحسبه
من حقنا ان نسمى الشعر الرديء رديثادون أن تؤذى الضمير أو الدولة ، وأن
يكون لنا مطلق الحق ان نستشعر الضجر من قراءة كتاب غبي (٤٤) » . على
أن هذه الالهاجية تضجرناهي الأخرى لأن هدقها قدتحقق : فالشعراء الذين
أدانتهم هدموا هدمال لم يبق على أثرلهم في ذا كرتنا أو في اهتمامنا ؛ يضاف
الى هذا أن أصحاب العقول الغضة منا ، لاسيما اذا كنا مؤلفين ، يؤثرون
النقاد الذين يرشدوننا الى الطيب على أولئك الذين يسخرون من الخبيث .
وبعد أن ذهب بوالور في اهاجيه مذهب جوفينال الصارم ، خفف من
غلوانه بالتزام مذهب هوراس الأكثر اعتدالا ، ووصل الى أسلوب ألين
في سلسلة من الرسائل (١٦٦٩ - ٩٥) . وهذه الرسائل الشعرية هي التي
أغرقت لويس بدعوته الى البلاط . وسأله الملك ما أفضل شعره في ظنه .
أما بوالوالذي كان يترب فرصته الكبرى فلم يقرأ شيئا من شعره المنشور ،
ولكنه تلا بعض شعره في مدح الملك العظيم ، وكان أبياتا لم تطبع بعد قال
عنها إنها أقل شعره رداة . وأجازه لويس بمعاش قدره ألسان من
الجنهات (٤٥) ، وأصبح شخصا « مرضيا عنه » في البلاط . قال لويس
« أحب بوالوالأنه سوط تأديب ضرورى نصلته على ذوق كتاب الدرجة
١٥ — قصة المضارة

الثانية السقيم (٤٦) . وكما أن لويس ساند مولير في حملته على المتعصبين ، كذلك لم يفه بأى احتجاج حين نشر بوالو ملحمة ساخرة سماها « لوتران » (١٦٧٤) ، هزأ فيها برجال الكنيسة الغافلين التهمين . وفي ١٦٧٧ عين الشاعر الهجاء مؤرخا رسميا مسع راسين ، وفي ١٦٨٤ قبل نهائيا في الأكاديمية بأمر صريح من الملك ، ورغم احتجاجات أولئك الذين سلخ جلودهم .

أما القصيدة التي طفت به فوق دوامات الزمن فهي « فن الشعر » (١٦٧٤) التي ضارعت في تأثيرها النموذج الذي نسجت على منواله ، وهو كتاب هوراس *Art poetica* ، ويستهل بوالو قصيدته بتنبئيه شباب الشعراء الى أن « بارناس » جبل وعر ، فليستوثقوا اذن قبل أن يشرعوا في ارتفاع جبل ربات الشعر والفن أن لديهم شيئا يستحق أن يقال ، شيئا يعزز الحقيقة ويعين على الادراك والذوق السليمين . وهو يقول لهم ناصحا : نوع واحد يشكم ، فان أسلوبا بالغ التكافؤ شديد التماثيل (كأسلوب بوالو) يحملنا على النوم ، و « حبذا الشاعر الذي ينتقل ، بلمسة رقيقة ، من الخطير الى الخفيف ، ومن السار الى العنيف (٤٧) » . « وأرهفوا آذانكم لايقاع ألفاظكم . واتبعوا قواعد ما يرب في اللغة والأسلوب . وادرسوا القدامى لا المحدثين : هومر وفرجل في شعر الملاحم ، وسوفوكليس في المساة ، وتيرانس في الملهاة ، وهوراس في الهجاء ، وتيوقريطس في شعر الرعاة » . « اسرعوا في بطة ، وضعوا انتاجكم على السندان عشرين مرة دون أن يفت ذلك في عضدكم . . . وأضيفوا اليه قليلا ، واخذفوا منه (٤٨) كثيرا . أحبوا من ينتقدونكم ، وصححوا أخطائكم دون تدمير وأنتم تنحنون لحكم العقل (٤٩) » . واعملوا للمجد ، ولا تجعلوا السكسب الخسيس هدفا لجهدكم (٥٠) . فاذا كتبتم درامات فراعوا الوحدات ، واجعلوا الفعل الواحد ، المكتمل في مكان واحد ويوم واحد ، يبق المشرح ممتلئا بجمهوره الى النهاية (٥١) . ادرسوا البلاط وتعرفوا على المدينة ،

فكلاهما غنى بالنماذج ، ولعل هذا هو السر في الفوز الذي حققه مولير
لفنه (٥٢) .

وانضم بوالو الى مولير في السخرية من « المتحذلقات » واحتقر شعر
الحب المتكلف الذي أضعف الشعر الفرنسي وقابل بين هذه العاطفية الكاذبة
وبين تمجيد ديكارت للعقل وغرس الاداب القديمة لضبط المشاعر . وصاغ
مبادئ « الأسلوب الكلاسيكي ، وأجملها في بيتين شهيرين « أحبوا العقل اذن ،
ولتقبس كتاباتكم منه بهاءها وقيمتها (٥٣) » فلازيف في العاطفة ،
ولا انفعال ، ولا كلام طنان ، لا تحذلق ، لا تكلف ، ولا غموض التباهي
والغرور . فالمثل الأعلى في الأدب ، كما في الحياة ، هو ضبط رواقى للنفس ،
و « لا تزيد أو افراط » .

وقد أحب بوالو مولير ، ولكنه أسف على هبوطه الى درك المسلاة
« الفارص » . وأحب راسين ، ولكن يبدو أنه لم يقطن الى تمجيده
الرومانسى للوجدان ، ولم يلحظ بطلاته المتفجرات بالانفعالات - هرميون ،
وبرنيس ، وفيدر . والمقاتل لاند مبالغ في نصيبه من الحقيقة . ولقد
كان في بوالو من قوة المعارب ما أعجزه عن فهم ما قاله بسكال من أن للقلب
دواعيه التي لا يفهمها الدماغ ، وأن الأدب بغير وجدان قد يكون له ملاسة
الرخام وبرودته . لقد سمح هوراس بالوجدان فقال « إن أردتني أن أبكي »
أي أن أحس بما تكتب ، « فعليك أن تبكي أنت أولا » أي عليك أن
تحس أنت بالأمر . ان فن العصور الوسطى وأدبها ظلا محجوبين
عن عين بوالو .

وكان اثر تعليمه هائلا . فقد حاول الشعر والنثر الفرنسيان التزام
قواعده الكلاسيكية طوال قرون ثلاثة . وشاركت هذه القواعد في تشكيل
أسلوب الأدب الانجليزي في « العصر الأغسطى » الذي قلد شاعره بوب
في صراحة « فن الشعر » في كتابه « مقال في النقد » . وكان تأثير
بوالوضارا ونافعا . فهو باستنكاره الخيال والوجدان ، وضع صامتا

على الشعرى فرنسا بعد راسين ، وفي المجلثة بعد درايدن . واتخذ الشعرى أفضل نماذجه شكل النحت بالازميل ، ولكنه فقد ذفا التصوير ولونه . ومع ذلك كان من الخير أن يدخل هدف العقل الى ساحة الأدب المحض ، فقد كتب الكثير جدا من اللغو عن الحب والرعاة ، واحتاجت أوروبا الى احتقار بوالو الغاضب حتى تظهر ذلك الجو الأدبى ، جو السخف والتكلف والعاطفة السطحية . وربما كان الفضل لبوالو فى ارتفاع موليير من « الفارص » الى الفلسفة ، وفى محاولة راسين البلوغ بفعنه الى مرتبة السكال .

وكان مما يتلادم وطبيعة بوالو تماما مسلكه بعد أن اشترى بيتا وحديقة فى أتوى بفضل نفحة من نفحات الملك (١٦٨٧) ، فهو لم يذكر شيئا فى كتاباته عن الطبيعة المحيطة به اللهم الا أنه من تلك الحقول اتخذ الآن اسم « دسبريو » . هناك عاش أكثر ما بهقى له من أجل فى هدوء بسيط ، لا يزور البلاط إطلاقا ، ويرحب ترحيبا حارا بأصدقائه . وقد لاحظ الناس ان « له أصدقاء كثيرين رغم أنه تكلم بسوء عن كل انسان (٥٤) » . وكان فيه من الشجاعة ما جعله على الإعراب عن عطفه على البور رويال ، وعلى أن يخبر يسوعيا بأن رسائل بسكال الاقليمية احدى روائع النشر الفراسى . وقد صر بعد موت جميع أفراد الجماعة التى كان منظرها المرموق : فولبير لقى ربه منذ أمد بعيد ، ثم لحق به لافونتين فى ١٦٩٣ ، ثم راسين فى ١٦٩٩ ، وتحدث الهجاء المعجوز العليل بتأثر عن « الأعراء الذين فقدناهم ، والذين اختفوا كأنهم حلم انسان استيقظ من نومه (٥٥) » . وحين دنت منيته غادر أتوى وذهب ليموت (١٧١١) فى مسكن كاهن اعترافه بصومعة النوتردام ، مؤملا ألا يجرو الشيطان على أن يمسه بسوء هناك .

٦ - الاحتجاج الرومانسى

لم تقبل سيدات المجتمع على القواعد الكلاسيكية - قواعد العقل ، والاعتدال ، وضبط النفس - إقبال كورنبي المعجوز وراسين الشاب . ذلك أن طامهن كان عالم الوجدان والرومانس ، وقد حفزت « زيجات المصلحة » التى كن يعقدنها أو هام الغرام أكثر مما صدتها . ومن ثم نرى الرواية الرومانسية تنمو - جنباً إلى جنب مع الدراما الكلاسيكية - حتى تتضخم حجماً وتلقى استحساناً واسماً وتؤثر تأثيراً دولياً . ولم تكن سيدات المجتمع فى فرنسا ليشبعن من مثل هذه الروايات ، ولا كن يجدنها مفرطة فى الطول ، وآية ذلك أنه حين توقف « جوتيه دلا كالبرونيد » عن المضى فى روايته « كليوپطرة » بعد أن كتب فيها عشرة أجزاء (١٦٥٦) ، رفضت خطيبته أن تزوجه إلا إذا ختمها بجزأين آخرين (٥٦) .

وقد استقرت الآنسة مادلين دسكودبرى قلوب نصف فرنسا بروايتها « آرتامين أو كورش الكبير » (١٦٤٩ - ٥٣) ، و « كليلى » (١٦٥٤ - ٦٠) وكلاهما فى عشرة مجلدات . وأشبع غرور المجتمع الفرنسى أن يجد الشخصوخ فى هذا الإنتاج الرومانسى الغزير ، تحت أسماء مستعارة ، تصف أعلام العصر وأقطابه المشهورين وتميط اللثام عنهم . وما لبثت سيدات الصالونات وسادته أن أطلقوا على أنفسهم أسماء من هذه الروايات ، وتعلموا فنون التنهد والإنكار شأن أبطالهم وبطلاتهم ، وأصبحت الآنسة دسكودبرى نفسها تسمى « سافو » ، وكذلك كانت تنادى فى الصالونات إلى نهاية صمرها الذى بلغ أربعة وتسعين عاماً . وقد كتبت لتسرأخاها جورج ، ونشرت كتبها تحت اسمه ، وآثرت أن تراه على أن تزوج . وظل سلطانها على النساء المثقفات والرجال للمطرين إلى أن غيرت مسرحيتها موليير « المتحذلقات للضحكات » و « النساء العالمات » من انجاء الأفواق الأدبية ، وهنا حبست مادلين فى هجاعة آخر مجلد من مجلداتها التسعين عن النشر . والذين يشكون

القراغ قد يجدون إلى اليوم في صفحات « كورش الكبير » الخمس عشرة: ألف ، أو صفحات « كليلى » ، العشرة الآف ، فقرات تتميز بركة العاطفة ، أو تنفرد بتحليل الخلق . كذلك تستحق لا سكوديرى أن تذكرها لما قامت به من جهد فى سبيل النهوض بتعليم النساء فى فرنسا .

وأما « ماري مادلين بيوش دلافيرن » ، التى أصبح اسمها بعد الزواج الكونتيسة لافاييت ، فهى شخصية أكثر فتنة ، لأنها لم تكتب قصة رومانسية شهيرة فحسب ، بل عاشت أيضاً قصة أشهر . وقد أتيح لها تعليم مكتمل على غير العادة ، ثم ذهبت لتعيش فى أوفرن بعد زواجها (١٦٥٥) . ولكنها حين وجدت الحياة هناك عملة اتفقت مع زوجها على الانفصال (١٦٥٩) ، وذهبت إلى باريس ، وانضمت إلى الجماعة التى تلتقى فى قصر رامبويه . ثم أصبحت وصيفة الشرف لمدام هنرييتا ، وخلقتها بعد حين فى مذكرات تفيض محبة . وكانت قريبة وصديقة لمدام دسفينييه التى كتبت تقول فيها بعد عشرة أربعين عاماً « لم تحجب مدام صداقتنا أقل سحابة ، ولا أبلى طول الألفة من فضائلها فى نظرى ، فقد كان شذاها على الدوام نضراً جديداً (٥٧) » . وتلك نحية للطرفين قل أن تجد لها نظيراً ، لأن الصداقات تبلى كالحب الرومانسى . وسنلتقى بمزيج نادر من الحب والصداقة فى علاقات مدام دلافاييت بلأروشفوكو .

وقد وقمت على الجديده الثورى حين قررت أن تبارز بقلمها الأنسة دسكوديرى . ذلك أنها كتبت رواية فى مجلد واحد لا يزيد طولها على مائتى صفحة . واعتنقت مبدأ مؤداه أنه إذا تساوت كل الاعتبارات الأخرى فإن خير الكتب ما حذف أكثر ما فى نصه الأسمى ، فكل جملة تحذف تضيف جنيهاً ذهبياً لقيمة الكتاب ، وكل كلمة تحذف تضيف عشرين فلساً . وبعد أن نشرت أعمالاً صغيرة ألفت (١٦٧٢) ونشرت (١٦٧٨) رائعتها للسما « أميرة كليف » . وحبكة الرواية (إن شئنا أن نخلط بين الاستعارات) هى .

مثلث ذو مماس . فالآنسة شارتر فتاة بارعة الجمال ولكن في تواضع يجعل من أمير كليف عبداً لها لأول نظرة . وتنزوجه عملاً بنصيحة أمها ، ولكنها لا تشمر نحوه شعوراً أحر من الاحترام . وما يلبث دوق نيمور أن يراها فيهمم بها لتوه ، وتصده هي في إحساس بالفضيلة ، ولسكن الحاحه المحموم يس قلبها ، وشيئاً فشيئاً تتحول الشفقة فيها حباً . وتعترف بهذا التطور لزوجها ، وتتوسل إليه أن يبعدها عن القصر وعن التجربة ، ولكنه لا يستطيع أن يصدق أنها وفية له ، فيخترمه الهم حتى يقتله ، وكأن قرنيه الوهميين خرقتا حلقة . أما الأميرة فتصعد الدوق وضميرها يبكتها على موت الأمير ، وتكرس ما بقي لها من عمر لأعمال البر . وقد علق « بيل » الشكاك على القصة بقوله : لو أن امرأة بهذا الطهر والوفاء وجدت في فرنسا لمشى ألفاً ومائتي ميل ليراها (٥٨) .

ونشر الكتاب غفلاً من اسم المؤلفة ، ولكن سرعان ما استقر رأى الأوساط الأدبية على أنه إحدى نمرات علاقة حميمه مشهورة آنذاك . قالت الآنسة سكوديرى : (لقد كتب مسيو دلا روشفوكو ومدام دلافاييت رواية ٥٥٥٠ قيل لي أنها كتبت على نحو يثير الإعجاب (٥٩) ، ولكنها أضافت « أنهما لم يعودا في سن تسمح لهما بالاشتراك معاً في أى عمل غير هذا (٦٠) . ولكن كلا المؤلفين المزعومين أنكر تأليف الزوايه . وكتبت لاسكوديرى تقول « إن الأميرة كليف أرملة مسكينة تبرا منها أبوها وأمها » . أيا كان الأمر ، فقد أجمع الكل على أنها أروع رواية كتبت في فرنسا إلى ذلك الحين . واعترف فونتنيل بأنه قرأها أربع مرات ، وكان رأى يوالو ، عدو الرومانس ، في مدام دلافاييت انها « ابدع عقل وافضل كاتبة بين نساء فرنسا » . ويقر التاريخ لأميرة كليف بأنها من اول الزوايات السيكولوجية وما زالت من أفضلها . وهى الرواية الفرنسية الوحيدة من روايات ذلك العصر التى ما زال فى الإمكان قراءتها دون ما ألم .

٧ - مدام دسفينييه

١٦٢٦ - ٩٦

ولكن بقي من آثار ذلك العصر عشرة مجلدات — من تأليف امرأة أيضا — في الامكان قراءتها في بهجة مستسلمة حتى في نبض زماننا السريع . والمؤلفة ، وهي ماري درابوتان — شانتال ، فقدت أباها في طفولتها وورثت ثروتهما الكبيرة . وقد شارك في تعليمها نفر من خيرة العقول في فرنسا ، ونشأتها خيرة الأسر في فرنسا على فنون الحياة . فلما بلغت الثامنة عشرة تزوجت هنري ، مركيز دسفينييه ، ولكن هذا الزير كان يجب مالها اكثر من شخصها ، وبدد بعضه على خليلاته ، وبارز خصما بسبب إحداهن ، وقتل في المبارزة (١٦٥٩) . وحاولت ماري أن تنساه ، ولكنها لم تتزوج بعده ، بل فرغت لثريته ابنتها وابنتها . ولعلها كما ألمح ابن عمها الحقود بوسى — رابوتان كانت ذات مزاج بارد ، (٦١) أو لعلها تعلمت أن الجنس يستنزف الذات أما الامومة فتحققها . وخطاباتها تفيض سعادة ، كلها تقريبا سعادة الامومة . ولقد أحببت المجتمع بقدر ما تشككت في الزواج . وكان لها ، وهي الارملة الشابة التي تملك ثروة بلغت ٣٥٠٠٠٠ جنيه (٦٢) ، خطاب كثيرون من النبلاء — تورين ، وروهان ، وبوسى . . . ولم تره في اطردم جيما الا واحدا ، ومع ذلك لم تلوث سمعتها كلمة فضيحة أو علاقة محرمة واحدة . وكان اصداقها يحبونها باخلاص أكثر صدقا — ومنهم دريتز ، ولا روشفوكو ، ومدام دلاطيت ، وفوكيه . أما الأول والثاني فقد أقصيا عن القصر لا اشترا كهما في حرب الفروند ، واما الأخير فلثروته التي لم يستطع تعليمها ، ولم تلق مدام دسفينييه ، الوفية وطاء حارا للاربعة على السواء ، ترحيبا في الرحاب الملكية المقدسة وإن نالت كلمات متفضلة من الملك في حفلة مثلت فيها مسرحية إستير بسان — سير . اما في خارج البلاط فكانت دوائر كثيرة

تبتهج بصحبتها ، لأنها كانت تملك كل صفات المرأة المنقفة ، كانت تتكلم بنفس الحيوية التي تكتب بها ، وذلك اطراء يناقض اطراء ألفناه أكثر منه ، فطالما يسدى إلينا النصيح ، ربما في غير تبصر ، بأن نكتب كما نتكلم . وقد بقي من رسائلها أكثر من الف وخمسمائة ، وجلها موجه لابنتها ، فرنسواز مارجریت . التي تزوجت الكونت دجرينيان (١٦٦٩) ، وسرعان مارحلت الى بروفانس لتميش معه ، وكان نائباً لحاكمها . فظلت الأم من ١٦٧١ الى ١٦٩٠ تبث بخطاب مع كل بريد تقريباً — وأحياناً مرتين في اليوم — الى هذه الزوجة الشابة التي فصلتها عنها ارض فرنسا كلها طولا . كتبت تقول لها « ان مراسلتى لك هي عافيتى ، ولذة حياتى الوحيدة ، وكل اعتبار آخر يتضائل بالقياس الى هذا (٦٣) » . ذلك أن الحب الذى لم يجد رجلاً يشبعه أصبح غراماً مشهوراً بابنة أحست أنها غير جديرة به ، لأن فرنسواز كانت ذات خلق أكثر تحفظاً ، ولم تعرف كيف تعرب عن مشاعرها بجملة . ثم كان لها زوج وأطفال يتطلبون العناية بهم ، وكانت أحياناً تصبح ضيقة الخلق أو مكتئبة المزاج ، ومع ذلك ظلت طوال خمس وعشرين سنة ، إلا في فترات مرضها ، تكتب لأمها مرتين في الأسبوع ، لا يفوتها بريد الانادرا ، حتى لقد أطلق لأم المتيحة بها ان تكون قد جارت على وقت ابنتها .

وأبلغ ما في هذه الرسائل تأثيراً في النفس ما روى حياة طفلة مدام جرينيان البكر ونهاية هذه الحياة في الدير . ذلك أنها قدمت باريس لتلد في كنف أمها . وما لبثت أن أرسلت الى زوجها اعتذاراً لأنها ولدت بنتاً — لا بد من تربيتها بجهد أليم ، ومهرها بمهر غال ، ثم فقدها ؛ ولما طادت فرنسواز الى بروفانس تركت ماري بلاش الصغيرة حينما مع جدتها التي افتتنت بها . وكتبت مدام دسغنييه للأب تقول « ان كنت تريد ولداً طاصكف على صنعه (٦٤) » كتبت للوالدين اللذين لم يقدر اطفالتهما تفاصيل نشوانة عن العجوبة التي أنجبهاها كارهين :

« ان ابنتكما الصغيرة تغدو محبة للنفس . . . بيضاء كالثلج ، ضاحكة على الدوام . . . ولون بشرتها ، وعنقها ، وجسدها الصغير - كلها عجيب . وهي تقوم بعشرات الحركات الصغيرة - تثرثر ، وتلاطف ، وتضرب ، وترسم علامة الصليب ، وتطلب العفو ، وتنحنى ، وتقبل يدها ، وتمز كتفها ، وترقص ، وتتملق ، وتشد الأذن . . . وأنا ألوم معها ساعات بطولها (٦٥) » .

وقد ذرفت الجدة دموا كثيرة لتدع هذه العجيبة الريانة البدن تذهب الى بروفانس ، ودموما أكثر حين أودعها الأبوان ديرا وهي لم تتجاوز الخامسة . ولم تمد الطفلة بملها ، ففي الخامسة عشرة قطعت على نفسها عهد الرهبنة واختفت من العالم .

وكان نائب الحاكم رجلا متلافا ، يولم الولايم فوق ما يسمح به مركزه . وكانت زوجته تنبئ أمها بانتظام بما تتوقعه من قرب إفلاسها ، أما الأم فكانت توبخهما في محبة وترسل لهما المبالغ الكبيرة من المال « كيف ، بحق محبة الله والناس ، يستطيع انسان أن يحتفظ بهذا القدر الكبير من الذهب والفضة والحلى والآثاث وسط الفقر المدقع الذي ابتلى به من يحيط بنا من القراء في هذه الأيام (٦٦) » . ورغبة في الاحتفاظ بقدرتها المالية بعد هذه الاستقطاعات ، كانت مدام دسفينيه تمنى بتفقد أملاكها في لى روشيه بإقليم بريتي لتستوثق من أنها تلتقى الرماية الواجبة ، ومن أن ريعها يصلها بعد اختلاسات معقولة . ووجدت سعادة جديدة في الحقول ، والغابات ، وفلاحي بريتي ، وكتبت عنهم بنفس الحيوية التي كتبت بها عن المجتمع الباريسي الذي كانت له أشبه برسالة نصف أسبوعية لابنتها .

وكان ابنها مشكلة من نوع آخر . فهي شديدة التعلق به لأنه فتى طيب ، يملك كما قالت « معيننا من الذكاء وروح الفكاهة . . . وقد ألف أن يقرأ علينا فصولا من رابلييه بكاديموت السامع من الضحك عليها » (٦٧) . وكان شارل ابنا مثاليا ، الا اذا استثنينا ترصمه خطى أبيه في التنقل من اغراء إلى اغراء ، الى أن - ولكن لندع مدام دسفينيه ، وهي تكتب

لا بنتها ، تتحمل تبعة باقى القصة ، فلا شىء أ كثر ايضاحا للطابع العصر :
« بقيت كلمة أو كلمتان عن شقيقك . . . فبالأمس أراد أن يقص على
نبأ حادث مروع وقع له . ذلك أنه صادف لحظة سعيدة ، ولكن حين
وصل إلى بيت القصيد — كان شيئاً عجيباً ! فإن الفتاة المسكينة لم يرفه عنها
أحد فى حياتها قط بمثل هذا أما الفارس فقد تقهقر بعد أن هزم شرهزيمة ،
وظن أن سحرا التى عليه ، وألطف ما فى القصة أنه لم يشعر بالراحة إلا بعد
أن انبأنى بكارثته . وضحكنا عليه حتى استلقينا ، وقلت له اننى مغتبطة
جداً لأنه عوقب حيث أنم لقد كان منظرا يستحق أن يسجله
موليير (٦٨) » .

وأصيب الفتى بالزهري ، فعنفته ؛ ولكنها مرضته فى حب . وحاولت
أن تبت فيه شيئاً من الدين ، ولكنها نصيبتها من الدين كان من الضلالة
بمحيط لم تستطع أن تعطيه الكثير منه . وقد تأثرت بمواعظ بوردالو ،
وخبرت دفتات فجائية من التقوى ، ولكنها كانت تبتسم حين ترى المواقب
الدينية التى أهدت أهل المساكن الفقيرة . وقرأت آرنو ، ونيكول ، وبسكال ،
وتعاطفت مع البور — رويال ، ولكنها صدها تركيزهم على تجنب الهلاك
الأبدى ، ذلك أنها لم تستطع أن تقنع نفسها بالإيمان بالجحيم (٦٠) . وكانت
على العموم تجفل من التفكير الجاد ، فمثل هذه الأمور ليست للنساء ، ومن
شأنها أن تمكر جمال الحياة الوداعة . ومع ذلك كانت ذواقة فى قراءتها —
تقرأ فيرجل وناسيتوس والقديس أوغسطين باللاتينية ، ومونتيني بالفرنسية ،
وتعرف مسرحيات كورنبي وراسين معرفة وثيقة . أما فكاهتها فكانت
أعمق وأبهج من فكاهة موليير . فلنستمع إليها تتحدث عن صديق مدمن
للتأمل الشارد :

« انقلب برانكا قبل أيام فى مصرف وجد نفسه فيه مرتاحا جداً حتى
لقد سأل من سارحوا ليخرجوه منه أبهم حاجة إلى خدماته . وقد كبرت
نظارته ، ولولا أن حظه كان خيراً من حكمته لكسر رأسه أيضاً ، ولكن
هذا كله لم يقطع تأملاته قط . وقد أرسلت له كلمة هذا الصباح أبتئه

فيها أنه انقلب وكاد عنقه يدق ، لأنه اعتقدت أنه للشخص الوحيد الذي لم يسمع بالحادث في باريس (٧٠) .

وهذه الرسائل في مجموعها تؤلف صورة من أكثر الصور كسفا في الأدب ، لأن المركيزة تسجل فيها أخطاءها وفضائلها دون تحفظ . فهي الأم المحبة ، التي تجرد نفسها على سجيتها سواء في صالونات العاصمة أوفى حقول بريتي ، وهي تكتب لابنتها عن أنفه أحاديث الاستقرابية وقيلها وقالها ، ولكنها تقول أيضا « إن الليل ، والوقواق ، والهمزار — كلها بدأت تصدح في ربيع الغابات » ، وتندر أن تفوه بكلمة سوء عن مئات الأشخاص الذين يرفون خلال صفحاتها الألفين ، وهي على الدوام مستعدة لمديد المعونة للمسكروين ، بجملته حديثها بالرفيق من التحية والمجاملة ، مذنبه بين الحين والحين بالمرح القاسي (كضحكها على شنق بعض المتمردين المساكين في برتني) ، ولكنها مرهفة الاحساس بالأم الفقراء ، وهي تغضى عن فساد زمانها وطبقتها ، ولكنها بلا لوم في سيرتها الشخصية ، إنها روح تفيض بالنية الطيبة وحب الحياة ، فيها من التواضع ما يمنعها من نشر كتاب ، ولكنها تكتب أفضل فرنسية في عصر أفضل فرنسية كتبت على الإطلاق .

ترى هل خطر ببالها أن رسائلها قد تنشر يوما ما ؟ كانت أحيانا تسترسل في نحلقات من البلاغة كأنها تشم مداد المطابع ، غير أن رسائلها حافلة بتفاصيل العمل ، وبالمصارحات العاطفية ، والمسكاشفات المخرجة التي لا يمكن أن تكون قصدت إذاعتها على القراء . كانت تعلم أن ابنتها تطلع أصدقاءها على رسائلها ، ولكن مثل هذه المشاركة كانت كثيرة في تلك الأيام ، حين كادت المراسلة أن تكون وسيلة الاتصال الوحيدة بين المسافات الطويلة ، وقد ورثت وحفظت الرسائل حفيدتها بولين ، التي منعتها من أن تدخل ديرا كما فعلت شقيقتها بلاش ماري ، ولكنها لم تنشر إلا عام ١٧٢٦ ، بعد موت المركيزة بثلاثين عاما . وهي اليوم من أغلى هيون الأدب الفرنسي ، وكانها باقة زهر غنية بزاد عبيرها انتشارا على الأيام .

وازداد تفسكيرها في الدين كلما دنت نهايتها ، وقد اعترفت بخوفها من الموت والحساب . وبين ضباب بريتنى ومطر باريس أصابها الروماتزم ، ففقدت فرحتها بالحياة ، وأدركت أنها بشر فان .

« لقد ولجت الحياة دون رضاي ، ويجب أن أخرج منها ؛ هذه الفكرة تطغى على ٠٠ وكيف أخرج ؟ ٠٠٠ ومتى ؟ ٠٠ اننى أدفن نفسي في هذه الأفسار ، وأجد الموت شديد الرهبة حتى لا بغض الحياة لأنها تفضى بى إلى الموت أكثر من بغضى لها لما يملؤها من أشواك . يستقولين اننى أريد أن أحيأ إلى الابد . ليس الأمر كذلك مطلقا ، ولكن لو أخذ رأيي لآثرت أن أموت بين ذراعى مربيتى ، فقد كان هذا خليقا بأن يوفر على اضطرابات الروح ويسكنل لى الجنة فى كل يقين ويسر (٧١) . »

وليس صحيحا أنها ابغضت الحياة لأنها تفضى إلى الموت ، إنما هى أبغضت الموت لأنها استتمعت بالحياة استمتاعا شديداً قرابة سبعين عاما . وإذا كانت أمنيتها أن تموت فى بيت ابنتها الحبيبة ، فإنها عبرت فرنسا خلال أربعمائة ميل فى رحلة عذاب إلى شاتو جرنيان . فلما أقبل الموت لقيته بشجاعة أدهشتها ، ووجدت العزاء فى تناول الاسرار المقدسة ، وعلات نفسها بالخلود . ولقد وهب لها الخلود حقا .

٨ - لا روشفو كو : ١٦١٣ - ٨٠٠٠

شتان ما بين هذا الروح ، وروح أشهر الكلميين المحدثين ، وأقصى من مزق القناع عن نقائضنا ، ذلك العليل المكتئب الذى شوه سمعة النساء وافترى على الحب ، والذى أحبته ثلاث نساء حتى الموت .

كان السبيل السادس المسمى فرانسوا دلاروشفو كو ، سليل أسلاف كثيرين من الأمراء والكونتات ، والابن البكر للرئيس الأكبر لإدارة الملابس والحلى للملكة والوصية مارى دمديتشى .

وكان اسمه الأمير مارسياك إلى أن ورث لقب الدوقية عند وفاة أبيه (١٦٥٠). وقد تلقى التعليم في اللاتينية والرياضيات والموسيقى والرقص والمبارزة والأنساب والانيكيت. فلما ناهز الرابعة عشرة تزوج بتدبير أبيه من أندريه دفيفون، الابنة الوجيهة والوريفة لبازبار فرانسوا الكبير المتوفى. وحين بلغ الخامسة عشرة أمر على فوج من الفرسان، وفي السادسة عشرة اشترى رتبة السكولونيل. وكان يختلف إلى صالون مدام درامبويه الذى هذب عاداته وصقل أسلوبه. ومع كل مثالية الشباب وإيثاره للنساء الناضجات نراه يعشق الملكة، ومدام دشفروز، والآنسة دهورتفور. وحين تأمرت أن المساوية على ريشليو استخدمت فرانسوا، ثم كشف أمره، وأودع الباستيل أسبوعاً (١٦٣٦). فلما أفرج عنه سريعا نفي إلى ضيعة أسرته بفيرتوى. وراض نفسه حيناً على العيش مع زوجته، ولأعب ولديه الصغيرين فرانسوا وشارل، وتعلم أن للريف مباحج لا تستطيع فهمها غير المدينة.

في تلك الأيام لم يسكن مسكنا فصم عرى الزواج الشرعى بين الطبقات العليا الفرنسية، والسكن كان من الممكن تجاهلها. وبعد أن قضى الأمير عشر سنوات في زواج المرأة الواحدة الذى أضجره، انطلق للمغامرة في الحب والحرب. وحين استهدفت عيناه مدام دلوونجفيل (١٦٥٦) لم يعد دافعه إلى ذلك حب مثالى، بل تصميم على الاستيلاء على قلعة منيعة مشهورة، لأنه مما يرفع من قدره أن يغوى زوجة لدوق وأختا لسكونديه العظيم. أما هى فلعلها ارتضته لأسباب سياسة، فقد يكون حليفا نافعا في التمرد الاستقراطى الذى اعتزمت أن تلعب فيه دوراً نشيطاً. ولما أخبرته أنها حبلى منه (٧٢)، منح كل تأييده للفروند. وفي ١٦٥٢ نبذته واتخذت الدوق نيمور عشيقا، وحاول لاروشفوكوا قناع نفسه بأن ذلك ما كان يصبووا ليه، وكما قال بعد ذلك «حين نحب إنسانا إلى درجة الملل ٠٠٠ فإننا نرحب أشد الترحيب... بفعل من أفعال الحيانة يبرر تحللنا من ذلك الحب» (٧٢). في ذلك العام، وفيما كان يحارب في صفوف الفروند في ضاحية

سأت أنطوان ، أصابه رش بندقية في عينيه وخلف به صمى جزئياً . فاكفأ
راجما إلى فيرتوى .

وكان الآن في الأربعين ، يحس بوادر النقرس ، ويشعر للمرارة من كوارث
أكثرها من صنعه . أما مثاليته فماتت في إثر مدام دلو نجفيل ، وفي مؤامرات
الفروند الخداعة والهاية الحقيرة التي انتهت إليها . وقد أزعجى فراغه ودافع
عن سيرته في « مذكرات » (١٦٦٢) دل فيها على عظيم تمكنه من الأسلوب
الكلاسيكى . وفي ١٦٦١ سمح له بالعودة إلى البلاط ، ومنذ ذلك التاريخ
قسم وقته بين زوجته في فيرتوى وأصحابه في صالونات باريس .

وكان أحب الصالونات إليه صالون مدام دسابلية . هناك كانت هي
وضيوفها يلعبون أحيانا لعبة « العبارات » . يعلق أحدهم بمباراة على الطبيعة
البشرية أو سلوك الإنسان ، فتتناقذ الجماعة العبارة فيما بينها تأييداً واعتراضاً .
وكانت مدام دسابلية جارة وصديقة مخلصه للبور — رويال — دبارى ،
فاعتنقت رأيه في شر الإنسان الفطرى وخواء الحياة الدنيوية ، ولعل تشاؤم
لاروشفوكو الناجم عن خيبتته في الحب والحرب ، وعن الخيانة السياسية
والألم البدنى ، وعن خدعه غيره وانخداعه بالغير — تقول لعل هذا التشاؤم
وجد مساندة قليلة من جانسيه مضيقتته . وكان يجد لذة قائمة في تهذيب
عباراته وعبارات غيره وغربلتها على مهل ، وسمح لمدام دسابلية وغيرها من
الاصدقاء بأن يقرهوا هذه الحكم ، وأن يمدلوا فيها أحيانا . وقد نسخها
أحد هؤلاء ، وطبع ناشر لص هولندى ١٧٩ منها ، غفلا من اسم المؤلف ،
حوالى سنة ١٦٦٣ ، وتبين فيهارواد الصالونات حكم لاروشفوكو ، ثم أصدر
المؤلف نفسه طبعة أفضل اضاف إليها ٣١٧ مثلاً عام ١٦٦٥ تحت عنوان
« عبارات وأمثال اخلاقية » . وأصبح هذا السكتيب الذى اختزل الناس
اسمه بعد قليل إلى « الأمثال » ، من عيون الأدب للتو تقريبا . ولم يعجب
القراء بأسلوبه الدقيق المحكم الأنيق لحسب ، بل إنهم استمتعوا بما حوى

من فضح لأثرة الغير ، ولم يفتنوا إلى أن القصة إنما تروى عنهم ،
إلا فيما ندر .

ووجهة نظر لاروشموكو أوردها ثانياً أمثاله : « إن حب الذات هو
حب الإنسان لنفسه ، ولأى شيء آخر لأجله . وحياة الإنسان كلها ليست
إلا ممارسة متصلة لهذا الحب وتحريضاً قويا له ، وليس الغرور إلا شكلاً من
الأشكال الكثيرة التي يتخذها حب الذات ، ولكن حتى هذا الشكل يدخل
في كل فعل وفكر تقريباً وقد تنام شهواتنا أحياناً ، ولكن غرورنا
لا يبدأ أبداً » ان الذي يرفض الثناء أول مرة يرفضه لأنه يريد سماعه
ثانية (٧٤) . والتلطف على استحسان الناس لنا هو الأصل لكل الأدب
والبطولات الواعية . « وكل الناس يستوون كبرياء ، والفرق الوحيد هو
أهم لا يتبعون كلهم نفس الطرق في إبدائها (٧٥) . » ان الفضائل تضيع
في المصلحة الذاتية كما تضيع الانهار في البحر (٧٦) . « ولو تأملنا أفكارنا
الخفية لوجدنا في صدورنا بذرة كل الرذائل التي نستنكرها في غيرنا ،
ولا نستطعن أن نحكم من واقع فسادنا الشخصي على الفساد المتأصل في
الإنسان (٧٧) . وما نحن إلا عبيد شهواتنا ، وإذا قهرت شهوة منها
فقاهرها ليس العقل بل شهوة أخرى (٧٨) ، « والعقل يستغفله الوجدان
دائماً ، « والناس لا يشتهون شيئاً بلهمة إذا طلبوه انصياعاً لاوامر العقل
فقط (٧٩) ، « وابتسط الناس إذا أطانتهم العاطفة المشبوية سينتصر أكثر من
أفصح الناس بدونها (٨٠) . »

وفن الحياة يسكن في إخفائنا حب ذواتنا بقدر يسكني لتجنب إغضاب
حب الغير لذواتهم . وعلينا أن نتظاهر بقدر من الإيثار « إن النفاق ضرب
من الاحترام الذي تقدمه الرذيلة للفضيلة (٨١) . واحتقار الفيلسوف
للزعم للثراء أو عراقة النسب ليس إلا طريقته في الترويح لبضاعته .
وما الصداقة « إلا تجارة لا يفتأ حب الذات يطلب الكسب من ورائها (٨٢) »
وقد نفيس إخلاصها إذا لاحظنا أننا نجد في نكبات أصدقائنا شيئاً ليس كله

مسيئاً (٨٣) . ونحن نبادر إلى الصفع عنم أساءوا إلينا بأسرع من صفحنا
عنم أسأنا إليهم ، أو عنم تفضلوا علينا — فأثمونا — بمخدماهم (٨٤) .
والمجتمع حرب بين الفرد والكل . « والحب الصادق أشبه الاشباح — شيء
يتحدث عنه كل انسان ولكن نادرا ما رآه أحد (٨٥) » ، و « ما كنا
لنتقع في الحب قط لولا سماعنا الناس يتكلمون في الحب (٨٦) » . ومع ذلك
فالحب إذا كان صادقا تجربة فيها من العمق ما يجعل النساء اللاتي عرثن الحب
مرة ضميمات القدرة على الصداقة ، لأنهن يجدنها باردة غثة بالقياس إلى
الحب (٨٧) ومن هنا لم يكن للنساء وجود تقريبا إلا وهن في الحب « قد
تلقي نساء لم يسبق لهن غرام قط ، ولكن من العسير جدا أن تجد نساء لم
يقعن إلا في غرام واحد لا أكثر (٨٨) » . « وأكثر النساء المحصنات
كالكنوز المخفاة ، التي لم تكن في مأمن إلا لأن أحدا لم يفتش
عنها (٨٩) » .

وكان هذا الكلي العليل عليما بأن هذه الحكم البارة ليست وصفا
منصفا للبشر . لذلك راح يتجنب الجزم في الكثير منها بالفاظ مثل « تكاد »
أو « تقريبا » إلى غير ذلك من التحفظات الفلسفية ، وقد اعترف أنه « أسهل
أن يعرف المرء النوع الإنساني عموما من أن يعرف انسانا واحدا
بالذات (٩٠) » ، وسلمت للقدمه بأن أمثاله لا تصدق على « المحظوظين القلائل ،
الذين سرت السماء بأن تحفظهم . . . بنعمة خاصة (٩١) » . ولا بد أنه سلك
نفسه في زمرة هؤلاء القلائل ، لأنه كتب : « انني أخطئ لأصدقائي إخلاصا
لا أتردد معه لحظة في التضحية بمصالحى في سبيل مصالحهم (٩٢) » . — ولو أنه
كان بلا شك يفسر هذا بأنه راجع لأنه يجد في بذل مثل هذه التضحية لذة
أكثر مما يجده في منعها . وقد يتحدث بين الحين والحين عن « عرفان الجميل ،
فضيلة العقول الحكيمة السمحة (٩٣) » ، و « الحب ، النبي الذي لا تشوبه
شهوة (إذا وجد إطلاقا) ، الذي يسكن في أعماق قلوبنا (٩٤) » . و « مع أنه
يمكن القول ، بقدر كبير من الصدق . . . ان الناس لا يفعلون شيئا دون
١٦ — قصة الحضارة

مراعاة لمصلحتهم ، إلا أنه لا يستتبع هذا ان كل ما يفعلونه فاسد ، وأنه لم يبق في الدنيا شيء اسمه العدالة أو الأمانة . فالناس قد يحكمون أنفسهم بوسائل شريفة ، ويحتطون (لأنفسهم) بمصالح كلها الخير والنبيل (٢٥) .

وقد ألانت الشيخوخة جاب لاروشفوكو ، حتى وهي تزيد شجنا على شجن . ففي ١٦٧٠ ماتت زوجته بعد ثلاثة وأربعين عاما من الوفاء الصابر ، وبعد أن أنجبت له ثمانية أطفال ، وقامت على تربيته طوال الأعوام الثمانية عشر الأخيرة . وفي ١٦٧٢ ماتت أمه ، وقد اعترف أن حياتها كانت معجزة طويلة من المحبة . وفي تلك السنة جرح اثنان من أبنائه في غزوة هولندية ، ومات أحدهما من جروحه . كذلك سقط في نفس الحرب الفاجرة ابنه غير الشرعى الذى ولدته له مدام دلونجفيل ، والذى لم يؤذنه بأن يطالب به ابنا برغم أنه أحبه حبا عميقا . روت مدام دسفينيه « رأيت لاروشفوكو يسكى فى حنان جملي أعبد (١٩٦) . ترى أكان حبه لأمه وأولاده حبا لذاته ؟ أجل ، إذا نظرنا إليهم على أهم جزء من ذاته وامتدادا لها . وهذا هو التصالح بين الإيثار والآرة — فالإيثار توسيع للذات ، والمحبة الذات ، للأسرة ، أو الأصدقاء ، أو الجماعة . وفي وسع المجتمع أن يقنع بمثل هذه الأناية السمحة الشاملة .

ومن أكثر ملاحظات لاروشفوكو سطحية قوله « ان فضل القليل من النساء يدوم أطول من جاهل (٢٧) » . لقد كانت أمه وزوجته استثنائين ، ولم يكن من الكرم تجاهل آلاف النساء اللاتي ضيعن جاهلن الجسدى فى خدمة الرجل والأطفال . وفى ١٦٦٥ بذلت له امرأة ثالثة معظم حياتها . ولاشك فى أن مدام دلافايت أرضت قلبها هى وهى تحاول أن تسرى عنه . فلقد كان يومها فى الثمانية والخمسين ، يشكو والنقرس ونصف العمدى ، أماهى فسكات فى الثالثة والثلاثين ، محتفظة بجمالها ، ولكنها عليه تشكو حى اللاريا . ولقد روعها ما فى امثاله من كلبية ، ولعل فسكرة سارة بإصلاح هذا الرجل الشقى والتسرية عنه خالطت رأيا فيه ، فدعته الى بيتها فى باريس ،

لجاء محمولا على صفة ، فمصبت قدمه المرحومة ووسدتها ، وأتت بأصحابها ،
ومنهم مدام دسفينييه المتدفقة العاطفة ليساعدنها في الترويح عنه . وحاد إليها
ثافية ، وكثرت زيارته حتى لفظت بها باريس . ولا علم لنا هل دخلت في
هذه الزيارات الألفه الجنسية ، ولكنها على أية حال كانت جزءاً صغيراً في
علاقة أصبحت تبادلاً بين الأرواح . قالت « لقد اعطاني الفهم ، ولكنني
أصلحت قلبه (٩٨) » . ولعله ساعدها في روايتها « أميرة كليف » وان
بعدت رقتها وحنانها عن قسوة « أمثاله » بعد السماء عن الأرض .

وبعد أن ماتت مدام دلا روشفوكو أصبحت هذه الصداقة التاريخية
ضرباً من الزواج الروحي ، وفي الأدب الفرنسي صور كثيرة لهذه المرأة
القصيرة الضعيفة الجسد ، تجلس في هدوء إلى جوار الفيلسوف المعجوز الذي
أقعدته الألم عن الحركة . قالت مدام دسفينييه « لا شيء يمكن أن يقارن
بسحر صداقتهما وثقتها (٩٩) » . وقال بعضهم ان المسيحية تبدأ حيث
ينتهي لاروشفوكو (١٠٠) ، وقد تبينت صحة القول في هذه الحالة ، ولعل
مدام دلافاييت الصادقة الورع أفنعتته بأن الدين هو السكفيل بالإجابة عن
مشكلات الفلسفة . ولما شعر بدنو أجله طلب إلى الأسقف بوسويه أن
يناوله الأسرار المندسة الأخيرة (١٦٨٠) . وقد صمرت صديقته بعده
ثلاثة عشر عاماً حافله بالألم .

٩ - لارويير ١٦٤٥ - ٩٦

بعد موت لاروشفوكو بنانية أعوام أكد جان دلا برويير تحليته
الساخر للأدبيين من أهل باريس . وكان جان ابن موظف صغير في
الحكومة . درس القانون ، واشترى وظيفة حكومية صغيرة ، وأصبح
معلماً خاصاً لحفيد كونديه العظيم ، وخدم أسرة كونديه وصيفاً ، وتبعها
إلى شانتني وفرساي . وقد ظل أعزب إلى نهاية حياته .

وقد عذبتة حدة الفوارق الطبقيية في فرنسا لما فطر عليه من حساسية

وحياه ، ولم يستطع الاستماعة بمظاهر الغرور الطغيانية التي ربما كانت تيسر له طريقه بين النبلاء وفي البلاط ، وذلك رغم انتمائه الى الطليقة الوسطى . وقد لاحظ معرض الوحوش الملكي بعين معادية نفاذة ، وانتقم منها بوصفها في كتاب صب فيه كل عصارته الفكرية تقريبا ، وقد سماه « الاخلاق لتيوفراست مترجمة عن الاغريقية ، مع اخلاق أو طادات هذا العصر » . وأصبح الكتاب حديث باريس ، لانه صور تحت أفتنة شناعة أشخاصا مشهورين في المدينة أو البلاط ، وجعل كلا منهم يجد المتعة البالغة في فضح الباقيين . ونشرت « مفاتيح » للكتاب تزعم انها تطابق الصور مع اصولها ، واحتج لايروير بأن أوجه الشبه طارئة ، ولكن أحدا لم يصدق ، وذاع صيته ، ونفدت ثمانى طبعات قبل موت المؤلف في ١٦٩٦ ، وقد اضاف الى كل طبعة « أخلاقا » جديدة تبينت فيها باريس مرآة العصر .

ونحن الذين فقدنا اليوم مفتاح متحف الصور هذا تبدولنا مادته هزيلة بعض الشيء ، وأفسكاره قديمة مبتذلة ، وروحه يشوبها بعض الحسد ، وهجاؤه سطوحيا جدا ، كهجائه لمينا لكاس الرجل الشارد الذهن (١٠١) . ولايطلب لايروير أى تغيير في دين فرنسا أو حكومتها . وقد رأى أن من الخير أن يكون هناك فقراء ، والالكان العثور على الخدم عسيرا ، ولما وجد أحد يستخرج المعادن أو يفلح الأرض ، والخوف من الفقر لاغنى عنه لانتاج الثروة (١٠٢) . وكان يسلك بوسويه في عداد أصدقائه مفاخرا بذلك ، وقد أطاد في القسم الأخير من كتابه (« في أحرار الفكر ») الحجج التي أعرب عنها الواعظ العظيم بحكم افضل ونثر أرفع ، وردد البراهين التي ساقها ديكرت عن الله والخلود ، واستشهد بشيء من الخلق ، في رده على اللأدرين في زمانه ، بنظام السماوات وجلالها ، وعلامات الهدف المرسوم في الكائنات الحية ، والاحساس بتقرير المصير في الارادة وباللامادية في الذهن . وهاجم غرور النبلاء ، وجشع رجال المال ،

وخنوع الحاشية الذين صورهم ينظرون الى لويس لا الى المذبح في كنيسة فرساي ، ولكنه حرص على أن يقدم للملك باقات زهر يتقى بها غضبه (١٠٣) . وفي فقرة واحدة على الأقل ازاح الخذر جانبا وتسامى في جرأة ليصف درك الهيمية الذي تردى فيه «لاحو فرنسا من جراء حروب الحكم وضرائبه . يقول : « انتشرت في أرجاء الريف حيوانات ضارية ، ذكور واناث ، سوداء ، ممتعة ، أحرقها الشمس تماما ، والتصقت بالأرض التي تحفرها وتقلبها في اصرار لا يقهر ، ولها ما يشبه الصوت المنطوق ، فاذا انتصبت على قوائمها بدت في سحنة البشر ، والواقع انها ناس من الناس (١٠٤) » .

وما زالت هذه الصفحة من أبلغ ما كتب في عصر فرنسا الكلاسيكي .

١٠ — مزيد من الأدباء

هل نحشد الآن بغير نظام ، بعد أن أصابنا الاعياء ، في ملحق هياب بعض الخالدين الذين بدأوا يموتون ؟

هناك جان شابلان ، الذي أعان على تنظيم الأكاديمية الفرنسية ، واعتبر في زمانه (١٥٩٥ — ١٦٧٤) أشعر شعراء فرنسا . وهناك جان باتيست روسو ، الذي كتب شعرا ينسى ، ولكنه كتب أيضا إيجرامات مقذعة جرت عليه النقي من فرنسا (١٧١٢) عقابا على تشهيره بالأشخاص . وقد كتب معظم النبلاء الذين اشتغلوا بالسياسة مذكرات ، فرأينا مذكرات دريتر ولاروشموكو ، وسسنرى في موضع لاحق مذكرات سان — سيمون . ويلى أولئك مرتبه تلك المجلدات الثلاثة التي سجلت فيها مدام دموتفيل بتواضع خلاب وقائع سنيها الاثنتين والعشرين التي قضتها في بلاط آن النمساوية . ونلاحظ أنها وافقت لاروشموكو على رايه اذ كتبت « ان تجربتي القاسية في صداقة البشر الزائفة أكرهتنى على الايمان بانه ليس في الدنيا شيء أندزم من الأمانة والاستقامة ، أو من

القلب الطيب القادر على عرفان الجليل (١٠٥) . « لقد كانت هي هذا الانسان النادر الوجود .

وقد حقق روجيه درابوتان ، كونت بوسى ، نجاحا فى دنيا الفضايح بكتابه « تاريخ غراميات الغالين » (١٦٦٥) الذى وصف غراميات معاصريه مستخفية وراء قدامى الغالين . وغضب الملك لكونه سخر فيها من مدام هنرييتا ، فزج به فى الباستيل ، ثم افرج عنه بمدة سنة شريطة أن يمتكف فى ضيعته ، وهناك ألف « مذكراته » النابضة بالحياة ، والقيظ يبريه إلى نهاية حياته . وأقل من هذا الكتاب جدارة بالتصديق كتاب « الأفايصى » الذى رسم فيه تالمان دى ريو صوراً موجزة خبيثة لشخصيات شهيرة فى الأدب أو الغرام . وقد جاهد كلود فلورى ، بكتابه الامين « التاريخ الكنسى » (١٦٩١) ، وسباستيان تيلون بكتابه « تاريخ الأباطرة » (١٦٩٠ وما بعدها) ، وكتابه « مذكرات ينتفع بها فى التاريخ الكنسى للقرون الستة الأولى » (١٦٩٣) ذى الستة عشر مجلداً — هذان جاهدا فى معاناة ، ودون وعى منهما ، ليمهدا الطريق وينقياه لكتاب جييون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧٧٦ وما بعدها) .

ثم هناك أخيرا شارل دماركتيل شريف سانت — افريمون الذى كان ألطف تلك « العقول القوية » التى صدمت الكاثوليك والهيجونوت ، واليسوعيين والجانسينيين على السواء ، بالتشكك فى التعاليم الأساسية لإيمانهم المشترك وكانت حياته العسكرية الحافلة بالمغامرات تقوده إلى عصا الماريشالية حين غضب عليه الملك لأنه كان صديقا لفوكيه وناقدا للمازاران . فلما نفى إليه أن قد تقرر القبض عليه فر إلى هولندا ، ثم إلى إنجلترا (١٦٦٢) . وقد جعلته عاداته المهذبة وذكاءه الشكاك أثيرا فى صالون هورتيزى مانشيني بلندن ، وفى بلاط تشارلز الثانى . وكان كالماريشال دو كينسكور ، فى واحد من أكثر حواراته مرحا (١٠٦) ، يحب الحرب أولا ، ثم النساء ، ثم الفلسفة . وإذا رشف كل اللباهج التى فى مونتيني ، ودرس أبيقور مع جاسندى ، فقد

خلص مع الاغريق للمفترى عليه إلى أن لذة الحس طيبة ، ولكن لذة السكر
أطيب ، وأنه لا داعى يدعونا لشغل أنفسنا بالآلهة أكثر مما تشغل أنفسها
بنا . وقد بداله الأكل الطيب والكتابة الجيدة ، زيجاً معقولا . وفي ١٦٦٦
زار هولنده ثانية ، والتقى بسبينوزا وتأثر تأثراً عميقاً بالحياة المسيحية التي
كان يحياها اليهودى القائل بوحدة الوجود (١٠٧) . وقد أتاح له معاش أجرته
عليه الحكومة الإنجليزية ، بالإضافة إلى ما استنقذه من فضلات ثروته ،
أن يكتب سلسلة طويلة من الكتب الصغيرة ، كلها بأسلوب خفيف رشيق
شارك في تكوين فولتير . وقد أعان كتابه « تأملات في مختلف أجناس
الشعب الرومانى » مونتسكييه ، وشاركت رسائله إلى نينون دلانكوا بجزء
من ذلك العبير الذى يتضوع خلال الرسائل الفرنسية . ولما بلغ الثامنة
والخمسين ، ودون وعى منه بأنه سيعمر اثنتين وثلاثين سنة أخرى ، وصف
نفسه بأنه مقلقل بصورة لاشفاء له منها . « انى لولا فلسفة مسيود يكارث
التي تقول أنا أفكر فإذا أنا موجود لما صدقت انى موجود ، وهذا كل
ما أفدت من دراسة ذلك الرجل الشهير (١٠٨) » وقد كاد ينافس فونتنيل
في طول عمره ، إذ لم يمت إلا عام ١٧٠٣ بعد ان بلغ التسعين ،
وقد نال تشريفا ندر ان حظى به فرانسى ، وذلك هو دفنه فى دير
وستمنستر .

كتب فردريك الأكبر إلى فولتير : « بعد قرون سيترجمون الكتاب
المجيدى فى عصر لويس الرابع عشر كما نترجم نحن كتاب عصر بركليس
وأوغسطس » . وقبل أن يموت الملك بسنين طويلة شبه الكثيرون من
الفرنسيين فن العصر وأدبه بخير ما أنتج القدماء فى الفنون والآداب . وفى
١٦٨٧ قرأ شارل بيرو (أخو كلود بيرو الذى صمم من قبل واجهة الاوفر
الشرقية) على الأكاديمية الفرنسية قصيدة سماها « قرن لويس العظيم » رفع
فيها العهد فرق أى حقبة فى تاريخ اليونان أو الرومان . ولكن بوالو
الناقد المجوزا ببرى للدفاع عن القدامى رغم ان بيرو سلكه فى زمرة المعاصرين

الذين فضلهم على نظرائهم القدامى ، فقال الأكاديمية ان من العار الاستماع إلى هذا اللغو . وحاول راسين ان يخمد النار بزعمه أن بيرو كان (١١٠) يمزح ، ولكن بيرو أحس أن لديه موضوعا مجزيا . فعاد إلى المعركة في ١٦٨٨ بكتابه « نظائر القدامى والمحدثين » وهو حوار طويل حتى يؤيد تفوق المحدثين في العمارة والتصوير والخطابة والشعر - وذلك باستثناء الاياداة ، التي هي في رأيه أروع من الاياداة أو الاوديسة أو أى ملحمة أخرى . وقد ناصره فونتنييل بذكاء وبراعة ، أما لا برويير ولا فونتنين وغينيلون فوقفوا في صف بوالو .

لقد كان شجاراً صحيحاً ، عين نهاية نظرية « الانحطاط » المسيحية الوسيطة ، ونهاية تواضع النهضة والحركة الإنسانية أمام الشعر والفلسفة والفنون القديمة . وكان هناك اتفاق تام على أن العلم قد تقدم متجاوزاً أى مرحلة أدركها اليونان أو الرومان ، وحتى بوالو اعترف بهذا ، وسلم بلاط لويس الرابع عشر في غير تردد بأن فن الحياة لم يطور قط من قبل بمثل هذا الجمال الذي طور به في مارلي وفرساي . ولن نزعم أننا فاصلون في هذه المشكلة ، فلنتركها الآن حتى نعرض كل جوانب هذا العصر في أوروبا بأسرها . ولا حاجة بنا إلى الإيمان بأن كوربي كان متفوقاً على سوفوكليس ، أو راسين أعلى يوربيديس ، أو بوسويه على ديموستينيس ، أو بوالو على هوراس ، وما ينبغي أن نسوى بين اللوفر والبارثينون ، أو بين جيراردون وكوازفوكس وبين فيدياس وبراكستيليس . ولكن من اللطيف أن نعرف أن هذه المقاضلات تقبل المناقشة ، وان تلك النماذج القديمة لا تمتنع على المناقشة .

لقد وصف فولتير عصر لويس الرابع عشر بأنه « أكثر العصور التي شهدها العالم استنارة (١١١) » دون ان يتوقع أن عصره هو يسمى « عصر التنوير » . ولكن ينبغي أن نخفف من غلوهذا الاطراء . فالعصر من الناحية الرسمية كان عصر ظلامية وتعصب بلغا أوجهما في إلغاء مرسوم نانت الرحيم ، و « التنوير » كان وقفاً على قلة قليلة لم يرض عنها البلاط وطاها سرفها الابيقورى أحياناً . والتعليم كان يهيمن عليه أكليروس ملتزم بمقيدة العصر

الوسيط ، وأما حرية الطباعة والنشر فلم يسكد أحد يحلم بها ، وحرية الكلام كانت مغامرة سرية وسط رقابة شاملة . لقد كان في عهد ريشليو من المبادرة والجرأة ومن مولد العبقرية قسطاً كبيراً مما كان في عهد الملك العظيم . إن العصر لم يكن له ضريب في الرقابة الملكية للادب والفن ، وفي خضوعهما للبليغ للملك . وقد بلغ الفن والأدب كلاهما العظمة والجلال كما يشهد بذلك صف أعمدة الفوفر ومسرحية اندروماك ، ولكنهما انحذرا أحياناً إلى المبالغة في الفخامة والابهة كما نرى في قصر فرساي أوفى بلاغة كورني في آخر إنتاجه . وكان يشوب المسأسة والفنون الكبرى في هذا العهد بعض التكلف والاقنعال ، فقد أفرط في الانكسار على المماذج اليونانية أو الرمانية أو نماذج النهضة . وأخذنا موضوعاتهما من عصر قديم دخيل لامن تاريخ فرنسا ودينها وطابها ، وعبرا عن التعليم الكلاسيكي الذي حظيت به طبقة خاصة لامن حياة الشعب وروحه . ومن ثم نجد موليير ولافونتين العاميين يفيضان اليوم حياة وسط هذا الحشد المزوق ، لأنهما نسيا اليونان والرومان وتذكرا فرنسا . صحيح ان العصر الكلاسيكي نقي اللغة ، وصقل الادب ، وهذب الحديث ، وعلم العاطفة المشبوبة أن تفكر ، ولكنه إلى ذلك فرض على الشعر الفرنسي (والإنجليزي) برودة امتدت قرابة قرن بعد هذا العهد العظيم .

ومع ذلك كان عهداً عظيماً . فلم يشهد التاريخ من قبل حاكماً سخامثل هذا السخاء على العلوم والآداب والفنون . لقد اضطر لويس الرابع عشر الجانسينيين والهييجونوت ، ولكن في عهده كتب بسكال ، ووعظ بوسويه ، وعلم فينيلون . ولقد جند الفن ليعخدم به مآربه ومجده ، ولكن هذا الفن منح فرنسا بفضل تشجيعه روائع في العمارة والنحت والتصوير . ولقد حمى موليير من جيش من الخصوم ، وأزر راسين من مأساة إلى مأساة . ولم تسكتب فرنسا من قبل مسرحية أفضل ، ولا رسائل أفضل ، ولا نثراً أفضل ، مما كتبت في عهده . وهذا أعادت عادات الملك المهذبة ، وضبطه

لنفسه . وصبره ، واحترامه للنساء — أعانت كلها على انتشار الاداب المحببة
والمجاملات اللطيفة في البلاط ، وعنه إلى باريس وفرنسا وأوربا . ولقد أساء
استعمال بعض النساء ، ولكن تحت حكمه بلغت النساء في الادب والحياة
مقاما اضفى على فرنسا ثقافه ثنائيه الجنس يفوق جملها أى ثقافه أخرى في
العالم . وبعد كل التحفظات ، وبعد الاعراب عن أسفنا لان هذا الجمال
الكثير لوثته هذه القسوة السكثيرة ، يحق لنا أن نضم صوتنا إلى أصوات
الفرنسيين في الأشادة بمصر لويس الرابع عشر بوصفه عمراً يقف على قدم
المساواة مع اليونان في أيام بركليس ، والرومان في أيام أوغسطس ، وإيطاليا
في أيام النهضة ، وإنجلترا في أيام اليزابيث وجيمس الاول . يقف مع هؤلاء
جميعاً قمة شامخة بين الشوامخ في مسار الإنسانية المتعثر .

الفصل السادس

مأساة في الأراضى المنخفضة

* ١٦٤٩ - ١٧١٥ *

شهد القرن الممتد من ١٥٥٥ إلى ١٦٤٨ الدفاع البطولى الذى قامت به الأراضى المنخفضة ضد إمبراطورية أسبانيا العالمية ، أما الفترة من ١٦٤٨ إلى ١٧١٥ فقد شهدت دفاع الجمهورية الهولندية الرائع ضد بحرية إنجلترا وجيوش فرنسا التى لم يسبق لها مثيل . وفى كلتا الحالتين صمدت هذه الدولة الصغيرة بشجاعة ونجاح من حقهما أن يتبوها مكاناً مرموقاً فى التاريخ . وقد واصلت وسط هذه الأعباء والهجمات تطویرها للتجارة والعلوم والفنون ، وكانت مدنها ملاذاً للفكر المضطهد ، وتحدت نظمها الجمهورية الملكيات القوية المحددة بها تحدياً ملهماً .

١ - الأراضى المنخفضة الأسبانية

ظلت الأراضى المنخفضة الجنوبية ، أو الأسبانية ، حتى ١٧١٣ خاضعة للحكم الأسباني وكانت شعوبها المختلفة سلايماً يدين معظمها بالكاثوليكية وقد آثرت أن تخضع لأسبانيا النائية التى حل بها الضعف ، إعن أن تخضع للبروتستنت الذين فى شمالها ، أو لجارتها فرنسا التى هددت بابتلاعها فى أى لحظة . وقد أعطى صلح البرانس (١٦٥٩) معظم أرتوا لفرنسا ، وأعطاهما صلح إكس لا شابل (١٦٦٨) دويه وتورنيه ، و صلح نيميغن (١٦٧٨) فالنسين وموبوج وكبرى وسانت أو مير واير . ولم تسكن الجمهورية

(*) أرجأنا تاريخ الأراضى المنخفضة السياسى والمرنى بمد ١٦٨٨ إلى فصل

نال (للفصل ٢٤) .

الهولندية أقل قسوة من الملكية الفرنسية . وبمقتضى معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) لم تكتف أسبانيا ، في حرصها على إطلاق يد جيوشها لتفرغ للحرب المتصلة مع فرنسا ، لم تكتف بأن تنزل الأقاليم المتحدة عن المناطق التي استولت عليها في فلاندر ، ولهمبورج ، وبرابات ، ولكنها وافقت كذلك على قفل نهر الشلت في وجه التجارة الأجنبية . فأصاب هذا الإذلال الخائق أنتورب وكل اقتصاد الأراضي المنخفضة الأسبانية بالشل . « إن السياسة لا قلب لها » كما يقولون .

وفي داخل هذه الأسوار المعادية اعتزت هذه البلاد التي نعرفها اليوم باسم بلجيكا بثقافتها المتوارثة ، ورحبت باليسوعيين ، وتبعت قيادة لوفان الفكرية . ولما قصف الفرنسيون بروكسل بمدافعهم (١٦٩٥) تحول قسم كبير من المدينة أطلالا ، ودمر كل المعمار البديع التي ازدان به الميدان الكبير ، اللهم إلا قاعة للحرفيين والأوتيل دفييل البديع ، وقد أعيد بناء « الميزون دورا » (الذي كان يقرأ فيه الخطاب الملكي على مجلس الطبقات) بطراز قوطي كثير الزخرف (١٦٩٦) ، وهو والأوتيل دفييل من أجمل العمار في أوربا اليوم . وقد أفاض النحاتون من فنهم على تجميل واجهات الكنائس والمباني المدنية ، والمنابر ، ومقاصير الاعتراف ، والمقابر التي بداخل الكنائس . وواصلت بروكسل صنع النسيج المرسوم البديع (١) .

واضح للصورير الفلمنكي اضمحلالا حادا بعد روبنز وفانديك ، وكأن حياة هذين الفنانين قد استنفدت العبقرية التصويرية لقرن كامل . واجتذبت نهوض الفن في فرنسا وازدياد ثرائها الكثير من الرسامين الفلمنك أمثال فيليب دشامبين . ولكن فنانا اعظم منه ، وهو دافيد تنييه الابن ، مكث في بلده . وكان أبوه قد تولى تعليمه ، فأصبح « معلما » في طائفة القديس لوقا الحرفية حين بلغ الثالثة والعشرين ، وبمدأربع سنوات (١٦٢٧) ضمن نجاحه بالزواج من آن بنت جان بروجل « الخملي » ،

والقاصر الموضوعة تحت وصاية روبرت روتزداث . وفي ١٦٥١ دعاه الارشيدوق ليوبولد وليم من أنتورب الى بروكسل ليكون مصور البلاط وأمين المتحف الملكي ، وترينا احدى لوحات تربيته الأشيدوق والمصور بين صور هذا المتحف (٢) . وقد صور في براعة مترددة موضوعات قديمة كالابن الضال (٣) وتجزية القديس انطونيوس (٤) . ولكنه كما صر به الهولنديين أثر أن يلتقط داخل اطارات صغيرة حياة الفلاحين ، لاهما بطاهم الى درك الأنعام كما فصل بيتر بروجل ، بل مشاركا اياهم في رباضاتهم وأعيادهم . وأظهرت لوحته « داخل كإباريه » المامه بتفاصيل موضوعه (٥) ، ولكنه كان يستطيع أيضا أن يرسم المناظر الطبيعية الريفية التي تغير هيئتها سماء لا تكف عن التغير . وقد أحب الضوء كما أحب رمبرات الظل ، والتقطه على فرشاته برقة حساسة لم تفقها رقة .

٢ - الجمهورية الهولندية

كانت الأقاليم الهولندية السبعة قد توحدت الآن في جمهورية عزيزة ظافرة أثار غناها ونوسعها عجب جيرانها وحسد هم . فهنا أمة شذت على العرف ، إذ لم يكن لها ملك ، وكانت كل مدينة يحكمها في استقلال تقريبا مجلس من أعيانها ، وكل مجلس بلدى يوفد مندوبين لمجلس اقليمي ، وكل مجلس اقليمي يوفد ممثلين للمجلس التشريعي الذي يهيمن على ما بين الأقاليم من علاقات وعلى شئونها الخارجية . وكانت الى ذلك الحد حكومة مثالية لأقطاب التجارة الذين كانت ثرواتهم تتضخم بنمو التجارة الهولندية . ولكن قوة ارستقراطية واحدة وقفت أمام أولجركيه التجار هذه : ذرية وليم الأول (والصامت) أمير أورنج وناسو ، الذي قاد البلاد في أحلك ايام كفاحها ضد أسبانيا ، وكان المجلس التشريعي قد كافأه بلقب رئيس الدولة وبقيادة جيوشها ، واستطاع أن يورث ذريته ذلك اللقب وتلك القيادة ، وكانت الهيمنة على رجال الجيش الآن قوة لا تفتأ تهدد بتحويل الجمهورية الاولجركية الى ملكية.

ارستقراطية . وفي يوليو ١٦٥٠ حاول وليم الثالث أمير أورنج ، بوصفه رئيسا للدولة وقائدا عاما ، أن يبسط سلطانه المطلق على جميع الأقاليم المتحدة بانقلاب . فقاومه عدة زعماء اقليميين ، وادع وليم وجنده ستة منهم في السجن ، ومنهم يعقوب دى ويت صمده دوردريشت . ولكن الجدرى هزم وليم فى انتصاره ، فمات فى ٦ نوفمبر ١٦٥٠ غير متجاوز الرابعة والعشرين : وبعد أسبوع ولدت أرملته ماري ستيوارت (ابنة حفيده آخر ملكة لاسكتلنديين) الطفل وليم أورنج الثالث ، الذى قدر له أن يحقق فوق ما حلم به أبوه ، اذ أصبح ملكا على انجلترا .

اما الزراعة وصيادو الاسماك الأدنى من هذه الطبقات الحاكمة المتناقسة ، هؤلاء الذين كانوا يطعمون الشعب ، فلم يشاركوا الا فى فضلات ثرائها التى لم يعبأ بالتهاهما التجار ورجال الصناعة وملاك الأرض . واذا صدقنا الرسامين الهولنديين تبين لنا أن الحرب والاستغلال قد طحنا الملاحين بفقر كاد يقرهم من حياة البهائم ، فقر خففت منه الأعياد وخدره اشرب . وكان الحرفيون فى حوائيتهم ، والعمال فى مصانع امستردام وهارلم وليدن ، أعلى أجورا من نظرائهم فى انجلترا (٦) ، ولكنهم قاموا باضراب عنيف فى ١٦٧٢ . واثرى المهاجرون الهيجونوت الوافدون من فرنسا الصناعة الهولندية بمدخراتهم ومهاراتهم . فلم تأت سنة ١٧٠٠ حتى حلت الأقاليم المتحدة محل فرنسا بوصفها الامة الصناعية القائدة فى العالم .

اما اعظم الثروات فجادت بها التجارة مع اقطار ما وراء البحار وتطورها . فى ١٦٥٢ استوطن الهولنديون أول مستعمرة لهم فى رأس الرجاء الصالح وأسسوا مدينة السكاب . وكانت شركة الهند الشرقية الهولندية تدفع ارباها لمساهميها بلغت نسبتها فى المتوسط ١٨ ٪ . طوال ١٩٨ عاما (٧) . وكان الوطنيون فى المستعمرات الهولندية يباعدون او يشتغلون عبيدا ، أما المستثمرون فى أرض الوطن فلم يسمعوا بهذا الا قليلا ، وأخذوا ارباح أسهمهم يهدوه هولندي . وظلت التجارة

الخارجية الهولندية حتى ١٧٥٠ تفوق تجارة أى أمة أخرى (٨) ، ومن بين عشرين الف سفينة كانت تنقل تجارة أوربا في ١٦٦٥ ، كانت خمسة عشر ألف هولندية (٩) . وأجمع الناس على أن تجار هولندا وماليها أ كفاً من انجبه ذلك العصر . وكان بنك أمستردام قد استنبط حيلها كل تقنيات المالية المصرية ، وقدرت ودائمه بما يعادل الآن مائة مليون دولار (١٠) ، وكان في الامكان أن تسوى فيه حسابات تصل الى الملايين في ساعة واحدة ، وبلغت الثقة بقدرة الهولنديين المالية وامكان الاعتماد عليهم مبلغا يسر للجهورية الهولندية أن تقترض المال بفائدة أقل من أى حكومة أخرى ، وقد تهبط الفائدة أحيانا الى ٤ ٪ (١١) . ولعل أمستردام كانت أكثر مدن اوربا في هذا العصر جمالا وتحضرا . وقد رأينا ثناء ديكارث عليها ، وكذلك تحدث عنها سبينوزا (١٢) . ويمثل هذه الحلسة تحدث بيبيس عن لاهاي « مدينة غاية في النظافة من جميع الوجوه ، بيوتها أنظف ما يستطاع في كل أماكنها ومحتوياتها (١٣) » .

ولولا طبيعة البشر لكانت هذه الأقاليم الرخية جنة في الأرض ذلك أن نراها أغرى انجلترا وفرنسا بالهجوم عليها ، وقد أفضى الصراع على السلطة في الداخل الى مأساة جان دي ويت ، ومزقت المنافسة بين العقائد الدينية شعبا لطيفا في غير هذا ، وبعثت الخصومات العنيفة . ومنع الكلفنيون الغالبون ممارسة الشعائر الكاثوليكية حيثما استطاعوا منعها . وفي ١٦٨٢ ، وضع مجمع دورت (الدوردرشت) اعترافا بالكلفنية القديمة ... ربما انتقاما من الغاء مرسوم نانت وألزم كل راع بالتوقيع عليه والاطرد ، وعين بيير جوربو وهو هيجونوتي فرنسي سابق - ايرأس محكمة تفتيش كلفنيه ، واستدعى المهرطقين ، وحاكهم ، وحرّمهم ، واهاب به « الدراع الدينوية » (السلطة الزمنية) أن تزج بهم في السجون . ولكن هرطقة أرمينيوس نمت رغم ذلك ، واجتأر الشجعان من الرجال على الاعتقاد بأن الله لم يقدر على السكثرة من بني البشر الهلاك في النار .

الأبدية ، ووجدت المذاهب المنشقة — مينوئين ، وكليين (من آوا سبينوزا) ولويسيانيين ، وتقويين ، وحتى التوحيديين — هؤلاء جميعا وجدوا أن في إمكانهم العيش في هولندا بين ثغرات القانون وغفواته . وكان السوسينيون قد التمسوا في الأقاليم المتحدة ملاذا من الاضطهاد في هولندا ، ولكن عبادة التوحيديين حرمت بقانون هولندا في ١٦٥٣ . ونشر دانيال زفيكر بأمر من هولندا في ١٦٥٨ رسالة تشككت في ألوهية المسيح ، وأخضعت الكتاب المقدس لـ « عقل البشرية العام » ، ومع ذلك استطاع أن يبعث في هدوء وسلام كما يموت الجزالات . على أن رجلا يدعى كيرباج حكم عليه في ١٦٦٨ بالسجن عشر سنوات لأنه أفصح عن أفكار كهد ، ومات في سجنه . وقد سجن أوربان بينفرلاندا لإلماعه الى أن خطيئه آدم وحواء الأصلية كانت الاتصال الجنسي ولم تمت للتفاح بسبب .

وازداد التسامح الديني قرب ختام القرن السابع عشر . ذلك أن الهولنديين الذين كانوا يتعاملون مع دول كثيرة ذات ثقافات مختلفة ، ويفتخرون مواهبهم وسوقهم المالية لتجار يدينون بديانات كثيرة أو لا يدينون بأي دين ، هؤلاء الهولنديون وجدوا من الأنفع لهم أن يمارسوا ضربا من التسامح كان ، رغم ما شابه من نقص ، أرحب بكثير منه في أي بلد مسيحي . ومع أن السككفتيين كانوا الغالبين سياسيا ، إلا أن الكاثوليك بلغوا من الكثرة مبلغا جعل قمعهم امرا غير ممكن عمليا . أضف الى ذلك أن السيطرة الاجتماعية والسياسية التي كانت تتمتع بها الطبقات التجارية والصناعية جعلت الإكليروس — كما قال اسروايم قبل — أقل نفوذا بكثير من الإكليروس في الدول الأخرى . وطالب المهاجرون من أقطار أخرى ، الذين أسهموا بقسط في الاقتصاد أو الثقافة ، بقدر محدود من الحرية الدينية وظفروا به . وحين استولى كرومويل على السلطة في إنجلترا التمس أنصار الملكية فيها السلامة في هولندا ؛ ولما رد تشارلز الثاني الى العرش ، التجأ الجمهوريون الإنجليز الى الجمهورية الهولندية . ولما اضطهد لويس الرابع عشر الهيجواوت فر بعضهم الى الأقاليم

المتحدة ، ولما خشي لوك وكولنز وبيل الاضطهاد في انجلترا أو فرنسا ، وجدوا الملاذ في هولنده ؛ ولما حرم جمع أمستردام البرتغالى (اليهودى) سبينوزا ، رحب به العلماء الهولنديون وقدموا له العون ، ورتب له جان دى ويت معاشا . وأصبحت هولنده الصغيرة « مدرسة أوروبا (١٥) » في التجارة والمال والعلم والفلسفة .

ولولا ما أتيج لهذه الحضارة من حرية دينية ، ومن علم وأدب وفن ، لأصبحت حضارة مادية الى حد محزن . وسنلتقى في فصل لاحق بهويجنس وغيره عن العلماء الهولنديين . وكان هناك شعراء ومسرحيون ومؤرخون هولنديون ، ولكن لغتهم حذت من شهرتهم . وقد حفلت المدن الهولندية بالسكتب والناشرين . وبينما لم يكن في انجلترا سوى مركزين اثنين للنشر هما لندن واكسفورد ، وفي فرنسا باريس وليون ، كان في الاقاليم المتحدة مراكز في أمستردام وروتردام وليدن وأوترخت ولاهاي ، تطبع السكتب باللاتينية واليونانية والالمانية والانجليزية والفرنسية والعبرية كما تطبعها بالهولندية . وكانت أمستردام وحدها تملك أربعمئة دار تطبع السكتب وتشرها وتبيعها (١٦) .

ونافس الولع بالفن الغرام بالمال والمساومة على الخلاص الأبدى . وخلع ساكنو المدن الهولنديون ، الذين عروا كنائسهم البروتستانتية من الزخرف ، خلعوا على نسائهم وبيوتهم الزينه التي انتزعوها من بيوت الرب . فاسترضوا زوجاتهم بالمخمل والحرب والجواهر ، ونشروا على موائدهم صحاف الذهب والفضه ، وزينوا جدرانهم بالنسبج المرسوم ، ورفوفهم أوصواويزهم بالخزف أو الزجاج المحفور . وفي ديفات كان الخزافون الهولنديون بعد عام ١٦٥٠ ، الذين استوحوا الخزف الصينى واليابانى ، يصنعون فخارا مزججا . أكثره أزرق على قاعدة بيضاء ، أضفى الجمال المشرق على بيوت كانت من قبل عاربه عرى التزمت الصارم . وقل أن وجدت أسرة هولندية لم تملك على الأقل واحدة من تلك الصور

١٧ . قصة الحضارة

الصغيرة التي جمعت حلم المسكن الهادئ ، النظيف ، وبهجة الأشجار والأزهار والجداول ، قريبي المنال على جدران البيوت .

٣ - ازدهار صور الحياة اليومية

كان العصر البطولي للتصوير الهولندي قد ولى . فالرأى الحددا أكثر نفرا ولكنهم أقل مالا ، لذلك طلبوا صورا صغيرة تتيج لهم أن يشهدوا حياتهم اليومية في خلاصة مقطرة مهيبة ، منقولة بواقعية تبعث لذة التعرف ، أو لمهوسة بمطرفة رقيقة ولكنها مالوفة ، أو مغرية للنفس باستشراف مشهد محرر من مشاهد الطبيعة . وقد لبى المصورون الهولنديون هذا الطلب في رهافة خط وضوء ولون حشدت الصنعة الشديدة التدقيق في حين صغير . وهؤلاء الفنانون معروفون في جميع أرجاء أوروبا وأمريكا ، لأن التنافس اليأس فيما بينهم حملهم على أن يطلقوا سيلا متدفقا سريعا من الصور الصغيرة بثمن رخيص ، وهي صور لا تخلو اليوم منها جدران متاحف . ونحن اذترك الشهادة على وفرة هؤلاء الرسامين لها مش سريع^(*) ، نراه لؤاما أن ننظر نظرة أكثر تريثا الى جان ستين ، المرح رغم حفظه العائر ، والى أعظم مصوري الحياة اليومية جان فرمير ، والى أعظم مصوري الطبيعة الهولنديين ، يعقوب فان رويسدال .

* نيقولا بيشيم : النعمة في الغاية (درسدن) . فرديناند بول : يعقوب أمام فرعون (درسدن) ، جيرارد دو : هجوز في النافذة (فيينا) ، باربنت فايريتوس : يعقوب وبينيامين (شيكاغو) . بارتلموس فان در هيلست : عمده هولندي ، (نيويورك) . بيتر هي هوخ : داخل بيت هولندي (لندن) . فيليب دي كونيكنك : منظر طبيعي (فرانكفورت) . نيقولا مايس : هجوز تنزل (امستردام) . هاربريل ميتسو : سوق الخضر (لندن) . فرانس فان ميريس الأول : صورة ذاتية مع زوجته (لاهاي) . ولیم فان ميريس : التعرف على برسورا (درسدن) . ايرن فان درنر : منظر مقرر (برلين) . جيرار ترپورش : عشاق الموسيقى (لندن) . أدريان فان درفلا : المزرعة (برلين) . ولیم فان درفلا الثاني : زويدرزى (برلين) . جان فينكس الثاني : منظر صيد (لندن) . أدريان فان درفرف : طرد هاجر (هولندا) . فيليب فو فرمان : وقفة جاهدة سيد (دولفسش) .

أما ستين فكان ابن صانع جمعة في ليدن ؛ واشتغل في لاهاي ، ودبلت ،
وهارلم ، وأصبح آخر المطاف صاحب حانة في ليدن ؛ وخلال هذه الفترات
استطاع أن يجمل من نفسه أفضل مصور الأشخاص في الفن الهولندي
باستثناء رمبرانت . وحين بلغ الثالثة والعشرين (١٦٤٩) تزوج مارجريت
ابنة المصور جان فان جوين ؛ ولم تملك من المهر غير وجهها وقوامها ،
ولسكنهما أفاداه بعض الوقت ثم وذهبن ملهمن . وكان ينقد أجرا حقيرا
على صورته حتى أن صيدليا حجز (١٦٧٠) على كل الصور التي استطاع
أن يجدها في بيت ستين وباعها بالمزاد وفاء لدين قدره عشرة جولدبنات .
وصوره الأولى تسجل لذات السكراء وعقوباته . وصورته « الحياة
المنحلة » (١٠) ، وهي مثال ممتاز من صورته ، فيها امرأة نعسانة وأخرى
نائمة من الشراب ، وطفل ينهز الفرصة فيسرق من صوان ، وكلب يأكل من
المائدة ، وراهبة تنطلق بعد دخولها الحانة في عظة عن خطيئة شرب
الروم ، وكل شيء في الصورة مكون ومرسوم بنظام الفن وانسجامه رغم
أنه يصور الفوضى . وموضوع أجمل من هذا يبعث الحياة في صورة أخرى
له أسيئت تسميتها بـ « معرض الوحوش » (١١) ، يرى فيها فتاة صغيرة
تطعم حملا باللبن ، ودجاج الحديقة يشب هنا وهناك ، وطاووس يدلى
ذيله من شجرة ذابله ، والحمام يحط في أعلاها ، ويتمامة تحلق قادمة من
الطريق . هذا كله لحن رعوى يجعل جميع معضلات الفلاسفة تبدو تافهة
لامعنى لها . انه الحياة ، وكل جزئه مبرره الكافي الذي يتجاهل المطلقات .
وبعد أن تجاوز ستين فترة الحانة رسم مشاهد مشرقة للحضارة الهولندية ؛
باطن بيوت مبهجة ، ودروس موسيقى ، وحفلات موسيقى ، ومهرجانات ،
وأسر سعيدة ، والفنان نفسه ، يدخن في « الصحبة المرحبة » (١٩) ،
أو يعزف على العود (٢٠) . فلما فتت في عضده الأجور البخسة التي نقدها
على عمله ، طاد الى بيع الجمعة ، وراح يشرب لينسى ، ثم مات في الثالثة
والخسين خلفا أربعمئة صورة باثرة .

ونظرة إلى صورة واحدة رسمها جان فرميرا وممها « رأس فتاة » (٢١) تكشف عن عالم وفن يكادان يناقضان عالم ستين وفنه . وهذه اللؤلؤة التي يفوق نمنها اللاليء بيعت بالمزاد عام ١٨٨٢ بمجولدين ونصف ، ويقدر ناقد قدير في أيامنا هذه أنها « واحدة من اثنتى عشرة صورة هي أروع صور العالم (٢٢) » وواضح أن الفتاة من بيت طيب وأسرة كريهة ، عيناها خاليتان من الخوف ، لا يغشاهما حتى دهش الشباب الطبيعي ، فهي سعيدة في هدوء ، متيقظة لموسيقى الحياة ؛ وقد قدمها الفنان لنا بصنمة دقيقة في اللون والخط والضوء تجعل من الفرشاة أداة مدهشة للفهم والتعاطف .

وقد ولد فرمير في ديلفت عام ١٦٣٢ ، وحاش هناك على قدر علمنا طوال حياته ومات فيها (١٦٧٥) بالغاً الثالثة والأربعين ، وكاد يكون معاصراً لسبينوزا تماما (١٦٣٢ — ٧٧) . تزوج في العشرين ، وأنجب ثمانية أطفال ، وكان يتقاضى ثمننا طيبا على صورته ، ولكنه عكف عليها في عنايته مستنفدة للوقت ، وأنفق المال الكثير على شراء الصور ، حتى إنه مات مديونا ، واضطرت أرملته إلى التماس المعونة من محكمة التفاضل . غير أن الأربع والثلاثين صورة التي بقيت من صورته توحى بمجوع من رفاهية الطبقة الوسطى . وتظهره إحداها (٢٣) في رسمه لابسا طاقية رقيقة خفيفة ، « وجركينة » متعددة الألوان ، وجوارب طويلة متجمدة ولكنها حريرية ، وقد اشفيخ ردفاه من النعمة . ولا ريب في أنه سكن حيا راقيا في ديلفت ، ربما في مشارفها حيث استطاع أن يلقي « نظرة على ديلفت (٢٤) » وفي هذه الصورة الشهيرة نحس بحبه الجُم لموطنه . ويببدو أنه راض نفسه على البقاء في بيته بقناعة أكثر مما نلاحظه في مصوري زماننا . فحب البيت يتجلى في أكثر التصوير الهولندي ، ولكن البيت في فن فرمير يصبح معبدا صغيرا ، والزوجة معتزة بالخدمات التي تؤديها . وفي لوحته « للمسيح مع مريم ومرثا » (٢٥) تشارك مرثا مريم في الجلوس على المنصة . ولم تعد نساؤه تلك الحزم الثقيلة من اللحم التي نراها أحيانا في الفن الهولندي ، ففبين شيء

من التهذيب والحساسية . بل لقد تجدهن — كما ترى في السيدة الجليلة في صورة « السيدة والخادمة » (٢٦) — فاليات اللباس ، رقيقات القمصات ، مصنفات الشعر في عناية ، أو غنيات بالحرير وآلات الموسيقى ، كما في صورة « السيدة الجليلة إلى العذراوية » (٢٧) (آلة موسيقية) . إن فرمير يصنع من الحياة العائلية ملحمة ، أو قصيدة غنائية ذات لحظات تائية بسيطة طبيعية ، لا مشاهد جماعية ذات نشاط مختلط متعدد ، بل — في أفضل ما رسم من لوحات — امرأة واحدة فقط ، تقرأ رسالة في هدوء (٢٨) ، أو تكب على خياطتها (٢٩) أو تتحلى بقلادة ، أو تنام على خياطتها (٣٠) ، أو مجرد صبية وابتسامتها (٣١) . لقد سجل فرمير بفن كامل شكرانه لامرأة طيبة وبيت سعيد . ولكنه أوشك أن يكون نسياً منسياً في القرن الثامن عشر ، ونسبت رواثه الصغيرة إلى دى هوخ ، أو تيربورخ ، أو رمبرانت ، ولم يبعث من مثواه إلا في ١٨٥٨ . واليوم لا يعلمو على اسمه غير اسم رمبرانت وهالس في التصوير الهولندي .

بقي شيء واحد تفتقده في هؤلاء المصورين للحياة اليومية — هو حياة الطبيعة التي أحاطت بالمدن المتطفلة عليها . فايطاليا ، وبوسان في ايطاليا ، كانا قد التقطتا شيئاً من الهواء النقي والحقول الطليقة ، وستكتشفهما إنجلترا في القرن التالي ، أما المصورون الهولنديون فقد تركوا الآن برهة بيوتهم وباطنهم النظيف أو المرح ، ووضعوا حواملهم ليقتنصوا سحر الغدران المتروقة ، وطواحين الهواء الساكنة الوادعة ، والمزارع المزهرة ، والأشجار التي تخجل تعجلنا المحموم ، والمرآكب الغربية تنهادى في الشهور المزدحمة ، والسحب التي تلون السماء بشتى الأشكال . والعالم كله يعرف لوحة « طريق ميدلهارانس » التي رسمها ماينديرت هوبيما — وهي منظر يتلاشى في فضاء لانهايه له ، ولكن اجمل منها بكشير لوحته « طاحونة المساء ذات السقف الاحمر الكبير » (١٢) . وقد وجد ألبرت كوبب الالهام في الابقار السميننة تخوض المستنقعات الوافرة الخضرة (٢٣) ، والخليل تقف ظامئة عند خان ، وفلوع

المراكب تحتفى فوق البحر (٣٤) . وتمجيب سليمان فان رويسدال من ارتعاش
المياه التي تمكس وتقلب صورة الزوارق والأشجار (القناة والمدية) (٣٥) ،
وعلم ابن أخيه أن يتفوق عليه .

أما ابن أخيه هذا ، واسمه يعقوب فان رويسدال ، فقد ترعرع في هارلم ،
وترك لنا « منظرا لهارلم (٣٦) » لا يقل وقعا في نفس الناظر عن لوحة فرمير
« ديلقت » ، ويفضلها نقلا لتمقد المدينة الكبيرة بما فيه من اتساع وزحمة .
ثم انتقل إلى امستردام واصبح عضوا في الاخوان المينونيين ، ولعل تصوفهم
أعان فقره على إشعاره بالجانب المأساوى للطبيعة التي أحب أن يفنى فيها .
وعرف أن تلك الحقول ، والغابات ، والسموات التي تعمد بالسلام ، تستطيع كذلك
أن تدمر ، وأن للطبيعة نزوات من الغضب قد تقلع فيها الرياح المجنونه حتى أعتى
الاشجار واصلبها وتمزقها من جذورها ، وأن الشقوق المهلكة قد تتكون
في الارض الطيبة ، وأن البرق قد ينفث ناره القاتله على كل شكل من أشكال
الحياة في لامبالاة ثابتة . فصورته « مستط المساء على الجرف (٣٧) »
ليست أنشودة رعوية انما هي ثورة البحر الغاضبة على صخور أقسم أن يحطمها
ويغرقها أوبر بها ، ولوحة « العاصفة (٣٨) » هي البحر يلطم عدوه اليابس في
غضب ، ولوحة « الشاطئ » (٣٩) لا تصور شاطئاً للهو بل ساحلا كقدرته
أمواج طالية تحت سماء مكفهرة ، ولوحة « الشتاء (٤٠) » لا تعرض مرح
الترحلق ، بل كوخا حقيرا يرتجف تحت غيوم منذرة ، وحفره الرائع « اشجار
البلوط » يجرد هامن وقارها ليرى أغصانها شعثاء أوطارية . وسيقانها وقد أنحنها
الزمن القاسى بالجروح وشوه شكلها . ولوحة « جبانة اليهود (٤١) » هي
ذاتها صورة للعوت — أسوار متهدمه ، وشجرة تموت ، ومياه فيضان تجرى
فوق القبور . وليس مرد هذا كله أن رويسدال كان دائما مكتئبا ، ففي لوحة
« حقل القمح (٤٢) » نقل باحساس عميق هدوء طريق ريفى ، وركبة المصايل
الوفيرة ، وفرحة الفضاء المتراعى . ويبدو أن الهولنديين أحسوا أن أرضهم
ومناخهم قد افترت عليهما صور رويسدال ، فلم ينقلوه عليها إلا أجرا بخسا .

وتركوا صاحبها يموت في ملجأ للفقراء . واليوم يضعه بعضهم في مكان لا يفضله فيه غير بوسان بين مصورى الطبيعة في جميع العصور (٤٣) .

ثروة لا حد لها في حجرة صغيرة — رمبرانت وهالس ، فرمير ورويسدال ، سبينوزا وهويجنس ، ترومب ودرويتز ، جان دى ويت ووليم الثالث ، كلهم في زمن واحد داخل حدود ضيقة ، يكدحون غير آمنين خلف الكشبان ، يصونون فنون السلم وسط نذر الحرب . تلك هى هولندية في القرن السابع عشر . و « ليست العبرة بكبر الحجم » .

٤ — جان دى ويت : ٦٢٥ - ٧٢

بعد أن ظفرت الأقاليم المتحدة باستقلالها عكفت عقب معاهدة وستفاليا على طلب المال واللهو والحرب . كان أهلها أقل أمم الأرض اكتفاء بأنفسهم ، فحاصيل أرضها لا تقيم أكثر من ثمن سكانها ، وحياة البلاد تعتمد على التجارة الخارجية واستغلال المستعمرات ، وهذان يعتمدان على بحرية قادرة على حماية السفن والمستوطنات الهولندية . وكان تفوق أسبانيا البحرية قد ولى بهزيمة الأرمادا الأسبانية ، ونشرت البحرية الإنجليزية التي ازدهاها النصر قلوبها فوق أرجاء مترامية من المحيط . ومالبت التوسع التجارى الإنجليزي أن اصطدم بالسفن الهولندية والمستوطنات الهولندية في الهند وجزر الهند الشرقية ، وأفريقيا ، وحتى في « استردام الجديدة » التي ستصبح نيويورك . وأحس بعض الإنجليز ، الذين لم تهدأ فيهم بعد حمية هوكنز ودريك ، أن هؤلاء الهولنديين الجبابرة ينبغي أن يحصل محهم بريطانياون جبابرة ، وأن هذا ميسور بنصر أو بصرين بحريين . وقد ذكر إيرل كلارندون في تقرير له « أن التجار ألهوا الحديث عن الفائدة الكبرى التي يجنونها من حرب سافرة مع الهولنديين ، وعن سهولة قهرهم ، وعن حجم للتجارة التي يمكن أن ينقلها الإنجليز بعد ذلك » (٤٤) وراقت كرومويل الفكرة .

ففي ١٦٥١ أقر البرلمان الإنجليزي قانونا للملاحة يحظر على السفن الاجنبية أن تجلب لأنجلترا أى بضاعة إلا ما ينتجه بلدها . وكان الهولنديون يشحنون إلى إنجلترا حاصلات مستعمراتهم ، فتوقفت الآن هذه التجارة الراجحة . وأرسلوا بعثة إلى لندن للحصول على بعض التعديل في القانون ، فلم يكتب الإنجليز برفض الطلب ، بل طالبوا بأن تخفض المراكب الهولندية أعلامها إذا التقت بالمراكب الإنجليزية في «المياه الإنجليزية» (أى جميع المياه بين إنجلترا وفرنسا والأراضى المنخفضة) اعترافاً بسيادة الإنجليز على تلك البحار . وعاد المبعوثون الهولنديون بخفي حنين إلى لاهاي . وفي فبراير ١٦٥٢ استولى الإنجليز على سبعين سفينة تجارية هولندية وجدوها في «المياه الإنجليزية» . وفي ١٩ مايو التقى أسطول إنجليزي بقيادة روبرت بليك بأسطول هولندي بقيادة مارتن ترومب ، ورفض ترومب خفض علمه ، فهاجمه بليك ، وانسحب ترومب . وهكذا بدأت «الحرب الهولندية الأولى» .

وأوشكت انفصالية الأقاليم ، المفروض أنها متحدة ، أن تجر عليها الدمار . ذلك أن الزطامة الحربية الموحدة التي أتاحها لها من قبل أمراء أورنج كانت قد انقطعت ، وأصبح المجلس التشريعي للولايات جمعية للمناقشة والجدل بدلا من أن يصبح دولة . أما الإنجليز فكانوا يملكون حكومة قوية مرمزة يرأسها رجل شديد البأس هو كرومويل ، وكان لهم بحرية أفضل ، وقد أوتوا جميع الميزات التي حبتهم بها الجغرافيا والرياح الغربية السائدة . فدمروا أساطيل الصيد الهولندية ، واستولوا على المراكب التجارية الهولندية ، وهزموا أمير البحر الهولندي درويتر تجاه ساحل كنت . وانتصر ترومب على بليك تجاه دنجيس (٣٠ نوفمبر ١٦٥٢) ، ولكنه مات في المعركة في يوليو التالي . وكانت نتيجة سنة واحدة من الحرب إثبات تفوق إنجلترا بالبرهان الدائم . وكاد حصار الإنجليز للساحل الهولندي يشل الحياة الاقتصادية في الأقاليم المتحدة . وأشرف الألوف سكانها على الهلاك جوعا وهددوا بالتمرد .

في هذه المرحلة الحاسمة التمسة اضطلع جان دي ويت بزعامة البلاد، وكان ينتمى إلى أسرة بعيدة العهد بالتفوق في التجارة والسياسة الهولنديتين . وقد انتخب أبوه يعقوب دي ويت عمدة على دوردشت ست مرات . أما جان فقد تلقى كل التعليم الميسور ، وجاب أرجاء فرنسا مع أخيه الأكبر كورنييليس ، وانتقى بـكرومويل في إنجلترا ، ثم استقر في لاهاي محامياً (١٦٤٧) . وبعد ثلاث سنوات كان أبوه واحداً من الزعماء الجمهوريين الذين أودعهم السجن وليم الثاني أمير أورنج ، رئيس الدولة ، رعبسة في توطيد سلطته السياسية والحربية على جميع الأقاليم . فلما مات وليم الثاني (١٦٥٠) رفض المجلس التشريعي قبول ابنه الذي ولد عقب وفاته خلفاً له ، ربما متأثراً في ذلك بإقامة إنجلترا حكومة جمهورية فيها (١٦٤٩) بصورة بدا أن التوفيق حالها ، وألغى منصب رئيس الدولة . وأصبحت المرشحة الداخلية للأقاليم المتحدة صراعاً بين الروح التجارية الجمهورية المسالمة التي يمثلها دي ويت ، والروح الأرستقراطية العسكرية التي أزمع أن يحميها بعد قليل الشاب المتحمس وليم الثالث .

وفي ٢١ ديسمبر ١٦٥٠ ، انتخب جان دي ويت — وهو لا يزال في الخامسة والعشرين — كبيراً لولاية دوردشت ، وممثلاً لها في المجلس التشريعي للأقاليم المتحدة . وفي فبراير ١٦٥٣ عينه المجلس حاكماً أعلى للجمهورية ، وناط به مهمة عسيرة هي مفاوضة إنجلترا المنتصرة على الصلح . وكان كرومويل قاسياً لا يرحم ، فطالب بأن يعترف الهولنديون بالسيادة الانجليزية ويحميوا العلم الانجليزي في القنال الانجليزي ، وبأن يسلموا بحق القباطنة الانجليزية في تفتيش السفن الهولندية في البحر ، وبأن يؤديوا رسوماً نظير امتياز الصيد في المياه الانجليزية ، وبأن يدفعوا تعويضاً عن قتل الهولنديين للانجليز في أمبوينا عام ١٦٢٣ ، وبأن ينحوا بصفة دائمة عن الوظائف أو السلطة جميع أفراد بيت أورنج — الذي قطع على نفسه عهداً بأن يرد أسرة ستيوارت إلى عرش إنجلترا لما بينه وبينها من مصاهرة . وحذف

دى ويت هذا البند الأخير من المعاهدة كما قدمت للمجلس التشريعى وكما تصدق عليها منه (٢٢ أبريل ١٦٥٤) ، ثم أقرع المجلس التشريعى لاقليم واحد — هو اقليم هولندة — بقبول المعاهدة بما فيها هذا البند . ولم يفتقر له ولیم الثالث فعلته هذه قط .

ثم وطد دى ويت مركزه بالزواج من وينديلا بيكر الغنية ، وأصبح عن طريقها صهرا للأمراء التجارة فى أمستردام ، وبتأيسدهم شغل أهم المناصب فى هولندة هو وأبوه ، وأخوه ، وبنو عمومته ، وأصدقائه ؛ وسرطان ما قبض على زمام الحكم كله فى الاقليم . وقبالت أقاليم أخرى زعامته على مضض ، لأن هولندة التى أغنتها موانئها كانت تدفع سبعة وخمسين فى المائة من نفقات الاتحاد ، وتقدم معظم الاسطول الهولندى ، ولم يكن محبوبيا من جماهير الشعب . ولكن حكمه كان مستنيرا وكفوؤا . فقد حد من النفقات الباهظة ، وخفض الفائدة على الدين الفيدرالى ، وأجرى فحفا شاملا للأسطول ، وبنى سفنا أفضل ، ودرّب عاملين جددا فى البحرية . واذ كان يعكس مشاعر التجار ، فانه كافح فى سبيل السلام ولسكنه استعد للحرب . وفى ١٦٥٨ ، ثم فى ١٦٦٣ ، أعيد انتخابه حاكما اعلى للاقاليم المتحدة . وقد وقع من نفوس المراقبين باخلاصه لمهام الحكم ، وببساطة مسلكه وتواضعه ، وبنقاء حياته العائلية . وبسرت له ثروة زوجته العيش فى منزل نفيم يستطيع أن يستقبل فيه المبعوثين الأجانب فى جو مهيب ، ولسكن ذلك المنزل كان مركزا للثقافة الهولندية أكثر منه مركزا للمظهر المترف ، فقد امتزج فيه الشعر بالسياسة ، ونوقش العلم والفلسفة ربما بحرية لا يطيقها ناخبودى ويت السكلفنيون . وحتى سبينوزا ، ذلك المهرطق المرهوب ، وجد صديقا وفيا وحاميا له فى الحاكم الأهل .

لقد كانت مأساته دائما أنه أحب السلام أكثر من الحرب ، بينما كان جيران الجمهورية الغنية يكتلون قوام للقضاء عليها . وفى ١٦٦٥ رد تشارلو

الثانى الى عرش انجلترا ، فأوصى جان دى ويت مشدداً بأن يرضى عن ابن أخته ولیم أورنج الثالث ، وبعد قليل طالب بإلغاء « قانون الإبعاد » الذى أقصى بمقتضاه ولیم عن المناصب ، ووافق دى ويت وهكذا مهد الملك الاستيوارتى لسقوط أسرة ستيوارت على غير قصد منه . وفى اكتوبر ١٦٦٤ ، استولت حملة انجليزية على مستعمرة نيو أمستردام الهولندية ، وأطلقت عليها اسماً آخر هو نيو يورك تكريماً لدوق يورك (جيمس الثانى مستقبلاً) وكان يومها قائد البحرية الانجليزية . واحتج المجلس التشريعى للأقاليم المتحدة ، ولم تعبأ إنجلترا بالاحتجاج ، وفى مارس ١٦٦٥ بدأت الحرب الهولندية الثانية .

وقد برر الموقف ما سبق أن اتخذ دى ويت من استعدادات . ذلك أن ضعف القيادة قد انتقل من المجلس التشريعى إلى حكومة تشارلز الثانى الغافلة العاجزة ، وبينما كان الملك المرح يراقص خليلته ، ظفردى ويت بالثناء حتى من أعدائه على الهمة والإخلاص اللذين بذلهما لسكر نواحي التنظيم الحربى وتفصيله . فقد أبحر غير مرة مع الاسطول ، وعرض نفسه لسكر مخاطر المعركة ، وألهم الملاحين بشجاعته وغيرته . ولم تكن البحرية الهولندية إلى ذلك الحين كفتوا للبحرية الانجليزية فى السفن أو الرجال أو النظام ، فأوقمت البحرية الانجليزية بقيادة دوق يورك هزيمة حاسمة بالبحرية الهولندية فى أول لقاء كبير فى الحرب (لوفستوفت ، ١٣ يونيو ١٦٦٥) . على أن المواطنين الهولنديين الصابرين أعادوا بناء أسطولهم ولوا عليه رجلاً من أقدر وأجراً أمراء البحر الذين عرفهم التاريخ . وفى يونيو ١٦٦٧ قاد هذا الرجل ، وهو ميشيل أدريانسون درويتر ، ستا وستين سفينة إلى نهر التيمز ، واستولى على قلعه شيرنيس (على نحو أربعين ميلاً شرق لندن) ، وحطم الحواجز التى تمتد فى الدخول فى نهر ميدواى (الذى يصب فى التيمز عند شيرنيس) وأخذ ، أو أحرق ، أو أغرق ست عشرة سفينة حربية كانت راسية هناك دون تأهب لمثل هذا الائر الوقع (١٢ يونيو ١٦٦٧) . وإذ

لم يكن بتشارلز الثاني ولع بالحرب ، فقد أمر دبلوماسييه أن يعرضوا على الهولنديين صلحاً مقبولاً . وفي ٢١ يوليو ١٦٦٧ وقعت الدولتان معاهدة بريدا ، وبمقتضاها نزل الهولنديون لانجلترا عن نيويورك التي خالوها غير هامة ، ووافقوا على أن يحياوا العالم الانجليزى فى المياه الانجليزية ، ونزلت انجلترا للهولنديين عن مستعمرة سورينام (جيانا الهولندية فى أمريكا الجنوبية) وعدلت قانون الملاحة لصالح التجارة الهولندية . وكانت المعاهدة نصراً معتدلاً لدى وبت وبلغت به قمة نجاحه .

غير أنه ارتكب الآن سلسلة من الأخطاء القاتلة ، فقد زاد من تنفير مؤيدى وليم الثالث بأن أجاز فى المجلس الإقليمى لهولندا (٥ أغسطس ١٦٦٧) « مرسوماً دائماً » يمنع أى حاكم لآى إقليم من تولى قيادة الجيش أو البحرية العليا للاتحاد . فاستقال على إثر ذلك أتباع الأمير الشاب من الجيش وتركوه خلوا من القواد المحنكين . ولسوء الحظ وقع هذا الحدث ، الناجم عن المنافسة بين أسرتين ، بينما كانت فرنسا تغزو الأراضى المنخفضة الأسبانية ، فهددت بذلك المصالح الحيوية الأقاليم المتحدة . فلأن فرنسا هيمنت على الأقاليم الجنوبية لأسرعت بفتح الشلت للتجارة الأجنبية من جديد ، فإذا انتعشت بذلك أتتورب تحددت السيادة التجارية لأمستردام ، وأصبح اقتصاد الأقاليم الشمالية كله فى خطر . ثم كم من الزمن سيقف لويس الرابع عشر عند الحدود الهولندية لا يتجاوزها ؟ لو أن رأيه استقر على أن يلتهم الأقاليم المتحدة ، ويستولى على مصاب الراين ، لما بقى للبلد فى الواقع وجود ، ولقضى على البروتستنتية الهولندية قضاء مبرماً .

وعرض دى وبت على الملك المعتدى سلسلة من الحلول الوسط ، ولكنه رفضها . فاتفق مع أنجلترا (٢٣ يناير ١٦٦٨) ، ثم مع السويد ، على حاف ثلاثى للدفاع المشترك ضد التوسع الفرنسى . ووافق لويس فى لبافة على إنهاء « حرب الأيلولة » (الوراثة الأسبانية) شريطة أن يستبقى مطلقاً من اللدن

والحصون التي استولى عليها في فلاندر وإينو . وارتضت هذه الشروط
أنجلترا والسويد ، ثم الأقاليم المتحدة ، في معاهدة إكس - لا - شابل
(٢ مايو ١٦٦٨) . وبدأ أن دبلوماسية دى ويت جنبت البلاد الخطر ، وفي
يوليو وانتخب للمرة الرابعة ليشغل منصب الحاكم الأعلى للجمهورية فترة
خمس سنوات أخرى .

ولسكنه أخطأ استقراء سياسات ملكي فرنسا وأجلترا . ذلك أن لويس
لم يغتفر للهولنديين قط تدخلهم في غزوه للأراضي المنخفضة الأسبانية .
فأنسى أنه « إن ضايقتة هولنده كما ضايقت الأسبان فسيرسل رجاله بالمحارف
والمعاول ليقذفوا بها في البحر (٤٥) » ، ربما يفتح الجسور البحرية عليها .
كانت تغيظه الجمهورية ، وكان يطمع في الراين ، فعقد النية على تدمير تلك ،
والسيطرة على هذا . وزادت الصراع شدة حرب التعريفات الجمركية التي
نشبت بين الخصمين ؛ فقد فرض كولبير رسوما مانعة على البضائع الهولندية
التي تدخل فرنسا ، ورد الهولنديون عليها بمثلها . ولكن الذخيرة الحربية
استثنيت استثناء بارعا من هذه القيود ؛ ذلك أن لوفوا ، وزير الحربية
الفرنسي ، أقنع رجال الصناعة الهولنديين بأن يبيعوه مقادير هائلة من المتاد
الحربي (٤٦) ، وفي الوقت نفسه امتنع رجال الأعمال الهولنديون عن الموافقة
على الضرائب التي أراد دى ويت فرضها لتزويد الجيش بالأمداد والمؤن .
وأثبت السلك الدبلوماسي الفرنسي حذقه ، أو تراهه ، بهزله إنجلترا والسويد
عن تحالفهما مع الأقاليم المتحدة . فوافق تشارلز الثاني في معاهدة دوفر
السرية (١ يونيو ١٦٧٠) على التخلي عن الحلف الثلاثي والانضمام إلى لويس
في حربه مع الهولنديين . أما السويد فقد انسحبت من الحلف في ١٦٧٢
لحاجتها للمعونة الفرنسية ضد الدنمرك وألمانيا ، ووعدت أسبانيا ،
والإمبراطورية ، وبراندنبورج ، الجمهورية بالمساعدة ، ولكن ما كان تحت
نصرها من قوات كان أضال أو أبعد من أن يكون له كبير وزن أمام

القوات المجنّدة الضخمة التي أطلقت الآن على الأقاليم المتحدة برآ وبحراً . وطاد
دى ويت يعرض التنازلات والحلول الوسط ، فرفضها لويس

وفي ٢٣ مارس ١٦٧٢ بدأت إنجلترا الهجوم على الجمهورية الهولندية ،
وفي ٦ أبريل أعلنت فرنسا عليها الحرب . وسرطان مازحف نحو ١٣٠.٠٠٠
مقاتل على الدولة الصغيرة يقودهم تورين ، وكونديه ، ولكسمبور ، وفونان ،
ولويس نفسه . يقول فولتير « لم يشهد الناس من قبل جيشاً ضخماً كهذا
الجيش (٧) » ، واختارت القوة الفرنسية الرئيسية الرئيسية ، باستراتيجية بارعة وغير
متوقعة ، الأراضي الألمانية — مهدئة نائرة القرى بـ « الهدايا » — لتهاجم
النقط الأضعف تحصيناً . وفي ١٢ يونيو ، وتحت نيران الهولنديين وبصر
الملك ، عبر الفرنسيون الراين ، وهم يسبحون عرض الأقدام الستين التي لم
يسمح لهم عمقها أن يخوضوها ؛ وأصبح هذا حدثاً محبباً تتناوله الصور
والأيقونات الملكية . وزحفت الجيوش الملكية شمالاً إلى قلب الأقاليم
للمتحدة ، فاستولت بسهولة على المدينة تلو المدينة . واستسلمت أو ترخت
دون مقاومة ، وأذعن أقلية أوفريسيل وجلدرلاند ، ولم يبق بعد قليل غير
أمستردام ولاهاي . ولم تجد كثيراً تلك الهزيمة التي أوقفها درووتر في ٦
يونيو بالأسطولين الإنجليزي والفرنسي مجتمعين في خليج ساوثوولد .
وطلب دى ويت الصلح ، فطالب لويس بتعويض ضخم ، وبسيطرة الفرنسيين
على جميع الطرق الهولندية البرية والبحرية ، وبرد الكاثوليك إلى جميع أرجاء
الجمهورية . ورفض الهولنديون هذه الشروط لأنها لا تفضل العبودية ،
فلجأوا إلى دفاعهم الأخير : وفتحوا الجسور ، وأدخلوا البحر عدوهم القديم
صديقاً منقذاً ، وما لبثت المياه أن تدفقت على اليابس ، وتمقر الفرنسيون
عاجزين أمام هذا الفيضان الذي أخذهم على غرة .

ومع هذا فقد خربت البلاد ، فكانت جيوش أسقف مونستر وناخب
كولونيا ، المتحالفين مع لويس ، تزحف دون طائق على إقليم أوفريسيل ،

والسفن الفرنسية والإنجليزية تغير على التجارة الهولندية رغم أنف درويتر ، وأشرفت الحياة الاقتصادية للدولة المحاصرة على الانهيار . أما دي ويت فقد كافح خلال هذه الشهور القاسية كما لم يكافح أى رجل قبله فى تاريخ هولنده — فجمع الأموال ، وجيز الأسطول وزوده ، ووقف إلى جوار درويتر فى معركة خليج ساوثوولد ، وحاول بالبعثة تلو البعثة أن يفاوض على صلح ينقذ وطنه . وفى يونيو ١٦٧٢ عرض على لويس أن ينزل له عن ماسترشت واجزاء من برابانت الهولندية ، وأن يدفع كل نفقات الحرب . ولكن لويس اردرى هذا العرض أيضاً ، ولما سمع مواطنوه بأمر العرض نددوا به رجلا بيت استسلام الخيانة للويس (٨) . وألقى عليه الشعب الآن كل تبعة ما أصابهم من نكبات . واتهموه بالنقمة الساذجة للمستهتزة فى وعود تشارلز الثانى ولويس الرابع عشر ، ورموه بتعيين أقاربه فى أكثر من عشر وظائف مجزية ، وفوق هذا كله لم يستطيعوا أن يغتفروا له حرمان بيت اورنج من امتيازاته الحربية والسياسية التى حفظت على الأقاليم الهولندية حريتها طوال قرن من الزمان . ثم لاموه على عجز قواده البورجوازيين وجبنهم . ورماء التساوسة الكلفنيون بأنه ملحد مقنع ، وتابع لديكارت وصديق لسبينوزا (٤٩) . وحتى طبقات التجار التى كانت من قبل سنده الأكبر اقلبت عليه الآن واتهمته بأنه منظم الهزيمة .

وشاركه أخوه كورنيليس فى تلقى بغض الجماهير وشتائمها ، وهو الذى قامه من قبل مكافآت المنصب وأعباء الحرب ومخاطرها . وفى ٢١ يونيو ١٦٧٢ بدلت محاولة فاشلة لاغتيال جان ، وبعد يومين تلتها محاولة أخرى لقتل كورنيليس . وفى ٢٤ يوليو قبض موظفو لاهاي على كورنيليس بتهمة التامر على أمير اورنج وفى ٤ أغسطس استقال جان من منصبه كما أعلى . وفى ١٩ أوغسطس عذب كورنيليس وحكم عليه بالنفى . وشق جان طريقه خلال المدينة للمادية الى سجن الجيفانجيبورن ليرى أخاه رغم أنه حذر بأنه يعرض حياته للخطر . ومالبت جمع من

الغوغاء أن احتشد خارج السجن يحرضه رئيس شرطة وصانغ وحلاق . وكان هناك حارس مدنى كلف برد الغوغاء ولكنه شاركهم حقدهم على الأخوين دى ويت ، فلم يبد أى مقاومة حين حطمو أبواب السجن واندفعوا الى داخله . وقبضوا على جان وكورنيليس ، وجروهما الى الليدان ، وضربوهما حتى الموت ، وعلقوا جثتهما على عمود نور ورأساهما . مكسان (٢٠ أغسطس ١٦٧٢) . وماتت الجمهورية الهولندية بهوتهما ، وطاد بيت أورنج الى السلطة من جديد .

٥ - وليم أورنج الثالث

نشأت ماري ستيوارت ولدها على لون مكنتيب من ضبط النفس يتقرب فى صمت فرصته حتى يأتى التجلد بالنصر ، وذلك بعد أن حطم روحها إعدام أبيها تشارلز الأول (١٦٤٩) ، وموت زوجها الشاب وليم أورنج الثانى (١٦٥٠) ، والغاء منصب رئاسة الدولة ، واقضاء بيت أورنج عن الوظائف . هذا الصبي الهزيل الجسد ، الذى أحدق به فى تنومه الأعداء المكلفون بحراسته ، والذى ورث رغم ذلك عن وليم أورنج الأول شعاره «سأقاوم» - نقول انه شب فقى عليلا ينجى وراء وجهه الجامد نارا مستعرة من العزيمة والثأر . واذ كان صارما ، مؤدبا . مجاملا فى برود . فقد زهد فى اللهو والمرح ، ومارس الرياضات الخلوية علاجا لصداعه المتكرر ولتعرضه لنوبات الاغماء . لقد كان إناء ضعيفا لتلك الروح التى تستولى على عرش إنجلترا وتؤدب ملك فرنسا .

وذهبت أمه الى إنجلترا فى ١٦٦٠ ابتهاجا بتتويج أخوها ، وماتت هناك بالجدرى فى ليلة عيد الميلاد . وفى ١٦٦٦ أعلنت حكومة انليم هولنده الأمير ذا الستة عشر عاما قاصرا تحت وصاية الدولة ، واستبدل جان دى ويت بأوصيائه ومعلميه المحبوبين اشخاصا اكثر استجابة لسياسة المجلس

الاقليمي (٥٠). وكان كرهه وليم لدى ويت يزداد على الايام . وفي قمة سلطان جان ، أدت الأمير من رقابة أوصيائه الجدد وركب جواده من لاهاي الى بيرجن أوب - زوم (١٦٦٨) ، ثم استقل زورقا الى زيلنده ، وكانت أكثر الأقاليم ولاء لأجداده وحياء سكانها صمتة مدلبورج بمظاهرات كبيرة تقريظ حبا واخلاصا . فتولى دون تردد أو مقاومة رئاسة لمجلس الاقليمي فيلنده . فلما طاه الى لاهاي أعلن انه بلغ الآن رشده في عيد ميلاده الثامن عشر (٤ نوفمبر ١٦٦٨) ، وأنه منذ الآن سيستغني عن الأوصياء الذين عينهم له مجلس هولنده . ولكن المجلس رفض سحبهم ، فظهر لهم ، ولكنهم بقوا . وترب وليم فرمته . وقد وافته حين اكتسحت الجيوش الفرنسية والألمانية الأقاليم الهولندية ، واستسلمت الجيوش الهولندية بلدا بعد بلد ، وبدأ أن لاهاي ذاتها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، وعين المجلس التشريعي وليم قائدا عاما للاتحاد (٢٥ فبراير ١٦٧٢) ، مدعنا لمطالب المسكرين ، ومؤملا أن تعود الى الأمة وحدتها ومعنويتها برد بيت أورنج الى مكان القيادة وفي ٢ يوليو انتخب مجلس زيلنده وليم حاكما لاقليمهم ، ضاربا بالمرسوم الدائم عرض الحائط ، وفي ٤ يوليو هذا المجلس هولنده حذوه ، وفي ٨ يوليو عين قائدا أعلى لقوات الاتحاد المسلحة في البر والبحر . وقد ظهر معدنه حين عرض ملك فرنسا الصلح نظير تعويض بلغ ستة عشر مليون فلورين ، والنزول عن مساحات كبيرة لفرنسا ، ومونستر ، وكولونيا ، وقدم عرض سري بالاعتراف بوليم ملكا على الباقي . واتجه اليه مجلس هولنده يطلب النصيحة فأجاب ، « خير لنا أن نقطع إربا من أن نقبل هذه الشروط (٥١) . » وحين حضر دوق بكنجهام الثاني من انجلترا ليبحث وليم على الصلح وقاله « الا ترى أن وطنك قد ضاع ؟ » أجاب « ان وطني في خطر عظيم ، ولكن هناك سبيل مؤكد لمنعه من الضياع ، وهو الموت في آخر خندق (٥٢) » . ومع ذلك ففي حكمة تستغرب من قتي في الثانية والعشرين ، اشار بالمناوشات الصابرة المجاملة مع الانجليز ، ولعله رأى آثما أن في التعاون

بين الانجليز والهولنديين الأمل الوحيد لكبح اعتداءات فرنسا . واتخذ من أنتدابيرما يكفل توثيق الروابط بين الأقاليم المتحدة ، والامبراطورية ، وبراندينبورج . وكانت الخطوط العريضة للحاف الأعظم تشكل في ذهنه . ومضى الى المقر الرئيسي للجيش ، لذلك كان غائبا عن لاهاي حين قتل الأخوان دي ويت . والظاهر أنه لم يكن ضالعا في تدبير هذه الفعلة ، التي ربما لم يدبرها أحد ، ولسكنه لم يخف ارتياحه حين سمع بنيتها ، وحمى أفرادها الذين قادوا العوغاء ورتب لهم معاشا (٥٣) . ثم حاول الأذ أن يكون قائدا كفتوا ، فلم يوفق قط في محاولته ، غير أن المقاتلين المحنكين الذين انضوا تحت لوائه في حماسة أعادوا تنظيم الجيش والبحرية ، وبدأت الانتصارات ترجح الهزائم ، وتفوق درويتر وكوريليس ترومب (بن مارتين) على الأسطولين الانجليزي والفرنسي في شونفيلت وكيكند وين (١٦٧٣) ، وصد الغزاة الألمان عند جروننجن ، واستولى عليهم على . باردن ، وطهرت أقاليم جلدرلاند وأوترخت ، وافرسل ، من العدو . وراح الفرنسيون يتقهقرون في كل مكان تقريبا ، وأنقذت الأقاليم المتحدة ، مؤقتا على الأقل ، فهلت لوليم منقذاتها .

ثم أضاف الى هذه الانتصارات دبلوماسية . ففي ١٩ فبراير ١٦٧٤ أوقع إنجلترا بأن تبرم معه صلحا منفردا إذ وافق على أن يدفع لها تعويضات حربية قدرها مليونتا فلورين ؛ وفي ٢٢ أبريل و ١١ مايو وقع معاهدتين مع مونستر وكولونيا ، ثم اكتمت التحالف القائم بين الأقاليم المتحدة ، وأسبانيا ، وبراندينبورج ، والدنمرك ، والامبراطورية ، ضد فرنسا التي أصبحت الآن معزولة . وكانت الضربة الأخيرة ظفروه بيد ماري ، كبرى بنات جيمس دوق يورك وشقيق ملك إنجلترا . وتقاربت الآن الدولتان البروتستانتيتان الكبريان ، وراحت الشبكة تحكم خيوطها حول فراسا ، ولم يكن أمرا هيئا أن يكون لماري حق في وراثة العرش الانجليزي لايتقدم عليه غير حق أبيها فيه . وندرفي التاريخ أن دبر حاكم صغير السن كوليم مثل هذه الخطة البعيدة النظر ، ولا حقق لها نجاحا كهذا النجاح .

على أن الفرنسيين جددوا هجومهم خلال ذلك ، فاستولوا على إيبروغنت ، وزحفوا نحو الحدود الهولندية . وهزم أسطول فرانسى درويتر نجاه شاطىء صقلية (٢٢ أبريل ١٦٧٦) ، وبعد أسبوع مات درويتر متأزراً بجراحه . وعرض لويس الصلح على الأقاليم المتحدة بشروط مغرية : أن يرد كل الأراضى الهولندية التى استولى عليها الفرنسيون ، شريطة أن توافق الأقاليم المتحدة على احتفاظه بفراش - كوتيه والورين . واحتج الامبراطور ، وبراندينبورج ، والدمرك على هذا الصلح ، وأيدهم وليم ، ولكن المجلس التشريعى الذى غلبت عليه المصالح التجارية تغلب على رأيه ، وتخلّى عن حلفائه ، ووقع مع فرنسا صلح نيميغن المنفصل (١٠ أغسطس ١٦٦٧) .

أما وليم فقد نذر إلى الصلح على أنه بمجرد هدنة ، وكافح طوال السنوات العشر التالية ليعيد بناء الحلف وكبح انتجار الهولنديون طلعه العسكرية ، محتجين بأن الأقاليم المنهكة فى حاجة لأن تستريح من النضال ، وأن الرخاء فى طريقه إليها . على أن حدثين وقعا عام ١٦٨٥ فاستغلها وليم ذلك أن لويس ألغى مرسوم نانت ، فاحتشد الهيجونوت المضطهدون فى الأقاليم المتحدة ، وتزعموا دعوة نشيطة لتوحيد الدول البروتستانية ضد فرنسا . وفى إنجلترا كشف جيمس الثانى ، بعد أن تولى عرشها ، عن أهله فى رد الأمة إلى الكاثوليكية ، فدبر البروتستنت الإنجليز عزله ، وبذلك يحل حق ماري زوجة وليم فى العرش . وكان وليم قد عشق اليزابيث فيايميه ، صديقة ماري (٥٤) الحبيبة ، ولكن ماري فقرت له ، ووافقت على طاعة زوجها بوصفه ملكاً أن هى أصبحت ملكة على إنجلترا . وفى ١٦٨٦ أفلح وليم فى تنظيم حلف مع الامبراطورية ، وبراندينبورج ، وأسبانيا ، والسويد ، للدفاع المشترك . وفى ٣٠ يونيو ١٦٨٨ دعا الزعماء البروتستنت الإنجليز وليم ومارى إلى دخول إنجلترا بقوات مسلحة ومساعدتهم على خلع ملكهم الكاثوليكي . وتردد وليم ، لأن لويس الرابع عشر كان تحت يده جيش هرمم ينتظر قرار الملك ليهاجم الأراضى المنخفضة أو الامبراطورية . وأرسل لويس الأمر للجيش بأن يزحف على ألمانيا ، فأطلق بذلك يد وليم . وفى ١ نوفمبر ١٦٨٨ أبحر بأربعة عشر ألف رجل ليكسب عرش إنجلترا .

فرس

المجزع الأول

من المجموع لـ الثامن

الكتاب الأول

فرنسا في أوج عظمتها ١٦٤٣ - ١٧١٧

صفحة

الفصل الأول

٧

المهملات تشرق: ١٦٤٣ - ٨٤

٢١ - ٧

١ - مازاران والفروند .

٣١ - ٢١

٢ - الملك .

٣٤ - ٢١

٣ - ديولا فوكيه .

٣٥ - ٣٤

٤ - كرفير يعيد بناء فرنسا .

٥٢ - ٤٥

٥ - الآداب والأخلاق .

٥٧ - ٥٢

٦ - بلاط الملك .

٦٨ - ٥٧

٧ - نساء الملك .

٧٤ - ٦٩

٨ - الملك يحضى إلى الحرب .

الفصل الثاني

٧٥

بوقة الإتيان ١٦٤٣ - ١٧١٥

٨١ - ٧٥

١ - الملك والكنيسة .

٨٦ - ٨١

٢ - البور - رويال ١٦٢٦ - ١٢٠٤

- ٣ - الجانسيون واليهوعيين
٤ - بسكال .
٩٠-٨٦
٩٠
٩٥-٩٠ (أ) بسكال الإنسان .
٩٧-٩٥ (ب) الرسائل الاقليمية .
٩٧ ٩٧ (ج) في الدفاع عن الإيمان .
٥ - البور - رويال . ١٦٥٦ - ١٧١٥
٦ - فللك واليهيجونوت .
٧ - موسويه .
٨ - فنيون
١١٠-١٠٧
١١٩-١١١
١٢٨-١١٩
١٣٥ - ١٢٨

الفصل الثالث

- ١٣٦
١٧١٥ - ١٦٤٣ : اللك والفنون
١ - تنظيم الفنون .
٢ - العبارة .
٣ - الزخرفة .
٤ - التصوير .
٥ - النحت .
١٤٠-١٣٦
١٤٦-١٤٠
١٤٩ - ١٤٦
١٥٥ ١٤٩
١٦١-١٥٥

الفصل الرابع

- ١٦٢
١٦٢٣ : مولير : ٧٣
١ - المسرح الفرنسي .
٢ - تلمذته .
٣ - مولير وسيدات المجتمع
٤ - غرام طرطوف
٥ - الملحد العاشق .
١٦٤ ٢٦٢
١٦٧ ١٦٤
١٧٧-١٦٨
١٨٣ ١٧٧
١٨٦ ١٨٣

- ٦ - موليير في أوجه . ١٩٤ ١٨٦
٧ - ستار . ١٩٨ - ١٩٤

الفصل الخامس

أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي : ١٩٩

١٦٤٣ - ١٧١٥

- ١ - جو الكلاسيكية . ١٩٩ - ٢٠٢
٢ - تذييل لكورني . ٢٠٢ - ٢٠٤
٣ - راسين . ٢٠٤ - ٢٢١
٤ - لافونتين . ٢٢١ - ٢٢٤
٥ - بوالو . ٢٢٤ - ٢٢٨
٦ - الاحتجاج الرومانسي . ٢٢٩ - ٢٣١
٧ - مدام دسفيانييه . ٢٣٢ - ٢٣٧
٨ - لاروشفوكو . ٢٣٧ - ٢٤٣
٩ - لا برويير . ٢٤٣ - ٢٤٥
١٠ - مزيد من الأدباء . ٢٤٥ - ٢٥٠

الفصل السادس

مأساة في الأراضي المنخفضة : ١٦٤٩ - ١٧١٥ ٢٥١

- ١ - الأراضي المنخفضة الأسبانية . ٢٥١ - ٢٥٣
٢ - الجمهورية الهولندية . ٢٥٣ - ٢٥٨
٣ - ازدهار صور الحياة اليومية . ٢٥٨ - ٢٦٣
٤ - جان دي ويت . ٢٦٣ - ٢٧٢
• - وليم أورانج الثالث . ٢٧٢ - ٢٧٦

CHAPTER I

1. Motteville, Mme. de, *Memoirs*, I, 79.
2. Retz, Cardinal de, *Memoirs*, 103.
3. Motteville, I, 81.
4. Retz, 103.
5. Motteville, III, 232.
6. *History Today*, July 1959, p. 461.
7. Bishop, M., *Life and Adventures of La Rochefoucauld*, 149.
8. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 36.
9. Retz, 281.
10. Sainte-Beuve, *Portraits of the Seventeenth Century*, I, 335.
11. Retz, 55, 73.
12. Voltaire, *Louis XIV*, 67.
13. Michelet, *Histoire de France*, IV, 388; Acton, *Lectures on Modern History*, 235.
14. Motteville, III, 237.
15. Palmer, *Molière*, 15.
16. Saint-Simon, *Memoirs*, II, 361.
17. Sainte-Beuve, I, 422.
18. *Ibid.*, 417.
19. *History Today*, March 1954, p. 149.
20. Voltaire, 256.
21. *Ibid.*, 69.
22. Rea, Lillian, *Countess of La Fayette*, 170.
23. Ferval, *Louise de La Vallière*, 55.
24. Saint-Simon, II, 369.
25. Sainte-Beuve, I, 413.
26. Saint-Simon, II, 361.
27. Sainte-Beuve, I, 423.
28. Louis XIV, *Mémoires*, 35.
29. In Sainte-Beuve, I, 417.
30. Boulenger, *Seventeenth Century*, 178.
31. Motteville, III, 248.
32. Lewis, W. H., *Splendid Century*, 30.
33. Voltaire, 257.
34. Barine, *La Grande Mademoiselle*, 117.
35. Louis XIV, 76.
36. Martin, H., *Age of Louis XIV*, I, 63-65; Michelet, IV, 424-27.
37. Guizot, *History of Civilization*, I, 260.
38. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, I, 533.
39. Louis XIV, 96.
40. King, J. E., *Science and Rationalism in the Government of Louis XIV*, 87.
41. Saint-Simon, II, 34.
42. Louis XIV, 68.
43. King, 95.
44. Saint-Simon, II, 106, 370.
45. Guérard, *Life and Death of an Ideal*, 153.
46. Louis XIV, 70.
47. France, Anatole, *Nicolas Fouquet*, 258.
48. Voltaire, 262.
49. Martin, H., I, 23, quoting de Choisi.
50. Louis XIV, 74.
51. Martin, I, 22.
52. Sée, Henri, *Economic and Social Conditions in France during the 18th Century*, 93.
53. Martin, I, 34.
54. *Ibid.*, 33f.; Michelet, IV, 410.
55. Boulenger, 356.
56. Mousnier, R., *Histoire générale des civilisations*, IV, 148.
57. Voltaire, 324; Martin, I, 79.
58. Michelet, IV, 428.
59. Mousnier, IV, 148.
60. Voltaire, 273; Martin, I, 86.
61. Boulenger, 357; Lewis, *Splendid Century*, 81.
62. *History Today*, March 1954, p. 155.
63. Mousnier, IV, 252.
64. Nussbaum, *Economic Institutions of Modern Europe*, 154.
65. Mousnier, IV, 250; *Cambridge Modern History*, V, 11.
66. Boulenger, 355.
67. Levasseur, *Histoire des classes ouvrières et de l'industrie en France avant 1789*, I, 394.
68. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 366.
69. In Acton, *Lectures*, 326.
70. Martin, I, 489-90, 496.
71. Voltaire, 323.
72. Martin, I, 558.
73. Barine, 13.
74. Saint-Simon, I, 383; Voltaire, 288.
75. *Encyclopaedia Britannica*, XIII, 778c; Brexeton, *Jean Racine*, 245-52.
76. Molière, *Théâtre: École des femmes*, I, i.
77. Sainte-Beuve, I, 250; Day, Lillian, *Ninon*, 34.
78. Sévigné, Mme. de, *Letters*, I, 98, April 1, 1671.
79. Day, *Ninon*, 141.
80. Parton, *Life of Voltaire*, I, 33.
81. Saint-Simon, I, 344.
82. Sévigné, I, 105, April 8, 1671; Day, *Ninon*, 242.
83. *Ibid.*, 80.
84. Saint-Simon, I, 344.
85. Day, 246.
86. *Ibid.*, 185.
87. Saint-Simon, I, 345.
88. Day, 260.
89. Sainte-Beuve, II, 199.

- ب
90. Boissier, *Mme. de Sévigné*, 109.
 91. Michelet, V, 118.
 92. Bourgeois, *Le Grand Siècle*, 74.
 93. Boulenger, 349.
 94. Bourgeois, 77; Guizot, *History of France*, IV, 587.
 95. La Bruyère, *Characters*, chap. "Of the Gifts of Fortune."
 96. Voltaire, 278.
 97. Saint-Simon, II, 11.
 98. Fülöp-Miller, *Power and Secret of the Jesuits*, 415.
 99. Martin, I, 172.
 100. *Ibid.*, 171.
 101. Stirling-Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, III, 942.
 102. Day, *Ninon*, 163.
 103. Cartwright, *Madame; A Life of Henrietta, Duchess of Orléans*, 89.
 104. Racine, *Oeuvres: Andromaque*, Dedication.
 105. Michelet, IV, 405.
 106. *Ibid.*, V, 158.
 107. Cartwright, 371; Voltaire, 284; Martin, I, 312.
 108. Ferval, *La Vallière*, 67.
 109. *Ibid.*, 302.
 110. Voltaire, 282.
 111. Michelet, IV, 437.
 112. Saint-Simon, I, 391.
 113. Boulenger, 192.
 114. Cruttwell, *Mme. de Maintenon*, 79.
 115. *Ibid.*, 46.
 116. *Ibid.*, 53.
 117. Michelet, V, 69; Martin, I, 535.
 118. Saint-Amand, *Court of Louis XIV*, 46.
 119. Cruttwell, 89; Martin, I, 530.
 120. Boulenger, 195; Michelet, IV, 490; Cruttwell, 118-19.
 121. Saint-Simon, II, 381.
 122. *Ibid.*, III, 15.
 123. Acton, 236; Ogg, *Europe in the 17th Century*, 231.
 124. Louis XIV, 122-25.
 125. Martin, I, 417.
 126. Voltaire, 260; Martin, I, 40n.; *Enc. Brit.*, XII, 682c; Acton, 243.
 127. *Camb. Mod. History*, V, 77.
 128. Lewis, *Splendid Century*, 239.
 8. Ranke, *History of the Popes*, II, 420.
 9. Fülöp-Miller, 105.
 10. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 74f.
 11. *Ibid.*, 83; Beard, Charles, *Port-Royal*, II, 30.
 12. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 89.
 13. Beard, Charles, I, 30.
 14. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 90.
 15. *Ibid.*, II, 407n.
 16. Beard, C., I, 51.
 17. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 94.
 18. Pascal, *Provincial Letters*, Introd., 97, and 421n.
 19. Voltaire, 419; Beard, C., I, 260.
 20. Pascal, *Letters*, Introd., 109.
 21. Mesnard, *Pascal*, 12.
 22. Mornet, Daniel, *Short History of French Literature*, 75.
 23. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 379; Mesnard, 40.
 24. Owen, John, *Skeptics of the French Renaissance*, 748.
 25. Pascal, *Pensées*, Havet ed. Introd., p. civ.
 26. Mesnard, 57.
 27. *Ibid.*, 209.
 28. Pascal, *Pensées*, Introd., p. cxxiii.
 29. Pascal, *Provincial Letters*, 197.
 30. *Ibid.*, 417.
 31. *Ibid.*, 465; *Pensées*, II, 118.
 32. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 235.
 33. Mesnard, 92.
 34. Voltaire, 424.
 35. In Pascal, *Provincial Letters*, 127n.
 36. Fülöp-Miller, 195.
 37. Voltaire, 424, 358.
 38. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 118.
 39. Voltaire, 359.
 40. Sainte-Beuve, III, 173f.; Beard, C., I, 84.
 41. Pascal, *Pensées*, Introd., xxviii; Mesnard, 137-38.
 42. Cf. Rabelais, Book III, Ch. xiii.
 43. *Pensées*, Introd., p. xxv; text, 17bis.
 44. *Ibid.*, text, i, 1.
 45. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, 174.
 46. *Pensées*, Everyman's Library, No. 82.
 47. *Pensées*, Havet ed., Book III, No. 18.
 48. Everyman ed., No. 4.
 49. Havet ed., XVI, pt *ibis*.
 50. *Ibid.*, XX, p. 19.
 51. *Ibid.*, I, p. 1.
 52. Everyman ed., No. 349.
 53. *Ibid.*, No. 418.
 54. Havet ed., VIII, p. 1.
 55. *Ibid.*, II, p. 8.
 56. *Ibid.*, VI, p. 51; Everyman ed., No. 451.
 57. Havet, IV, p. 1.
 58. *Ibid.*, II, pp. 6, *ibis*, 3.
 59. Everyman, No. 402.

CHAPTER II

1. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 393; Guérard, 186-90.
2. Mesnard, *Pascal*, 99.
3. Campbell, *The Jesuits*, 259; Fülöp-Miller, 195.
4. Voltaire, 430.
5. Saint-Simon, II, 84.
6. *Ibid.*, III, 37.
7. Louis XIV, 119.

60. *Ibid.*, No. 397; Havet, I, p. 3.
 61. Havet, I, p. 6; Everyman, No. 347.
 62. Everyman, No. 277.
 63. Havet, XXIV, p. 52.
 64. *Ibid.*, X, p. 1; Everyman, No. 233.
 65. Everyman, No. 233.
 66. Havet, II, p. 8.
 67. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 508.
 68. Havet, IV, 7.
 69. *Ibid.*, XIV, 2.
 70. Robertson, J. M., *Short History of Freebought*, II, 124.
 71. Owen, 800.
 72. *Ibid.*, 775.
 73. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 320.
 74. Beard, C., II, 75.
 75. *Provincial Letters*, 59.
 76. *Pensées*, Havet, *Introd.*, cxii.
 77. Beard, C., II, 352.
 78. Disraeli, Isaac, *Curiosities of Literature*, I, 97.
 79. Saint-Simon, II, 12.
 80. Boulenger, 284.
 81. Michelet, V, 298.
 82. In Martin, H., I, 231.
 83. Lewis, *Splendid Century*, 108.
 84. Sanders, *Bossuet*, 53.
 85. *Camb. Mod. History*, V, 22.
 86. Martin, I, 529.
 87. *Ibid.*
 88. *Ibid.*, 532.
 89. Michelet, IV, 520.
 90. Guizot, *History of France*, V, 23.
 91. *Camb. Mod. History*, V, 23.
 92. *Ibid.*
 93. Boulenger, 263.
 94. Martin, I, 552.
 95. Ogg, *Seventeenth Century*, 305.
 96. Martin, II, 33.
 97. *Ibid.*, 43.
 98. Buckle, H. T., *History of Civilization*, II, 492n., quoting Benoist, Élie, *Histoire de l'Édit de Nantes (1695)*, V, 887f.
 99. Michelet, IV, 507.
 100. Voltaire, 409.
 101. Martin, II, 44.
 102. Robertson, J. M., II, 142.
 103. Saint-Simon, III, 14.
 104. Beard, Miriam, 373.
 105. Bacon, "Of Unity in Religion," in *Essays*.
 106. Sanders, *Bossuet*, 46.
 107. Bossuet, *Oraisons funèbres et sermons*, 69.
 108. *Ibid.*, 108.
 109. Eccles. xvii, 14.
 110. Romans xiii, 1.
 111. Isaiah xiv, 1.
 112. Sanders, 213.
 113. Bossuet, in Ogg, 102.
 114. Sanders, 260.
 115. Buckle, *Ib.*, 569.
 116. Faguet, *Literary History of France*, 446.
 117. Michelet, IV, 517.
 118. Martin, II, 268.
 119. Sanders, 280; Michelet, IV, 412.
 120. Fénelon, *Télémaque*, end of Book IX.
 121. *Ibid.*, Book XIII.
 122. Faguet, *Literary History*, 446.
 123. Hazard, *The European Mind: The Critical Years*, 208.
 124. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 191.
 125. Bayle, *Philosophical Commentary on . . . "Let Them Come in,"* in Robinson, H., *Bayle the Sceptic*, 73.
 126. Bayle, *Dictionnaire historique et critique*, s.v. "Xénophanes."
 127. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 302.
 128. Mornet, *Les Origines intellectuelles de la Révolution française*, 24.
 129. Meyer, R. W., *Leibniz and the 17th-Century Revolution*, 35.

CHAPTER III

1. Pradel, *L'Art au siècle de Louis XIV*, 101.
2. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 376.
3. *Ibid.*, 325.
4. Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 583.
5. Pradel, 96.
6. *Ibid.*, 99.
7. Boulenger, 365.
8. Fergusson, *History of the Modern Styles of Architecture*, 236-8.
9. Saint-Simon, I, 186.
10. Martin, II, 212; Blomfield, *Three Hundred Years of French Architecture*, 86.
11. Victoria and Albert Museum, London.
12. Dillon, *Glass*, 210.
13. Guizot, *History of France*, IV, 566.
14. Stranahan, *History of French Painting*, 50.
15. Louvre.
16. Dimier, Louis, *Histoire de la peinture française (Paris, 1927)*, II, 45.
17. Versailles.
18. Benoist, *Coysevox*, 115; the bust is in the Louvre.
19. Louvre.
20. Louvre.
21. Louvre.
22. Louvre.
23. Louvre.

CHAPTER IV

1. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 258.
2. Palmer, *Musee*, 40.

3. Mantzius, Karl, *History of Theatrical Art*, IV, 42.
4. Molière, *Le Misanthrope*, II, v, 711f.
5. Lucretius, *De rerum natura*, IV, 1155f.
6. Martin, I, 190; Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 95-97.
7. Palmer, 59.
8. Voltaire, *Life of Molière*, in Clark, B. H., *Great Short Biographies of the World*, 628.
9. Palmer, 147.
10. *Les Précieuses ridicules*, scene iv, in Molière, *Plays*, Everyman's Library ed.
11. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 271.
12. Palmer, 145.
13. *Les Précieuses ridicules* (Everyman ed.), scene ix.
14. *L'École des maris* (Everyman), I, i.
15. *L'Impromptu de Versailles* (Everyman), I, i.
16. *L'École des femmes*, I, i.
17. *L'École des femmes* (Everyman) I, i.
18. *Critique de l'École des Femmes*, vi.
19. *Ibid.*
20. Michelet, IV, 419.
21. Molière, *Théâtre*, II, 40.
22. Palmer, 335.
23. *Tartuffe* (Everyman), I, vi.
24. *Ibid.*, III, ii.
25. III, vii.
26. IV, v.
27. *Le Festin de pierre* (Everyman), I, i.
28. *Ibid.*, III, i.
29. IV, ii.
30. Palmer, 380f.
31. As in the Everyman's Library edition.
32. *Le Festin de pierre* (Everyman), III, i.
33. Garrison, *History of Medicine*, 296.
34. *L'Amour médecin* (Everyman), II, v.
35. Palmer, 410.
36. *Le Misanthrope* (Everyman), II, i.
37. *Le Misanthrope*, I, i.
38. *Ibid.*, Classiques Larousse ed., 97-98.
39. In Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 126-27.
40. *L'Avare*, II, vi.
41. *Le Bourgeois Gentilhomme* (Everyman), II, iv.
42. Guizot, *History of France*, IV, 560.
43. Michelet, IV, 421.
44. *Le Malade imaginaire* (Everyman), III, iii.
45. Edwards, *Idols of the French Stage*, I, 40.
46. *Ibid.*, 45.
47. *Le Bourgeois Gentilhomme* (Everyman), I, i.
48. *Critique de l'École des femmes* (Everyman), vi.

49. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 140.
50. Guérard, *Life and Death of an Ideal*, 204.

CHAPTER V

1. Martin, I, 142; Boulenger, 360; *Camb. Mod. History*, V, 152; Bourgeois, *Le Grand Siècle*, 93.
2. Guizot, *History of Civilization*, II, 231; Hauser, *Social History of Art*, I, 470.
3. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française au xviii^e siècle*, III, 404.
4. Van Laun, *History of French Literature*, II, 184.
5. *Enc. Brit.*, VI, 441b.
6. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 293; Brereton, *Racine*, 29.
7. Racine, Louis, *Mémoires sur la vie . . . de Jean Racine*, in Racine, Jean, *Oeuvres*, I, 42.
8. Brereton, 29.
9. Guizot, *History of France*, IV, 539.
10. Racine, *Andromaque*, I, iii.
11. Brereton, 154; Martin, I, 170.
12. Suetonius, *De vita Caesarum: Divus Titus*, vii, 2.
13. Racine, Bérénice, I, v.
14. Desnoiresterres, VI, 96.
15. Guizot, *France*, IV, 541.
16. Smith, Adam, *Theory of Moral Sentiments*, I, 255.
17. Racine, *Oeuvres*, I, 765.
18. Brereton, *Racine*, 245-52.
19. *Ibid.*, 19.
20. 2 Kings xi; 2 Chronicles xii.
21. Racine, *Athalie*, IV, iii.
22. Parton, *Voltaire*, I, 591; Mme. du Defand, in Strachey, *Books and Characters*, 99; Guizot, *France*, IV, 546; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, VI, 147; Faguet, *Dix-septième Siècle*, 314.
23. Guizot, *France*, IV, 548.
24. Racine, Louis, *Mémoires*, in Racine, *Oeuvres*, I, p. iii.
25. Saint-Simon, I, 155; Guizot, *France*, IV, 548-49; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, VI, 153; Faguet, *Dix-septième Siècle*, 303.
26. Guizot, IV, 548.
27. *Ibid.*
28. Racine, L., *Mémoires*, in Racine, *Oeuvres*, I, 113.
29. Babbitt, Irving, *The Spanish Character*, 98.
30. Brereton, 143.
31. Sévigné. Mme. de, *Letters*, II, 210 (Mar. 16, 1672).
32. Desnoiresterres, VI, 102, 281.
33. Hume, "Of Civil Liberty," in *Essays*, 52.

34. La Fontaine, *Choix de contes*, 151.
 35. *Fables*, Preface.
 36. Rea, *Life of . . . Countess of La Fayette*, 230.
 37. Guizot, IV, 552.
 38. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 148.
 39. Guizot, IV, 553.
 40. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, V, 24.
 41. *Ibid.*
 42. Faguet, *Dix-septième Siècle*, 238.
 43. Boileau, *Satire 1*, in *Poètes français*, VII, 21.
 44. *Satire IX*.
 45. *Poètes français*, VII, 182-85; *Enc. Brit.*, III, 790d.
 46. Day, *Ninon*, 211.
 47. Boileau, *L'Art poétique*, 1, II, 75-76.
 48. *Ibid.*, II, 171-74.
 49. IV, 59-60.
 50. IV, 125-26.
 51. III, 45-46.
 52. III, 391-94.
 53. In Fischer, *Descartes and His School*, 511.
 54. Guizot, *France*, IV, 551.
 55. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 261.
 56. Lewis, *Splendid Century*, 268.
 57. Guizot, IV, 519.
 58. La Fayette, Mme. de, *La Princesse de Clèves*, 104.
 59. Rea, *Countess of La Fayette*, 284.
 60. Bishop, *La Rochefoucauld*, 266.
 61. Boissier, *Atme. de Sévigné*, 27.
 62. Sévigné, *Letters*, I, 170 (June 10, 1671).
 63. Letter of Jan. 20, 1672.
 64. In Boissier, 145.
 65. *Ibid.*, 145-47.
 66. *Letters*. Introd., xxxviii.
 67. Letter of July 5, 1761.
 68. Apr. 8, 1761.
 69. Boissier, 201; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 132.
 70. Apr. 10, 1671.
 71. Guizot, IV, 516.
 72. Bishop, *La Rochefoucauld*, 128.
 73. *Moral Maxims and Reflections*, 84.
 74. *Ibid.*, 150.
 75. 84.
 76. 122.
 77. 178.
 78. 11.
 79. 471.
 80. 9.
 81. 119.
 82. 82, 465.
 83. In Bishop, 68.
 84. *Moral Maxims*, 15.
 85. *Ibid.*, 77.
 86. 138.
 87. 140.
 88. 74.
 89. 307.
 90. 436.
 91. Preface to the first edition.
 92. In Bishop, 144.
 93. *Moral Maxims*, 688.
 94. *Ibid.*, 70.
 95. *Ibid.*, 658-59.
 96. In Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, I, 380.
 97. *Moral Maxims*, 476.
 98. Rea, *Countess of La Fayette*, 265.
 99. Sainte-Beuve, *loc. cit.*
 100. Faguet, *Dix-septième Siècle*, 395.
 101. La Bruyère, *Characters*, p. 273, Ch. xii, 7.
 102. *Ibid.*, p. 492, Ch. xii, 7.
 103. E.g., Ch. xi, 35, and Ch. xvii, 28, in La Bruyère, pp. 267, 469.
 104. Guizot, *France*, IV, 528.
 105. Motteville, *Memoirs*, I, 150.
 106. French text in Fellows and Torrey, *The Age of the Enlightenment*, 35-39.
 107. Hazard, *The Critical Years*, 127.
 108. Saint-Evremond, Letter to de Créquy, in King, J., *Science and Rationalism*, 26.
 109. Frederick II to Voltaire, Sept. 19, 1774, in Voltaire and Frederick the Great, *Letters*.
 110. Lewis, *Splendid Century*, 282.
 111. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 1.

CHAPTER VI

1. A good example in Metropolitan Museum of Art, New York.
2. Vienna.
3. Dresden.
4. Madrid.
5. Louvre.
6. Wolf, *History of Science . . . in the XVIth and XVIIth Centuries*, 626.
7. Beard, Miriam, 305.
8. Day, Clive, *History of Commerce*, 194; Marx, *Capital*, I, 826.
9. *Camb. Mod. History*, V, 12.
10. Adam Smith, in Nussbaum, *History of Economic Institutions*, 72.
11. Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 44.
11. Spinoza, *Tractatus Theologico-Politicus*, Ch. xx.
13. Pepys, *Diary*, May 14, 1660.
14. Hazard, *Critical Years*, 93.
15. Graetz, H., *History of the Jews*, V, 20.
16. Hazard, 88.
17. Vienna.
18. The Hague.
19. New York.
20. Baron Thyssen Collection.
21. The Hague.
22. Mather, F. J., *Western European Paint-*

- ing of the Renaissance*, 549.
23. Czernin Collection, Vienna.
 24. The Hague.
 25. Edinburgh.
 26. Frick Gallery, New York.
 27. London.
 28. Dresden.
 29. Louvre.
 30. New York.
 31. Washington.
 32. Chicago.
 33. Budapest.
 34. Frick Gallery.
 35. Brussels.
 36. Berlin.
 37. London.
 38. Louvre.
 39. The Hague.
 40. Amsterdam.
 41. Dresden.
 42. New York.
 43. Mather, 590.
 44. In Beard, Miriam, 288.
 45. In Browne, Sir Thomas, *Religio Medici*, 19.
 46. Voltaire, *Agè of Louis XIV*, 94; Martin, *Louis XIV*, I, 333.
 47. Voltaire, 93.
 48. Bowen, Marjorie, *William Prince of Orange*, 196.
 49. Martin, I, 347.
 50. Bowen, 92.
 51. *Camb. Mod. History*, V, 158.
 52. Burnet, Bishop, *History of His Own Times*, 117.
 53. *Camb. Mod. History*, V, 160; Acton, *Lectures*, 228.
 54. Kronenberger, *Marlborough's Duchess*, 30.